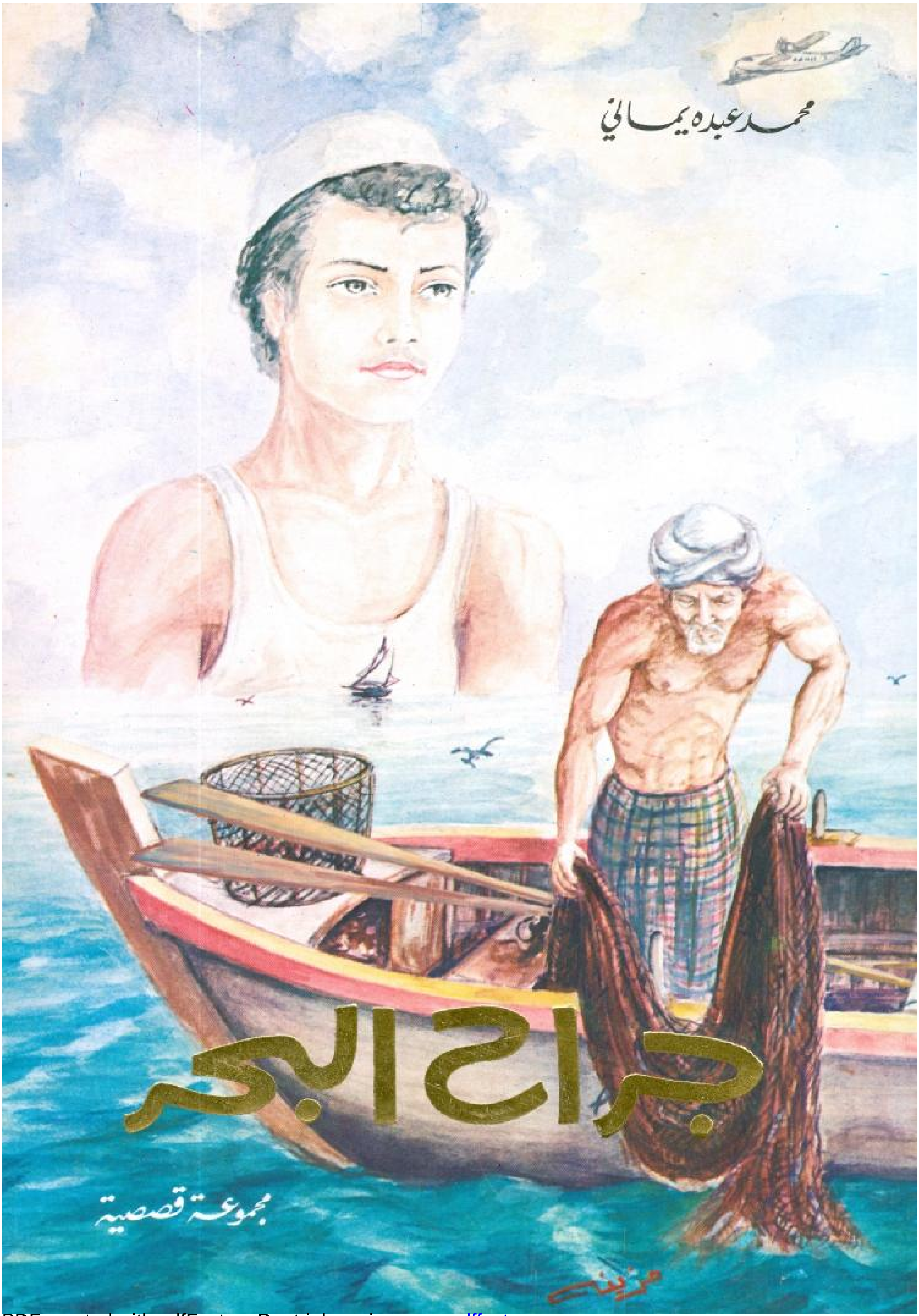

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جراح البحر
وقصص أخرى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محمد عبده يماني

جراح البحر

وقصص أخرى

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

مجموعة قصصية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

العزيزة مريم ...

وانت رفيقة عمر ..

ودرب

ومنهج

اعتزازاً .. ووفاءً .. واعترافاً

بالعطاء ...

٧ رمضان ١٤٠٢

المحب

محمد عبده يماني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان في تقديري ان مجموعتي القصصية هذه لاتحتاج إلى مقدمة . . .

فلقد سبق لي ان اوضحت ماكنت اعتقد ان من الضروري ايضاحه للقارىء الكريم من أنني ارى ان على الاديب .. والكاتب .. ان يقول كلمته ، بالقالب الفني الذي يرى انه ملائم له ولموضوعه ، ويترك للقراء والمشتغلين بالنقد مهمة الحكم له او عليه . . وله – بعد ذلك – ان يتأثر بالنقد باعتباره احد العوامل ، بل الروافد ، لفنه . .

وروافد الكاتب كثيرة ، ومتعددة ، ومتشعبة ، وعلى قدر ماتكون الروافد عميقة ، واصيلة ، بقدر مايكون انتاجه خصبا . . ومن اهم هذه الروافد : البيئة . . والثقافة . . والتجربة الذاتية . . وامتلاء ذهن الكاتب بشيء يريد التخفف منه بالتعبير عنه ومشاركة الناس له في حمله . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد حظي كتاباي القصصيان السابقان « اليد السفلى » و « فتاة من حائل » بنقد تراوح بين التقريظ المفرط ، والتقييم الموضوعي ، والانكار المطلق (...) .

اما الاول فلم اطمع به قط . .

واما الثاني فقد استفدت منه ، واحترّمته ، لانني وجدت فيه مجالا للاستفادة دفعتني لاعادة النظر في عملي الحالي الذي اقدمه بين يدي القارىء الكريم . .

اما الثالث فقد اخذ عليّ ، أكثر ما أخذ ، الافراط في « الواقعية » . . وبعض « النقاد » رأى ان عملي في حقل الاعلام قد ترك بصماته على اسلوبي . .

وانا اعترّف بأن اعمالي القصصية تصطبغ ، فعلا ، باللون الواقعي . .

ولكنها واقعية يتمازج فيها الخيال والمثال مع الواقع ، وقد يختلطان به . . واحسب ان هذه المزاوجة ضرورية ، في الأدب الواقعي خصوصا ، عندما تكون تصويرا للواقع . . ليس — بطبيعة الحال — نقلا « فوتوغرافيا » عنه او له والا فأين « الفن » اذن ؟ . . وماهو دوره ؟ . .

الواقعية — عندي — هي تصوير فني للواقع . . والفنية ، هنا ، تقوم على الابداع في اختيار شرائح من الواقع . . وبلورتها وصياغتها بصورة تحقق الهدف الذي يسعى اليه الكاتب . . والاسلوب الذي يعتمده قد يتباين سخرية منها او حزنا عليها أورثاء لها . . .

ولقد حاولت ان يكون بعض ما اكتب اسهاما متواضعا مني في النتاج القصصي العربي من زاوية لم يألفها القارىء العربي كثيراً وهي البيئة السعودية المستمدة من مجتمعنا بما فيه من خصائص متميزة قد لانجدها في بيئات او

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مجتمعات اخرى . . خصوصا في مسقط رأسي : مكة المكرمة . . حيث نشأت وترعرعت . . وانطبعت في ذهني صور اخذت منها احداثا ، واستوحيت من روحانيتها ما لايخفى على القارىء ، ويمكن تلمسه في بعض السطور التي كتبت.

ومن هنا كانت « الواقعية » التي تتراوح بين المأساة الدامعة . . والفكاهة الساخرة التي تختلف ، بطبيعة الحال ، عن « المثالية » التي تعرض القيم المجردة وتبرزها وتركز عليها ، وتجعلها المحور الذي تدور حوله الاحداث . . ويتحرك الشخوص . . فهي – بالضرورة – تختلف عن « الرومانسية » التي هي شكل من اشكال المثالية الرافضة للواقعية . .

وانا ، في الحقيقة ، لا اميل إلى هذه التقسيمات والقوالب الجامدة . . أو البرازخ الفاصلة في الأدب . . لان الأدب من صنع فنان يتوخى الابداع بصرف النظر عن مدى توفيقه فيما توخى . . وهذه التقسيمات النقدية الجامدة من : واقعي ، ومثالي ، ورومانسي ، وسيريالي ، وكلاسيكي ، ولامعقول ، فهي وان كانت تقسيمات صحيحة نظريا . . الا أنها متعسفة وجامدة . . . لان الكاتب يتدفق مع طبعه . . خصوصاً اذا كان موهوبا ، لانه – عندها – يضع معاييره . . ويقيم اصوله التي لابد وان تؤخذ بعين الاعتبار عند تقييم اعماله او نقدها ، وقبل وضعها في القوالب الجامدة للتأكد من مطابقتها « للمواصفات » . . .

واحسب ان قصصي تنتمي إلى واقعية لاتفارق المثالية ولاتتناقض معها ، بل هما تمتزجان بالمقدار المطلوب للتعبير عن الفكرة المقصودة . .

فاذا نحن اتفقنا على ان الكاتب الصادق هو ابن بيئته ، وان ادبه تعبير فني عن البيئة التي عاش ، أو يعيش ، فيها وان تجاربه الذاتية هي اهم روافد موضوعاته . . فاننا نقر – دون شك – ان عليه ان يبتعد عن الاساليب التقريرية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المباشرة . . أو اساوب المذكرات الخاصة ، اللهم الا إذا كان يقصد ذلك مباشرة ، والا يكتفي بنقل الواقع كما هو وانما ينفذ – باسلوبه الخاص – إلى مافيه من قيم ومثل فيغذيه بها ويغني صوره وافكاره . .

ولهذا . . فالعمل الفني هو ، بكل تأكيد ، مسئولية صاحبه وحده . . ولابد من الاخذ بوجهة نظره . . والتعرف على معاييره بعيدا عن المقاييس والمواصفات التقليدية الجامدة التي تسعى إلى جعل القصة اشبه ماتكون بخارطة هندسية فتطالب الكاتب أن يلتزم بمقتضيات هذه الخارطة وخطوطها واتجاهاتها ، وبات متعذرا ان تنقد عملا فنيا ، كالقصة مثلاً ، تأسيساً على الخارطة التقليدية المعروفة . . على ضوء ماتراه كل يوم من نتاج فني يضرب عرض الحائط بكل المقاييس حتى ما كان منها جديرا ، حقا ، بالاحترام كالوزن والقافية في الشعر . .

اننا بتفاعلنا اليومي مع نتاج الحضارة الحديثة نقرأ بلغتنا أو بلغات الآخرين . . فنرى المسافة الشاسعة التي باتت تفصل ما بين المفاهيم الادبية التقليدية وبين لغة العصر واسلوبه مما ينعكس تلقائيا على نتاج كتابنا وادبائنا وشعرائنا . . واذا تذكرنا ان القصة هي في الاساس من الفنون المستحدثة في الأدب العربي . . وان لكل كاتب من كتاب القصة اسلوبه الخاص . . تبين لنا ان من الضروري ادخال هذه العوامل في حسابنا حين ننقد عملاً قصصيا . . فيكون مقياسنا هو سؤال اساسي :

– هل وفق الكاتب في ان يقول ما اراد ان يقوله ام لا ؟ . .

• • •

وعود على بدء . .

اقول ان المجموعة التي يضمها هذا الكتاب لاتخرج عما سبق ان قلته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في اعمال اخرى ، وهو انها كلمات اردت ان اقولها من منظور تسجيل لمحات من حياتنا الآخذة في التحول السريع . . وقد اخترت لكل منها القالب الذي رأيت انه الانسب . . كما اخترت « اللهجة » التي رأيت انها الاصلح لكل عبارة حوار سواء كان ذلك بالفصحى . . أو الفصحى المبسطة – كما يقولون – أو اللهجة المحكية . .

فلكل من هذه الوسائل اللغوية مهمة يؤديها ولو اجتمعت كلها في جملة واحدة . .

ولايجهل القارىء الكريم ان في اللهجة المحكية كلمات وتعابير لاتستطيع الفصحى ان تؤديها بنفس الدقة . . بل ان في اللهجة المحكية كلمات ليس لها في الفصحى مقابل يعطي معناها نفسه . . .

واللغة هي – من قبل ومن بعد – كائن حي يستجيب لظروف العمل الفني ويتفاعل معه . .

وهي تستجيب للبيئة والحاجة والظروف والمواقف . . ولأنها اداة نقل فمن الواجب الا تعلو على الطرف الآخر وتضطره إلى ان يشرئب بعنقه اليها . .

وانني لاتذكر جملا قرأتها لتوفيق الحكيم في كتابه « فن الأدب » يقول فيها :

– « . . ان وحي الأدب العربي لم يرد ان يتحرك لا الى اعلى ولا الى اسفل . . لا الى القرآن ولا نحو الشعب ، وهكذا انقضت قرون ومازال هذا السد قائما بين النثر العربي بسجعه وبلاغته المصطنعة وبين خيال الشعب ورغباته وآماله ، ولو ان ادباء الفصحى هدموا هذا السد من قديم الزمان ونزلوا عن بعض جمودهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعبّروا عن مطالب عصرهم وشعبهم لكان الأدب العربي اليوم في مقدمة الآداب العالمية . . لكن وأسفاه . . ان الأدب الرسمي اللغوي قد وقف حائلا دون مجرد الاقتراب من كنوز الشعب » . .

واخيراً . . فلقد بات الكتاب الآن بين يديك ، ايها القارىء الكريم ، تحكم له او عليه . . وحسبي انني قد ساهمت بهذا الجهد المتواضع النابع من البيئة السعودية . . ومن هذا البلد الطيب . .

والله من وراءالقصد ...

محمد عبده يماني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

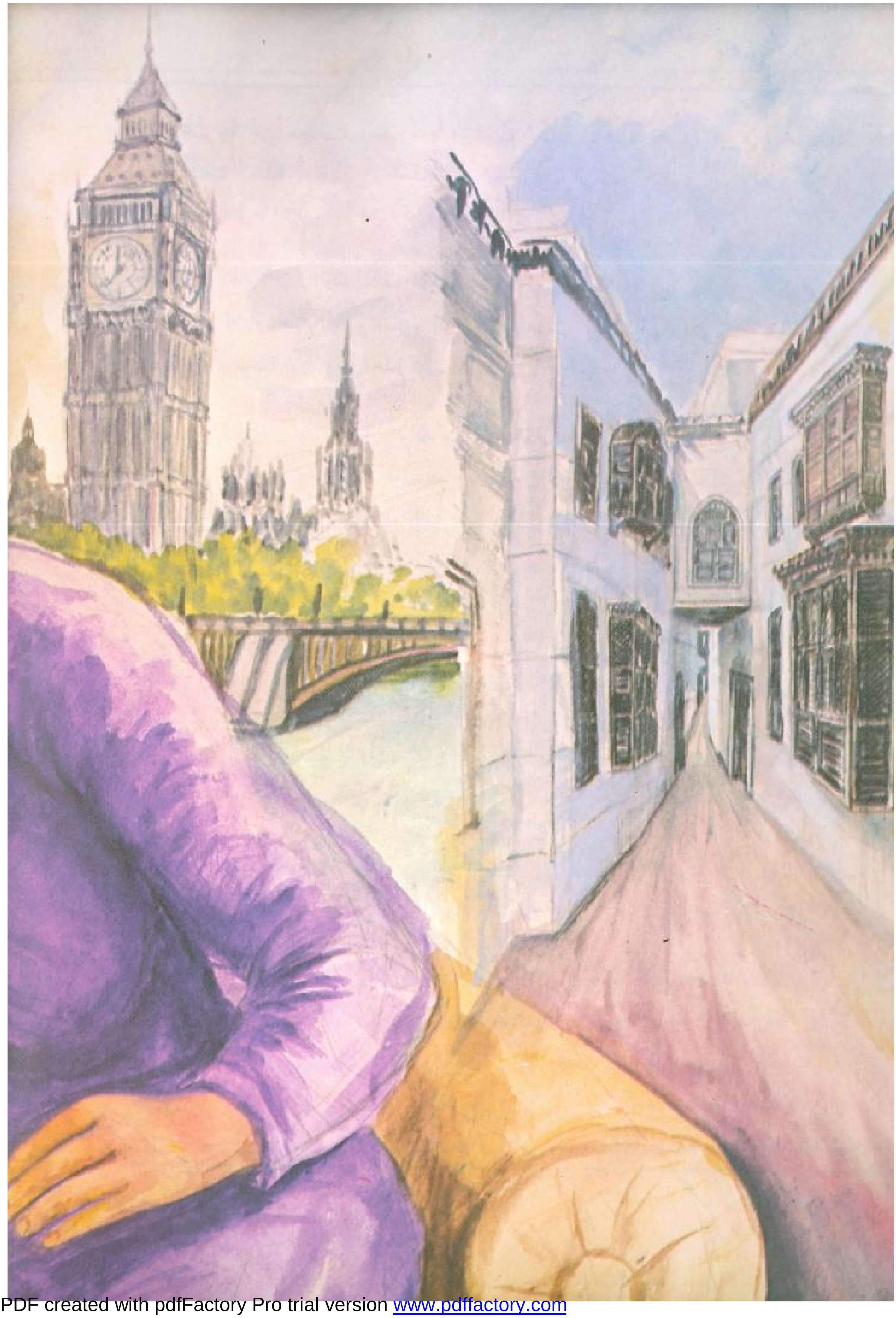

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

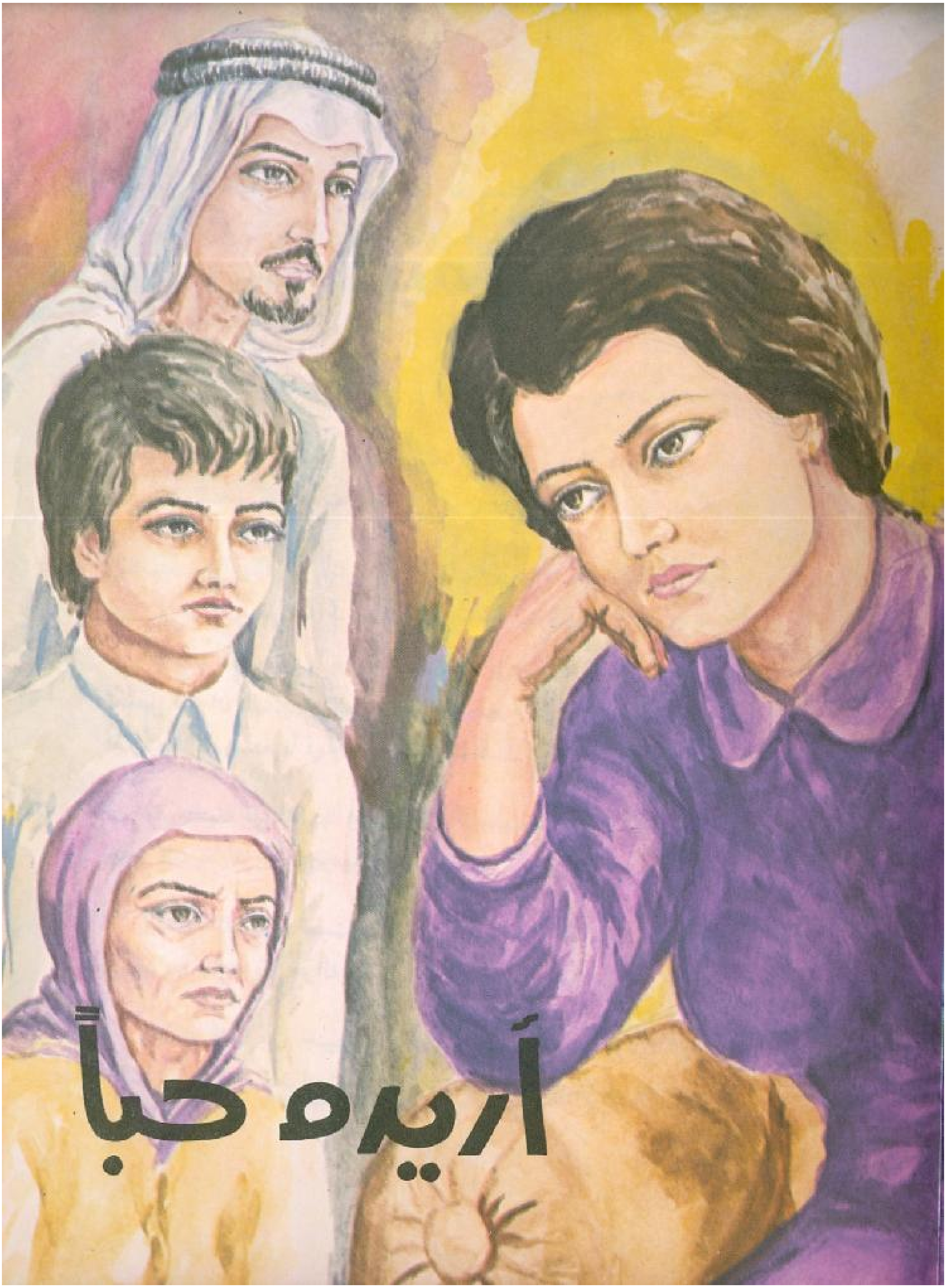

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ان تكوني متلفعة دائما بالسواد .. اياك ووضع العطور .. اياك وفتح الراديو.. اياك وفتح النوافذ الا للضرورة القصوى . .

وكانت عفاف تستمع إلى هذه النصائح بصبر ودون اي تعليق ، فهي تهز رأسها بالموافقة على كل كلمة ، مع علمها ان بعضها شرعي مقبول ، وبعضها تقليد متوارث لامبرر له . .

• • •

وتتالت الايام ، وبدأت الحياة تعود إلى حالتها الطبيعية في المنزل ، وفتحت المدارس ابوابها ، ولاحظت عفاف ان ما كان لديها من مال قد بدأ ينفد رغم التزامها الاقتصاد الشديد في الانفاق ، ولكنها طمأنت نفسها بأنها لاتلبث ان تتسلم معاش زوجها التقاعدي ، فتنتظم امورها المالية من جديد . .

واتصلت ، بادىء الامر ، بأخيها عصام تسأله عما تم في موضوع معاش التقاعد ، وما كان اشد دهشتها حين فهمت منه ان احدا من اهلها او أهل زوجها لم يهتم بالموضوع . . حتى حسن الذي ابدى لها رغبته في زيارتها – عندما اتصلت به باكية – راح يردد عبارات الاسف والاعتذار . .

وقال لها عندما جاءها في اليوم التالي :

– انا آسف جدا . . لقد فاتتنا مسألة مراجعة مصلحة التقاعد بشأن راتب المرحوم . . ولكنني باشرت في اتخاذ الاجراءات اللازمة هذا الصباح بمجرد ان اخبرني عصام بذلك .

وهمست عفاف في اعياء وهي تتخذ مكانها امام اخيها في الصالون :

– شكراً لك . . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أريده حباً

فتحت عفاف عينيها ، وراحت تنظر إلى سقف الغرفة وهي تتحرك في تكاسل قبل ان تنهض من السرير ، والقت نظرة على زوجها ماجد ، فدهشت اذ رأته مازال مستغرقاً في النوم ولم يستيقظ مبكرا كعادته . .

وارتسمت على شفتيها ابتسامة لأنها وجدت الفرصة لتسخر منه ، وهو الذي كان يعير ها بكثرة نومها . .

ولكنها مالبثت ان قطبت جبينها في قلق . . فقد كان هادئا هدوءاً مريباً . . بل لقد بدا جامدا بلا حراك . .

وغاص قلبها بين جنبيها ، واسرعت تمسك بيده لتروعها البرودة التي كانت تسري فيها ، فراحت تهزه بقوة وهي تناديه باسمه في جزع . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكنه ظل على حالته . .

وتزايد ذعرها ، فراحت تتلمس ما يدلها على انه على قيد الحياة . . فوضعت رأسها على صدره ولكنها لم تسمع ضربات قلبه . . ومررت يدها امام انفه فلم تحس بحرارة انفاسه ، وفي مثل ومض البرق قفزت من السرير وهي تنادي بأعلى صوتها الذي خنقته المفاجأة :

ـ حسن . . حسن . .

وسارعت ، متعثرة ، إلى التلفون تطلب اخاها وتوقظه من نومه راجية منه ان يأتي بطبيب في الحال بعد ان اوجزت له في عبارات متقطعة ماحدث . . .

وتجمع الأطفال عند الباب وهم يفركون عيونهم من آثار النوم متسائلين عن السبب في صياح امهم الذي ايقظهم في تلك الساعة المبكرة من الصباح . . .

• • •

ـ البقية في حياتكم . . . انا لله وانا إليه راجعون . .

وشهقت عفاف اذ سمعت كلمات الطبيب الذي غادر الغرفة وقد بدا على وجهه الحزن والاسى . . وقالت بصوت مختنق وكأنها لاتصدق ماقاله الطبيب :

ـ ولكنه لم يكن يشكو مرضا يا دكتور . .

ـ انها السكتة القلبية . .

ـ كيف ؟ . . انه صحيح الجسم . . وفي اوج شبابه كما ترى يادكتور . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– لاشيء يستحق الشكر . . واود ان تتأكدي من اننا ، جميعا ، لن نتخلى عنك وعن ابنائك . . فأنت اختنا . . وهم ابناؤنا . . واقسم لك انني لاافرق بينهم وبين ولديّ علاء ونجلاء . .

واختنق صوت عفاف تأثرا وهي تجيبه بالشكر ، ونهضت تريد ان تعد الشاي ، فاذا بجرس الباب يرن ويبدأ ابناؤها بالتوافد إلى البيت على فترات متقاربة عائدين من مدارسهم . . . وجدي – وهو في السابعة من العمر ثم احمد – وعمره خمس سنوات – ثم عفت – وعمرها تسع سنوات – ثم حنان – وهي في الثانية عشرة – واخيرا جاء فيصل – الذي كان في الرابعة عشرة – والذي كان ابوه الراحل يدعوه « عريس البيت » . . .

وكان كل من الابناء يفاجأ بوجود خاله حسن ، فيقف برهة مشدوها ، ثم يندفع إليه ويرتمي في احضانه ويطوق عنقه بذراعيه . .

والتف الابناء – اذ اكتمل جمعهم – حول الخال يكررون الترحيب به والتعبير عن شوقهم اليه . . وراح حسن يجيل بصره فيهم وكأنه يراهم لاول مرة . . وتجسم امامه فجأة هول المأساة التي اصابت هذه الاسرة بفقدها لكبيرها واغرورقت عيناه بالدموع عندما سمع وجدي يسأله بسذاجة :

– يعني يا خالي لنا الله ؟ . . ما شفناك من زمان . .

– سامحوني ياحبيبي . . كنت مشغول . .

– بس ما نقدر نسامحك . .

– ليه ياحبيبي . . ؟ . .

– علشان احنا ماعندنا بابا داحين . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– الاعمار بيد الله . . والموت لايحتاج إلى اسباب كثيرة . .

واطرق الطبيب واردف وهو يجتاز الصالون متجها نحو باب الخروج :

– عظم الله اجركم ياجماعة . .

وقال حسن مخاطبا شقيقته :

– خدي الاولاد ياعفاف وخلليهم جوه . .

وقالت عفاف ذاهلة وهي تتهالك على المقعد في تخاذل :

– ادخلهم ايه . . واعمل ايه . . خلليني في حالي . . خلليني في همي . . في المصيبة اللي ما كانت على البال . .

– خللي ايمانك بالله . . وارضي بقضاء الله وقدره . . خدي الاولاد للداخل . .

ونهضت تريد ان تأخذ الاولاد ، كما قال اخوها ، ولكن ساقيها عجزتا عن حملها فتهالكت على الارض وغطت وجهها بكفها وهي تبكي في حرقة شديدة . .

وتجمع الاولاد حولها ، وطوّق الصغار عنقها باذرعتهم الغضة وهم يبكون لبكاء امهم الذي لم يعرفوا له سببا ، فشعر حسن بالألم يمزق قلبه والحيرة تنتابه فما يدري كيف يتصرف . . واخيرا تمالك نفسه ، فبدأ يتصل بالاهل والاقارب ، وجاء بعض الجيران الذين اثار بكاء عفاف انتباههم ، وارتفع البكاء هنا وهناك بصورة كادت ان تخرج حسن عن صوابه ، فراح يصيح بعصبية طالبا من السيدات ان يتوقفن عن البكاء ، ولكن دون طائل . . .

• • •

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مضت على الفاجعة ثلاثة ايام كانت والدة عفاف تلاحظ خلالها مدى ما تشعر به ابنتها من حزن والم ، فهي لاتكاد ترى ولدا من اولادها حتى تنهمر الدموع من عينيها بغزارة وتروح تردد عبارات التفجع والأسى على الزوج الراحل . .

وقالت الام لابنتها :

– اسمعي يا ابنتي . . لافائدة من الحزن والبكاء . . ولتكن ثقتك في الله كبيرة . . انه ، سبحانه وتعالى ، لايضيع احدا . . والرزق في كل الاحوال على الله . .

وقالت عفاف في الم :

– ياماما انا معك . . رزق الاولاد على الله . . ولست قلقة عليهم . . ولكنني احمل هم تربيتهم . .

– يا ابنتي . . ان الذي يرزقهم يهيء الاسباب لتربيتهم . .

– ونعم بالله يا امي . . ونعم بالله . .

وخلال الايام التي تلت ذلك الحديث ، لاحظت الام ان ابنتها تحاول جاهدة ان تتمالك نفسها ، وان تؤدي واجبها تجاه الزوار من المعزين بجلد يائس . . فقد كانت عفاف تتمنى لو ان الناس يتركونها ، وابناءها ، في حالهم وان يدعوها تتدبر امورها في روية . . وزاد في ضيقها ما كانت عجائز الاسرة يلقينه عليها من نصائح :

– لابد من ان تحرصي على عدم الخروج من المنزل اثناء العدة . . يجب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وضغط فيصل على شفتيه ، وحاول ان يغمز اخاه الصغير كي يتوقف عن هذا الحديث ، وتدخلت الام قائلة بسرعة :

– خالك مشغول ياحبيبي . . لكن ان شاء الله نشوفه دايما . .

وبعدما قضى حسن بضع ساعات مع ابناء اخته وهو يتلقى مظاهر محبتهم ويحاول ان يبادلهم اياها بروح الاب ، غادر المنزل وهو يؤكد لعفاف انه سيتابع اجراءات معاملة تقاعد زوجها بنفسه ويكرر اعتذاره عن عدم قيامه بذلك من قبل . .

• • •

وحين تلقت عفاف خطابا رسميا ينبئها بما تقرر بشأن معاش زوجها التقاعدي ، شعرت بأن المبلغ اقل من ان يفي بالمتطلبات الضرورية للاسرة ، ولكنها عقدت العزم على ان تتدبر امورها مهما كانت الظروف ، وألا تمد يدها إلى اي انسان حتّى إلى اخوتّها . . .

وتوجهت إلى غرفة مكتب زوجها تريد وضع الخطاب في احد الادراج ، ولكنها وجدت نفسها اذ دخلت الغرفة ، تهيم في سماء الذكريات ، فتجيل بصرها في ارجاء الغرفة بحنان ، وتستعيد ذكرى زوجها وهو مكب على المطالعة والكتابة في هذه الغرفة ، فجلست على كرسيه الذي لم يجلس عليه احد منذ رحيله ، وراحت في دوامة من الماضي تسترجع احداثه وهي تنقل عينيها عبر الصور التذكارية العديدة التي كانت موضوعة على طاولة المكتب في اطارات انيقة . .

وتناولت احدى تلك الصور ، واخذت تتأملها بكثير من العناية . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت الصورة تمثل زوجها إلى جانب صديقه الشيخ زكي الذي كان مديرا لاحدى المؤسسات الكبرى وزميلا لزوجها في الدراسة . . .

وتذكرت الشيخ زكي في الحال . .

فهو معروف بطيبة قلبه وحسن اخلاقه وحبه لمساعدة الآخرين ، فلمعت في ذهنها فكرة : لماذا لاتطلب من الشيخ زكي ان يسعى لاعادة النظر في معاش زوجها التقاعدي ، بحكم مركزه المرموق وعلاقاته الطيبة وصداقته العميقة مع زوجها الراحل ؟ . .

وراحت تبحث عن رقم تليفون الشيخ زكي وهي تحدث نفسها بأن هذا لايتعارض مع قرارها بعدم طلب العون من احد ، فالشيخ زكي قادر على أن يساعدها اكثر مما يستطيع اخوتها ، فهي لاتنسى ان هؤلاء الاخوة قد اهملوا موضوع المعاش إلى ان اضطرت إلى تذكيرهم به ، والمرارة التي شعرت بها إذ ذاك عندما تبين لها ان هذا الامر لم يخطر ببال احد من اهلها او أهل زوجها.

وعندما اتاها صوت الشيخ زكي ، من مكتبه في المؤسسة ، عبر التلفون يتساءل عن المتحدث احست بخجل شديد ، وفكرت في ان تعيد السماعة دون كلام ولكنها استجمعت شجاعتها وهي تتذكر المعاش الذي تقرر لها ولابنائها ، وردّت عليه تعرّفه بنفسها . .

واثلج صدرها ان الرجل حياها بحرارة مكررا استمطار الرحمات على الراحل العزيز ، متسائلا عما يمكن ان يفعله من اجلها . .

وبكلمات مضطربة شرحت له فكرتها . انها تعرف ان هناك مجالا لمساعدتها في شأن معاش زوجها ، وانها لاتريد ان تطلب عونا مادياً من احد . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقاطعها الشيخ زكي قائلا في عطف .

— فهمت . . فهمت . . ولايهمك . . اعطني رقم الخطاب وسوف ابذل جهدي . . .

• • •

بعد اسبوع جاء حسن إلى منزل اخته وفي عينيه يرتسم عتاب واضح . .

قال لها ان الشيخ زكي قد اتصل به تليفونيا وانبأه انه قد وفق في مسعاه ، واعطاه رقم المعاملة التي انجزها طالبا اليه ان يراجع الجهة المختصة بشأنها . .

واضاف حسن مختتما كلامه :

— ما كان يحسن منك ان تطلبي من الشيخ زكي ذلك . . كان يمكن ان اقوم به انا او احد اخوتنا . .

وبدون وعي منها ، انهمرت الدموع من عينيها وقالت لاخيها في حدّة :

— انتو فين انتو ؟ . . مضت المدة دي منذ وفاة زوجي وانتو ماتسألوا غير في المناسبات . . يعني انتو نسيتوا اني ام ايتام وعندي كوم لحم في البيت ؟ اعمل ايه ؟ . . وعملت ايه غير اني كلمت الشيخ زكي . . وانت عارف انه رجال موفق . . وأهو . . قضى المسألة زي ما بتقول وربنا رزق الايتام بالشيء الذي يعينني على تربيتهم . . الله يرحم ايام « الزقاق » . . واهل « الزقاق» ورجال « الزقاق » . . وشهامة اهل « الزقاق » . . .

واطرق حسن برأسه إلى الارض ، فقد اعترف في اعماق نفسه بصدق عفاف ، وراح يستعرض في ذهنه صور « الزقاق » . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

« زقاق عانقني » . . واهل حارة « الشامية » و « الفلق » . .

لقد سمي « الزقاق » بهذا الاسم لانه كان ضيقا جداً . . وصغيرا جداً حتى ليكاد المار فيه أن « يعانق » الآخر لشدة ضيقه . .

كان الناس يعيشون في « زقاق عانقني » كأسرة واحدة . . يعرفون بعضهم البعض تمام المعرفة . . وكل طفل في الزقاق يعرفون امه واباه وكل شيء عنه . .

كان اي رجل في الزقاق يعتبر نفسه مسئولا عن جميع ابناء الزقاق . . يراعي سلوكهم . . ويتفقد احوالهم . . وكل فتاة في الزقاق تحسب ألف حساب لرجال الحي . . فهي تعرف انهم يغارون عليها . . ويحترمونها . . ويتسابقون إلى اداء الواجب نحوها . . فتاة كانت ام سيدة . . كبيرة كانت ام صغيرة .

انهم ، في الزقاق ، يحترمون الفتاة . . ويجلون السيدات . . ويشفقون على العجائز . . ويرعون مصالحهن . . بل ان اي ايا منهم ليخجل اذ يمر بمنزل اية ارملة ويراها وقد وضعت « لوح العيش » امام منزلها — كدليل على انه ليس عندها من يأخذ اللوح إلى الخباز — دون ان يبادر إلى حمل اللوح ليخبز ما فيه ويعود به . .

وإذا ما اصيب اي منهم بمرض فما عليه الا ان ينادي اقرب جار او اي مار فيسرع إلى نجدته ومساعدته دون اي تردد . .

لقد كان « أهل الزقاق » ناسا طيبين يتسابقون إلى فعل الخير في شهامة . .

كانوا ينامون مبكرين . . ويستيقظون مبكرين . . شأنهم في ذلك شأن اهل مكة المكرمة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعضهم كان يشتغل بالتجارة . . وبعضهم كان يعمل في مجال البناء . . وقليل منهم من كان يعمل موظفا لانهم كانوا يعتبرون هذا العمل امرا مخجلا ، فهم يسمون الموظف – اذ ذاك – « ولد خرقة » وكأنه مصنوع من القماش دلالة على عدم مواجهته للصعوبات . . بينما « ولد الحارة » يفترض فيه ان يكون قوي البنية . . شديد الصلابة . . متوثب الخطى . .

واستغرق حسن في افكاره حول « الزقاق » . .

في الصباح الباكر كان اهل الزقاق – كبارا وصغارا – يتجهون إلى الحرم المكي الشريف لاداء الصلاة . . وكانوا يحرصون على صلاة الفجر جماعة على وجه الخصوص لانها صلاة السجدة ، وفيها يقرأ الامام سورة السجدة . . وتعمق هذا الشعور في نفوس الناس على مر الايام ، كما تعودوا على ان يتوجهوا بعد الصلاة إلى اعمالهم في ذلك الوقت المبكر ، خصوصا من كان منهم على علاقة مباشرة بالناس كالفوالين واصحاب محلات « المطبّق » و « المعصوب » و « المقادم » و « التميس » . .

كان من طباع هؤلاء الناس انهم كانوا يحبون الخير لبعضهم . . كان صاحب الدكان يستحي ان « يستفتح » – اي يبدأ البيع – قبل جاره . . واذا تصادف ان استفتح فانه يدفع بزبونه التالي إلى جاره كي يستفتح كذلك . .

كانوا ناسا طيبين بالفعل . . قد سمت مشاعرهم فوق ماديات الحياة . . . .

في هذا « الزقاق » ولدوا جميعا ، وقضوا ايام حياتهم الاولى ، وتشربوا عادات « أهل الزقاق » وتقاليدهم . .

كانوا يقيدون تصرفات النساء ويغارون عليهن . . ولكنهم كانوا يؤدون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واجبهم نحوهن . . ويرعون شئونهن . . فكانوا مجتمعا متكافلا تحكمه المثل العليا والشهامة والاخلاق والقيم والاعراف . .

وانتبه حسن من خواطره التي خرج منها بأن اخته كانت على حق فيما قالته ، وادرك انه قد قصر فعلا في حقها ولكنه هون الامر على نفسه قائلا لها :

– سامحينا يا عفاف . . الاعتراف بالحق فضيلة . . وصدقيني اني مازعلت لانك كلمتي الشيخ زكي لانه رجل محترم وفاضل ومعروف بحب الخير . . وهو ، على اية حال ، صديق المرحوم . . بس انا خفت من كلام الناس . .

– برضه كلام الناس ؟ . . ياسيدي يتكلموا زي مايبغوا . . الله هو المطلع على كل شيء . . وهو يعرف الحقيقة . . والحمد له على كل حال . .

واختنق صوتها ، فانخرطت في بكاء مسموع لم تفلح محاولات حسن في التخفيف منه . .

• • •

عندما فتحت عفاف الباب وجدت شخصا لاتعرفه يقول لها انه سائق الشيخ زكي وان مخدومه قد بعث به ليأخذ الاولاد علّهم يروّحون عن انفسهم بعض الشيء . .

وفوجئت عفاف بهذه اللفتة غير المتوقعة من الشيخ زكي ، فظلت برهة صامتة ثم قالت للسائق بلطف :

– ارجو ان تبلغ سلامي للشيخ زكي . . وان تقول له ان يدع ذلك إلى فرصة اخرى . . لان الاولاد غير مستعدين الآن . .

وما ان انصرف الرجل حتى سارعت عفاف إلى التلفون لتتصل بالشيخ زكي ، فقد خشيت ان يفسر جوابها على غير ماقصدت منه . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واجابها الشيخ زكي ان ذلك الخاطر قد طرأ على باله بعدما استنتج من حديثه السابق معها ما تعيش فيه من ضيق نفسي ، وانه وجد ان الترويح عن الاولاد قد تكون فيه فائدة لهم ولها . . وشكرت عفاف له هذه الاريحية وطلبت منه ان يبعث بسائقه يوم الجمعة المقبل ليأخذ الاولاد إلى فلة مخدومه ذات الحديقة الواسعة . . .

وهكذا اصبحت زيارة فلة الشيخ زكي من المواعيد شبه الثابتة في حياة الاولاد ، كما اصبح عطفه عليهم واهتمامه بشئونهم حديثهم الدائم المفضل .. وظل التلفون هو الصلة الوحيدة ما بين عفاف والشيخ زكي ، فهو لم يحاول قط ان يزورها في المنزل لتفقد شئونها ، لادراكه ابعاد هذا الامر بالنسبة للناس كما انه لم يتجاوز حدود شئون الاولاد في احاديثه اليها . .

وبات واضحا ان كلا من الرجل والمرأة يحظى بنصيب من اهتمام الآخر ، بصرف النظر عن نوعية هذا الاهتمام . .

وفوجئت عفاف ، مرة ، بزيارة بعض اهلها وبينهم امها واخوها عصام ، وراح هؤلاء يتطرقون بالتلميح إلى الشيخ زكي والتحذير من عاقبة ما توهموه من علاقة بينه وبين عفاف . .

ولكن عفاف بادرت إلى التطرق للموضوع مباشرة ، فشرحت حقيقة الصلة ما بين الشيخ زكي واولادها وقالت وصوتها يختنق بالبكاء انها على استعداد لان تمنع الاولاد من زيارة الشيخ شريطة ان يكفيها الناس شرهم ، وقالت في ختام حديثها :

— ياناس . . حرام عليكم . . سيبوني في حالي . . خللوني اعرف اربي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

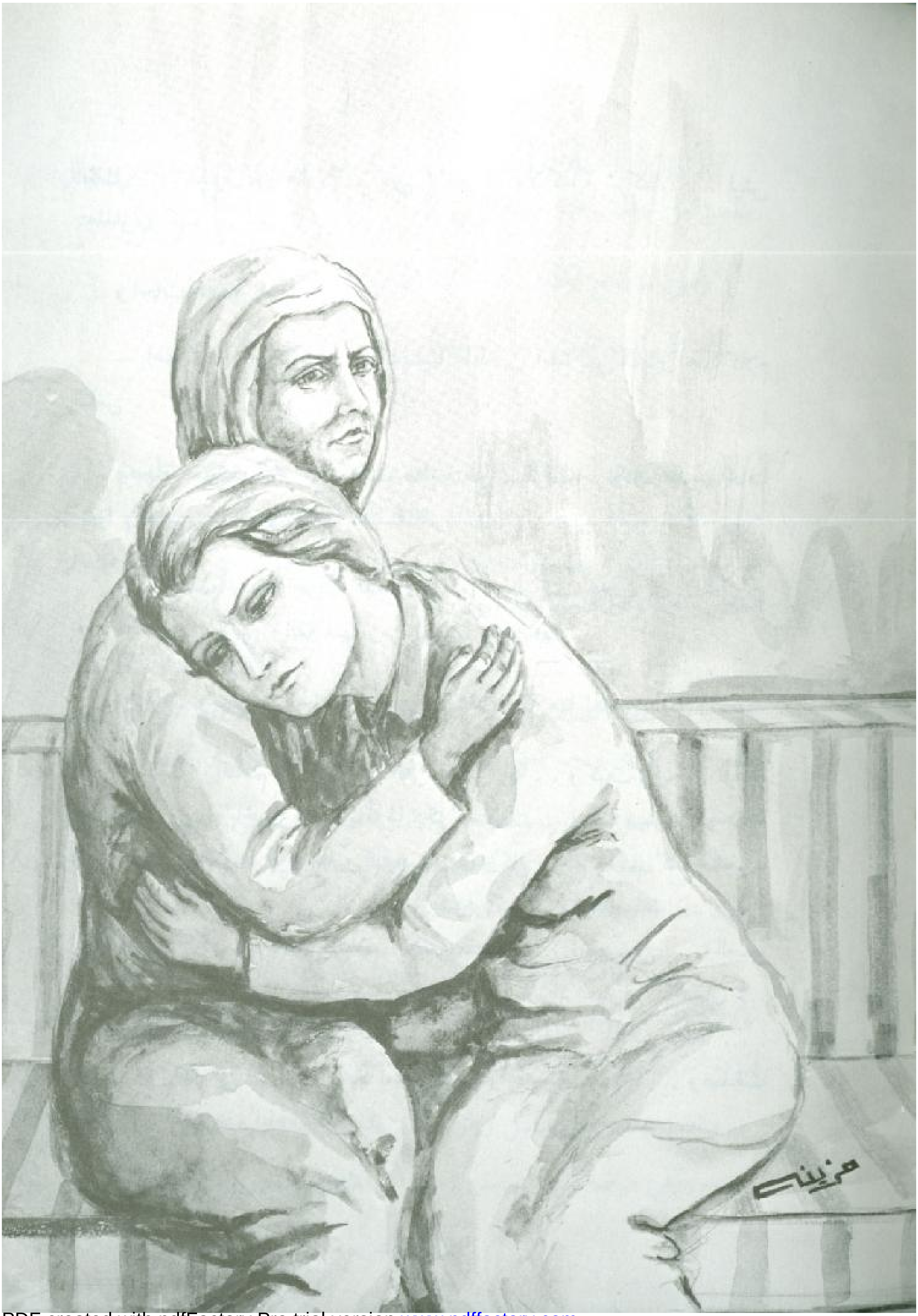

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اطفالي . . سيبوني في حالي . . يعني لاخيركم ولاكفاية شركم ؟ . . ليش بتعاملوني كده . . ليش ؟ . . .

واجاب عصام :

– ياعفاف . . أرجوكي . . لاتفهمينا غلط . . احنا بس شايلين هم كلام الناس . .

وفجأة تحدثت الام التي كانت صامتة طوال الوقت ، وكان صوتها خافتا متئدا وكأنها تريد ان تؤكد كل كلمة تقولها :

– انا كنت ساكتة طوال هذه الايام . . وما كنت احب ان اتدخل في حياة عفاف . . لانني واثقة منها ومن تربيتها واخلاقها . .

وادارت وجهها في الحاضرين وهي تستأنف كلامها الهادىء المتئد :

– كنت اراقبكم . . واشوف انتو بتعملوا ايه . . وكيف رايحين توقفوا مع اختكم . . وياخسارة . . اقولها بكل اسف . . انكم سبتوها لوحدها وصبرت . . سبتوها لوحدها وكافحت . . وكل واحد منكم كان مشغول بنفسه . . وما كانت ، هيّ والاولاد ، يشوفوكم الا في المناسبات . . واليوم اقولها لكم كلكم . . بالفم المليان . . انتو مقصّرين . . مقصّرين . . والعيب فوقكم وتحتكم . . وترى خلاص . . طفح الكيل وزاد العيار . . فاهمين ؟.. اتركوها لوحدها وانا من بكرة ان شاء الله جاية عندها . . اسكن معاها . . . ورزقي ورزقها على الله . . ولاعاد اسمع فيكم واحد يقول حاجة . . وصدقت عفاف . . الله يرحم ايام الزقاق . .

والتفتت الام إلى عفاف قائلة :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ وانتي يا عفاف يا بنتي . . ما اقول غير بيّض الله وجهك . . واللي ينقص من خدك يوفيه جدك يابنتي . .

وقبل ان يفتح احدهم فمه بكلمة نهضت الام وهي تقول :

ـ انا رايحة البيت اجمع حاجاتي . .

• • •

وهكذا دخل حياة البيت الذي فقد الوالد كثير من السعادة بقدوم الجدة التي ملأت حياة ابنتها واولادها . . فقد زاد تعلق الاولاد بجدتهم التي كانت تسامرهم وتقضي معهم اوقاتا طويلة وتحكي لهم ما تعرف من حكايات الشاطر حسن وبلاد واق الواق والدجيرة . .

واحست عفاف بأن وطأة الحياة قد خفت عن كاهلها كثيرا بعد قدوم والدتها . . فقد آنست وحشتها وملأت حياتها . . وشاركتها ظروفها وهي تشعر بأنها تؤدي واجبا نحو ابنتها لايقل عن واجباتها الاخرى تجاهها . .

وجاء حسن ذات يوم يحمل إلى الاسرة اقتراحا ، وهو ان يرتب لها رحلة إلى خارج المملكة تقضي خلالها بعض الوقت في الراحة والاستجمام ، وان يكون مكان الرحلة هو مدينة لندن . .

ورحبت عفاف واولادها ، فقد وجدت ان ذلك يمكن ان يدخل على حياة الأولاد شيئا من التغيير ، وكان واضحا ان حسن قد شعر بتقصيره تجاه اخته ، فرأى ان يرتب هذه الرحلة تعبيرا عن اهتمامه . .

والتفت حسن إلى فيصل وهو يختتم كلامه قائلا :

ـ وآهي فرصة لك ياعريس البيت انك تقوّي نفسك باللغة الانجليزية . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واطرقت عفاف في تأثر ، فقد رأت ان حياتها الرتيبة قد بدأ يدخل عليها بعض التغيير . . وازدادت سعادتها للفرح الطفولي العميق الذي بدا على الاولاد وهم يصعدون إلى الطائرة . . ثم وهم يختارون اماكنهم وكل منهم يصر على ان تكون جلسته بجانب احدى النوافذ . .

ثم كانت المفاجأة التي لم تكن عفاف تتوقعها . .

فقد سمعت الاولاد يصيحون بصوت واحد تنبض الفرحة والابتهاج فيه :

– عمو زكي . . عمو زكي . . .

والتفتت عفاف ، فرأت رجلا يحمل حقيبة في يده يدخل إلى الطائرة ، ولم تجد عناء كبيراً في التعرف عليه لأنها حفظت ملامحه من صورته مع زوجها . . .

وأقبل الرجل على الاطفال يحييهم ويداعبهم ، ويعاتبهم لانقطاعهم عنه ، ولم يلتفت نحو عفاف فهو لايعرف وجهها ولم يسبق له ان رآها قط . .

وانحنت عفاف على امها الجالسة بجانبها قائلة لها ان هذا هو الرجل الذي مدّ لها يد المساعدة والعون ، واحاط اطفالها بعنايته وعطفه ، فهزّت الام رأسها في فهم وراحت تتأمل الرجل بعناية . .

وانطلقت الطائرة متخذة وجهتها نحو العاصمة البريطانية ، واخذ فيصل يتحدث إلى الشيخ زكي فروى له سبب الرحلة وظروفها ، وما ان فهم الرجل ان ام فيصل برفقتهم حتى نهض في الحال ، واتجه إلى حيث اشار فيصل ليحيي عفاف وامها وقد ادهشته المفاجأة . .

كان يتخيل عفاف امرأة متقدمة في السن . . لايدري لماذا . . وان تكون الايام القاسية قد تركت آثارها على وجهها ، فاذا به يتبين انها لم تتجاوز العقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الثالث من حياتها الا بسنة او سنتين . . جميلة . . بل رائعة الجمال . . بينما كان واضحا على امها انها كانت لاتقل عنها ، في ماضي الايام ، جمالا وان معالم هذا الجمال ما تزال واضحة على وجهها الذي اكسبه بياض شعرها مهابة ووقارا . .

وانتبه إلى نفسه اخيراً ، فلعله قد اطال التأمل في المرأتين اكثر مما ينبغي فاستأذن منهما وعاد إلى مقعده بجوار فيصل وقد تلاطمت في رأسه امواج من الافكار . .

لقد كان واضحا انه حين مدّ يد العون إلى السيدة التي فقدت زوجها فانه لم يفعل ذلك الا بدافع ما جبل عليه من الطيبة والرغبة في مساعدة الآخرين ، ووفاء منه لذكرى صديقه الراحل . .

وكان اهتمامه بالاولاد ، ورعايته لهم للسبب نفسه ليس غير ، ولم يخطر بباله قبلا ان صلته بهذه العائلة يمكن ان تتعدى تلك الحدود . . .

ولكنه شعر بأن الامر قد اختلف — الآن — كثيرا . . . .

فلقد احتلت النظرات القليلة التي القاها على عفاف جانبا كبيرا من تفكيره فراح يستعيد تقاطيعها في ذاكرته ، بل انه لم يتمالك من ان يختلس اليها نظرة اخرى وهو يتظاهر بأنه يجيل بصره في ارجاء الطائرة . . ولكنه لم يلبث ان تمالك نفسه قائلا انه لايجوز له ان يتعدى الحدود التي كانت لعلاقته مع هذه العائلة .

واذ اقتربت الطائرة من لندن قال الشيخ زكي لفيصل الجالس إلى جانبه :

— هل اتخذتم الترتيبات للحجز في احد الفنادق ؟ . .

ورد فيصل بالايجاب واضاف بأن خاله قد اتخذ كل الترتيبات اللازمة ، وان معهم عنوان الفندق في قلب المدينة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال الشيخ زكي :

ـ ان سيارتي تنتظرني في المطار . . فاذا رغبتم نقلتكم معي إلى فندقكم . . سل الوالدة إذا كانت لاتمانع في ذلك . .

ونهض فيصل متجها إلى امه ، وهمس في اذنها بمــا قاله عمو زكي ، فترددت برهة ثم هزت رأسها بالموافقة ، وكان زكي يختلس النظر اليها مترقبا جوابها ، وحين رأى ايماءتها استرخى في مقعده بارتياح وقد شعر بأن ذلك قد سره . . لسبب او لآخر . .

* * *

والواقع ان وجود الرجل قد يسر على العائلة كثيرا من الصعوبات ، اذ تولى الاشراف على شئونها إلى ان غادرت المطار ، فجاءها بحقائبها ثم قادها إلى حيث وقفت سيارة « مرسيدس » فارهة ذات ثمانية مقاعد ، وراح يساعد الاطفال على الركوب والجلوس ، الامر الذي علقت عليه الام والسيارة تنطلق إلى قلب المدينة :

ـ سامحنا ياولدي . . زحمناك وتعبناك . .

ولكن زكي اجاب دون ان يدير رأسه نحوها :

ـ تعبكم راحة ياست ام حسن . . هذا واجب . .

وتدخل الصغير وجدي قائلا باندفاع :

ـ ياستي ما في تعب على عمو زكي . . هوّ زي بابا . . .

وساد الصمت في السيارة ، ولم يعلق احد بشيء على كلام الطفل ، ولكنه احدث اثره في نفس زكي وعفاف على السواء . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعندما وصلت السيارة إلى الفندق ، عني زكي بالعائلة وباجراءات نزولها في الفندق وكأنه ـ كما قال وجدي ـ أبو الاطفال . .

وبعدما اطمأن إلى أن كل شيء على مايرام ، ودعهم وانصرف إلى الشقة التي يملكها في لندن وطيف عفاف لايغيب عن ذهنه . .

* * *

لقد راح يستعيد تفاصيل علاقته بهذه العائلة منذ زمالته مع الاب الراحل . . وصداقتهما الوطيدة طوال حياته . . ثم ما كان منه من مبادرات ابوية نحو الاطفال لم يكن دافعها سوى طبيعته المحبة للخير والتي لاتداخلها اية غايات خاصة . .

وما يدري كيف بدأ ذهنه يتجه إلى الوضع القاسي الذي تعيشه ارملة شابة على هذا المقدار من الجمال والشباب . .

ووصلت به افكاره إلى نفسه . . انه متزوج . . هذا صحيح . . ولكنه لم يرزق من زوجته اطفالا . . وهذا امر يؤلمه . . ويثير اعصاب زوجته . . ويتسبب في كثير من الاشكالات في البيت . . مع ان الزوجة تعلم ان الاطباء قد اجمعوا على انه سليم الجسم ، وان الزوجة هي المسئولة عن عدم انجابها لاطفال يملأون عليهما حياتهما كما هو الشأن لدى معظم الناس . .

وتنهد في حزن ، وقد بدا له ان عليه ان يواجه مشكلتين متناقضتين معا : مشكلته الشخصية مع زوجته ، وهي مشكلة بلا حل ، ثم مشكلة تلك الارملة الشابة ذات البنين والبنات والتي فقدت عائلها ، واحتاجت إلى عونه ومساعدته .. ولكن إلى اي حد هي في حاجة إلى ذلك العون ؟ .. وما هو مدى تلك المساعدة ؟

لم يتوصل إلى رأي . . بل تسلل النوم إلى عينيه قبل ان يجد جوابا على تلك التساؤلات . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان اول ماقفز إلى ذهنه من افكار عندما استيقظ في اليوم التالي ، هو ان يذهب إلى الفندق الذي تنزل فيه العائلة . . ليتفقد احوالها . . ويحاول ان يجعل من زيارتها لمدينة الضباب ممتعة تحفر في اذهان الاولاد والمرأتين ذكريات حلوة لاتنسى . .

وكان يشعر بالسعادة الفائقة تملأ قلبه وهو يرى إلى الاطفال وأمهم وجدتهم يعبّرون عن مثل سعادته عندما رتّب لهم رحلة نهرية في «التيمز» ثم عشاء حافلا في مطعم هندي . . وزيارات اخرى لمعالم المدينة لم يسبق لاحد منهم ان عرفها او جربها . .

ولقد تزايدت سعادته عندما تناثرت عبارات الشكر من الأطفال ومن امهم وجدّتهم ، بعد ان قضت العائلة ايامها في لندن برفقة الشيخ زكي الذي كان يلازمها باستمرار وكأنه فرد منها ؛ بل وكأنه ماجاء إلى لندن الا ليرافق العائلة في جولاتها بالمدينة وضواحيها ، والتمتع بمباهجها ومشاهدها . . ولئن كانت علاقته وثيقة بالاولاد من قبل فقد توثقت – ايضا – مع عفاف وامها ، مع حرصه الشديد على ان يلتزم حدوده كرجل يرعى ، في بلاد الغربة ، اسرة صديق راحل . .

وكانت الام ، بحكم تجربتها وخبرتها بالحياة ، ترقب تلك التطورات في علاقة الشيخ زكي بابنتها واحفادها بعناية واهتمام ، ولم يفتها ان تلاحظ انه كان يخص عفاف ، بالذات ، بمزيد من العناية والعطف . . وما يمكن ان تؤدي إليه تلك العناية الفائقة . . ولكنها اعتصمت بالصمت ، واكتفت بالمراقبة والمتابعة دون ان تحاول حتى ان تفاتح ابنتها فيما لاحظت . .

وكانت عفاف تشعر ، هي الاخرى ، بمعنى مايبديه الشيخ زكي نحوها من اهتمام ، ولكنها كتمت رأيها وموقفها في داخلها فلم تحدث فيهما احدا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حتى ولا امها . . فهي لاتنسى ان الرجل متزوج ، ومن عائلة معروفة ، وله مركزه المرموق ، ولو حدث – فرضا – انه تزوجها ، فان الامر لن يمر بسهولة في نظر « المجتمع » . . ولسوف يتقوّل الناس عليها ، كعادتهم . ما يتقولون ، ولسوف يرمونها بشتى التهم . . ولن يدرك احد منهم مشاعر ارملة وهي في مقتبل العمر ، فقدت زوجها فجأة وباتت في حاجة إلى رجل يحميها ويحمي اولادها . .

وقررت – كما فعلت امها من قبل – ان تكتم مشاعرها في نفسها فلا تبوح بها لاي انسان ، وان ترى إلام ستتطور الامور . .

* * *

جلس الشيخ زكي مع ام عفاف في شرفة الفندق يحتسيان الشاهي ويتحدثان . .

وكانت الام على شبه يقين من الغرض الذي يريد الشيخ زكي ان يصل إليه من حديثه . . فبعدما بدأ الحديث حول امور عامة شتى ، انتقل بلباقة إلى الحديث عن الاولاد فأبدى مدى تعلقه بهم واهتمامه بأمرهم ، وشعوره بأن من واجبه ان يواصل هذا الاهتمام قدر استطاعته ، وابدى اسفه لانه لايستطيع متابعة رعاية الاولاد وهم في منزلهم في جدة لما يسببه ذلك من اشكالات ، وانه بالتالي يفكر في الزواج من عفاف . . إذا هي وافقت على ذلك . .

وردت الام عليه بصراحة تامة ودون مواربة . .

قالت له انه انما يطلب حلالا ، وامرا شرعيا ، وانها ستخاطب عفاف في الامر وتأخذ رأيها . . .

فتساءل بشيء من التردد :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– وتفتكري انها تقبل ؟ . .

– اعتقد ذلك . . لاسيما وان اولادها في صفك . .

وضحكت الام وهي تقول عبارتها الاخيرة . . وتنهد الشيخ زكي في ارتياح ، ثم استطرد في شرح ظروفه . .

قال للسيدة انه متزوج ، وانه ليس سعيدا في زواجه بسبب عقم زوجته وانعكاس ذلك على نفسيتها وتصرفاتها التي جعلته يفتقد الراحة في البيت . .

ولكنه ، بالمقابل ، يرى ان يكون عقده على عفاف سريا ، لايعرف به سوى بعض اهلها وشهود العقد ، ريثما يتدبر الامر مع زوجته ويسوّي اوضاعه . .

ووجمت الام ، فالمشكلة التي يتحدث عنها الشيخ زكي ذات اهمية ولاشك ، ولكنها مالبثت ان طرحت وجومها جانبا ، وحدثت نفسها بأن المستقبل كفيل بايجاد حل لهذه المشكلة . . . وحين تحدثت الام إلى ابنتها في الموضوع ، ابدت موافقتها دون تردد ، ولكنها مالبثت ان وجمت ، بدورها ، حين اخبرتها امها برغبة الشيخ زكي في الابقاء على نبأ الزواج سرا لايعلم به الا قلائل . .

* * *

وصحّ ما توقعت عفاف . .

فقد ثار الاخوة على الاقتراح ، لان رأيهم لم يؤخذ فيه مسبقاً من جهة ، ولانهم يتوقعون ان يسبب لهم احراجا امام الناس . .

وقال عصام الذي كان اشد المعارضين اقتناعا برأيه :

– يعني ترضي ، ياماما ، ان الناس يتكلموا علينا . . لما يشوفوا الراجل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

داخل وخارج من البيت ولا احد يعرف مركزه فيه ؟ . . هذا يخللينا لبانة في فم اللي يسوى واللي ما يسوى . . انا والله ماني مرتاح للمسألة هذي . .

وردت الام بأن ما يهمها هو ان يتخذ الامر صفته الشرعية الطبيعية . . وانها تقبل بهذا الوضع ريثما يسوّي الرجل اموره مع زوجته . .

واستمر الجدل والحوار في العائلة بضعة اشهر . كانت الام خلالها هي المدافع القوي عن فكرة الزواج . . وشيئا فشيا تلاشت المعارضة ، ووافق الاهل وتم الزواج – كما اراده الشيخ زكي – سرا ، ودون ان يدري به سوى اشخاص قلائل . .

اما عفاف فقد ابتهجت بادئ الامر ، فالصلة مع الشيخ زكي اصبحت طبيعية ومشروعة ، ولكن القلق كان ينتابها بعض الاحيان وهي تتساءل عن مدى صحة ما اقدمت عليه . .

صحيح ان الشيخ زكي قد ملأ المنزل سعادة ومرحا وراحة ، وان الابناء قد ازداد تعلقهم به ، الا ان شيئا من التحفظ والخجل كان يشوب تصرفات عفاف ، لاسيما حين يلتئم جمعهم وتتبادل عفاف الحديث مع زوجها امام الاولاد . .

ولكن الحياة اتخذت في البيت مسارها الطبيعي ، وكانت الام ، من جهتها ، اشد ماتكون سعادة وارتياحا واطمئنانا ، فلقد كانت تخشى – قبل ذلك – على مستقبل الاولاد ، وتشك في قدرة عفاف على القيام بشئونهم وتربيتهم وحدها . .

واقبلت عفاف على حياتها الجديدة وقد تبدد الكثير من مخاوفها ، وبذلت جهدها لاسعاد زوجها الجديد ، وادخال السرور على نفسه بشتى الوسائل . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومع انه كان قليل التردد على المنزل ، الا أن عفاف كانت تحس بوجوده ايامها ولياليها كلها ، سواء كان في البيت ام لم يكن . .

كانت راضية بالوضع الذي تعيش فيه ، كزوجة لاتحظى من زوجها إلا بنصيب – غير كامل – من الاهتمام والعناية . .

ولكن مرور الايام ايقظ فيها مشاعر اخرى . . فيها الرغبة الجامحة في التملك . . وفيها الغيرة من « المرأة الاخرى » . . وفيها عدم الرضى عن هذا الوضع الذي كانت قد تقبلته من قبل ورضيت به . . ولم يكن ذلك ، في الواقع ، بارادتها . . ولكنه شعور تسلل إلى داخلها . . ما تدري كيف ولا متى . . ثم راح يستشري حتى ملأ عليها تفكيرها كله . .

وحاولت ان تبعد هذه الافكار عن نفسها ، وان تقتنع بأنها قد قبلت هذا الوضع راضية من قبل . . وانها كانت تعلم ابعاده سلفا . . ولكن محاولاتها ذهبت عبثا . .

واذا كانت قد كتمت مشاعرها بعض الوقت ، ايام كانت في بداية سيطرتها عليها ، فانها قد عجزت بعد ذلك عن الكتمان ، وشعرت بأن صدرها سوف ينفجر اذا هي لم تصارح زوجها بها . .

ولم يفاجأ الرجل بتلك المصارحة . . بل كان – كما يبدو – يتوقعها ، ولذا فقد تقبلها بصبر وتفهم ، وحاول ان يشرح لها وضعه . . وتوزّع مسئولياته ما بين الزوجة الاولى والعمل واسرته الجديدة . . ولكنها رفضت ان تقتنع وصارحته بأنها تشعر بأنه لايحبها حبا كافيا بل لعل العطف عليها وعلى الاولاد هو سبب ارتباطه بها . . .

وعبثا حاول الرجل ان يؤكد لها حبه ، وان العطف وحده – مهما بلغ – ما كان ليصل به إلى حد الزواج . . ولكنها لم تقتنع . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبدأ البيت يفتقد السلام الذي خيم عليه فترة من الزمن . . وصارت عفاف عصبية ، سريعة التأثر ، تغضب لاتفه الاسباب ، وتثور لادنى شيء . .

وصرخت في وجهه ذات مرة قائلة :

– اني على يقين من انك تشفق عليّ اكثر مما تحبني . . وانا لاانكر فضلك عليّ وعلى ابنائي . . ولكنني كنت اتمنى ان تستمر على موقف المشفق المحسن من ان تدخل حياتي بهذه الصورة التي تجعلني احس بأن حبك نفسهليس سوى نوع آخر من انواع الصدقة تجود بها عليّ . .

وكان الشيخ زكي يصغي إلى كلامها في هدوء ، حتّى اذا انتهت قال لها :

– ماذا تريدين اذن ؟ . .

– اريد ان تعرف الدنيا كلها انك زوجي . . اريد ان تدخل بيتي في وضح النهار . . لا أن تأتيه ليلا وكأننا نأتي عملا غير مشروع . . اريدك . . اريدك كما انت . . وكل مافيك . . .

وخرج الاطفال من غرفهم ، وتجمعوا عند باب الصالون وقد خيم عليهم الوجوم . . بينما اطرق الشيخ زكي صامتا دون ان يرد بحرف . .

وتقدم فيصل من امه وجذبها من ذراعها برفق ، وسار بها إلى غرفتها فأطاعته وهي تنشج في نحيب عميق . .

• • •

اما الام فقد كان يتنازعها عاملان . . اولهما هو حرصها على استمرار حياة ابنتها عفاف مع زوجها الثاني ، لما في ذلك من صون لها ولاولادها وتأمين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لمتطلباتهم ، وثانيهما انها ، كامرأة ، تدرك مشاعر ابنتها حق الادراك ، وتعرف الدوافع العاطفية الانثوية التي تحركها . .

واجابتها عفاف إذ عرضت لها وجهة نظرها تلك :

ـ لم يعد شيء يغيظني ويملأني قهرا مثل ان اشعر بأنني نصف زوجة . . وان كل مافعله لاجلي انما هو بدافع الشفقة . .

وسألتها الام السؤال نفسه الذي سبق للرجل ان القاه عليها :

ـ ماذا تريدين اذن ؟ . .

وفي الحال ردت عفاف واللوعة تشوب كل كلمة من كلماتها :

ـ اريده حبا . . اريده حبا يا اماه . .

وطوّقت الام ابنتها بذراعيها وراحت تهدهدها كطفلة صغيرة بعدما اخذ منها البكاء والالم كل مأخذ . .

* * *

وهكذا فقد البيت الهادىء الذي خيّم عليه السلام والسعادة شيئا من الوقت بعد مجيء الشيخ زكي ما كان يتمتع به ، واصبح مسرحا للنوبات العصبية والمشاحنات . .

فعفاف اصبحت متوترة الاعصاب ، تثور لاتفه سبب ، وتغضب لادنى شيء ، والشيخ زكي يوافقها في قرارته ، كرجل منصف ، على ما تتمناه عليه ان يكون لها وحدها ، ولكنه يخالفها فيما تعتقده من انه لايحبها ، وانه انما صنع ماصنع من اجلها شفقة عليها ورأفة بأولادها ليس غير . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلقد كان يحبها حقيقة ، ويحب اولادها فعلا ، وينظر إلى الجميع نظرته إلى زوجته واولاده وكأن هؤلاء الاولاد هم ابناؤه حقا . . ولكن عفاف لم تقتنع بذلك ، او هي لم تشأ ان تقتنع بل كانت ، عكس ذلك ، تزداد توترا في الحس ورهافة في الاعصاب . .

وبات الحديث بين الاثنين حول هذا الموضوع هو الحديث الوحيد تقريباً . .

* * *

ثم وقعت الواقعة . .

كانت عفاف تعلن ثورتها وسخطها على هذا الوضع ، وزكي يحاول تهدئتها ، فاذا به يفاجأ بها تصرخ فيه :

– ارجوك . . ارجوك يازكي . . اتركني في حالي . . انني لم اعد احتمل . . انني اكره نفسي . . بل احتقرها عندما اشعر بأنك انما تشفق عليّ . . وانك تحبني من خلال حبك لاولادي . . انا اريد حبك لي . . اريده حبا خالصا وصادقا . . هل تفهمني . . انك لن تستطيع ان تعطيني هذا الحب ولذا ارجوك ان تطلقني . . طلقني . . ودعني استرح . .

وأرخت رأسها على ركبتيها وهي تبكي في حرقة ، فحدّق زكي فيها بذهول وقال :

– انت مخطئة ياعفاف . . فأنا احبك . . واحب اولادنا . . ولايمكن لما تسمينه شفقة او عطفا ان يجعلني اصنع من اجلك ما صنعت . . لقد ملأت عليّ حياتي ياعفاف . . وجعلت مشاعر الحب . . هل تسمعين ؟ . . جعلت مشاعر الحب تسري في عروقي . . حتى بتّ فخورا بك . . انت النور الذي اضاء قلبي بالحب الصادق . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتوقف زكي عن حديثه المتدفق واردف بارتباك :

– انا آسف ياعفاف لانني لااجيد صنعه الكلام . . فأنا احب ان اتصرف واثبت حبي بصورة عملية . .

فرفعت عفاف رأسها وقالت له بصوت هادىء ولكن الرجفة كانت تنتابه :

– ليس المال هو كل شيء كما قلت لك . . واعتقد انني شرحت لك الامر بما فيه الكفاية . .

وهنا نهض زكي في الحال واتجه إلى غرفة النوم صامتا ، فبهتت عفاف وراحت تتابعه بأنظارها دون ان تتحرك من مكانها ، وتسمرت نظراتها على الباب المفتوح ترقب ما سيكون . .

وبعد دقائق خرج زكي وهو يحمل حقيبتين كبيرتين في يديه وقد تجهم وجهه ، ووقف امام عفاف ثم وضع الحقيبتين على الارض ومدّ لها يده مصافحا وهو يقول بهدوء :

– اذا كانت هذه هي رغبتك فليكن . . الوداع ياعفاف . . كل ما ارجوه هو الا تقطعي صلتي بالاولاد . .

وصافحته بيد مرتجفة وهي تهمس :

– شكرا لك على اية حال .. وارجو ان تسامحني .. وتقدّر احاسيسي ...

وتلفت زكي حوله متسائلا :

– اين الوالدة ؟ . . اريد ان اودعها . .

– انا هنا . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جاءه صوت الام وهي تخرج من غرفتها مرتدية ملابس الخروج . . وفي يدها حقيبة ملابسها ، فبهتت عفاف وفتحت فمها تريد ان تتكلم ولكن الكلام خرج من حلقها حشرجة بغير معنى . .

ودارت عفاف بعينيها في يأس ، وقد ارتسمت الحيرة الشديدة على وجهها فاذا بها ترى اولادها جميعا يتوافدون ويلتفون حول الشيخ زكي ويتعلقون بثوبه وهم يقولون بصوت واحد :

– لاتذهب يابابا . . لاتودعنا يابابا . . سنذهب معك . .

وقالت الجدة بهدوء :

– وانا ايضاً . .

وتراجعت عفاف وهي تضع يديها على صدرها وكأنها تريد ان تحمي نفسها من خطر داهم . . وراحت تحدق في الجميع الذين كانوا ينظرون اليها بهدوء وصمت وعيونهم تلمع بالاتهام الصارخ . . .

وتوقفت ، اذ اصطدم ظهرها بالجدار ، واغتصبت ابتسامة بائسة وقالت لزكي بصوت متحشرج حاولت ان تكسبه رنة من المرح :

– يعني « الجمهور » كله معاك يا زكي . .

فابتسم زكي رغما عنه وقال :

– هذا من حسن حظي . . انه يدل على انني على حق . .

– وانا المخطئة . . اليس هذا ما تريد ان تقوله ؟ . .

– اجل انت المخطئة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت المتكلمة هي الام هذه المرة ، وكان في عبارتها كل معاني التأنيب والاتهام والعتاب . .

وارخت عفاف يديها باستسلام ، واشرق وجهها بابتسامه سعيدة وهي تقول :

– لايمكن ان اكون انا الوحيدة على صواب . . وانتم جميعا مخطئون لتكن رغبتكم . . وانا آسفة . .

واندفعت نحو زكي ترتمي على صدره وكأنها تحتمي به فاحاطها بذراعيه وراح يربت على شعرها في حنان وهو يقول هامسا :

– انه الحب يا عفاف . . انه حبي . . صدقيني . .

وهمست عفاف والسعادة تخفق في صدرها :

– صدقتك . .

واخذت الجدة بايدي الاولاد واتجهت بهم إلى غرفتهم . .

وراحت عفاف تجهش بالبكاء وهي ما تزال ملتصقة بصدر زوجها . .

ورفعت وجهها المبلل بالدموع وراحت تنظر في وجهه وكأنها تتفحصه ..

وعادت تدفن رأسها في صدره وهي تهمس :

– زكي . . زكي . . ليتنا نعود لنعيش في الزقاق . . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

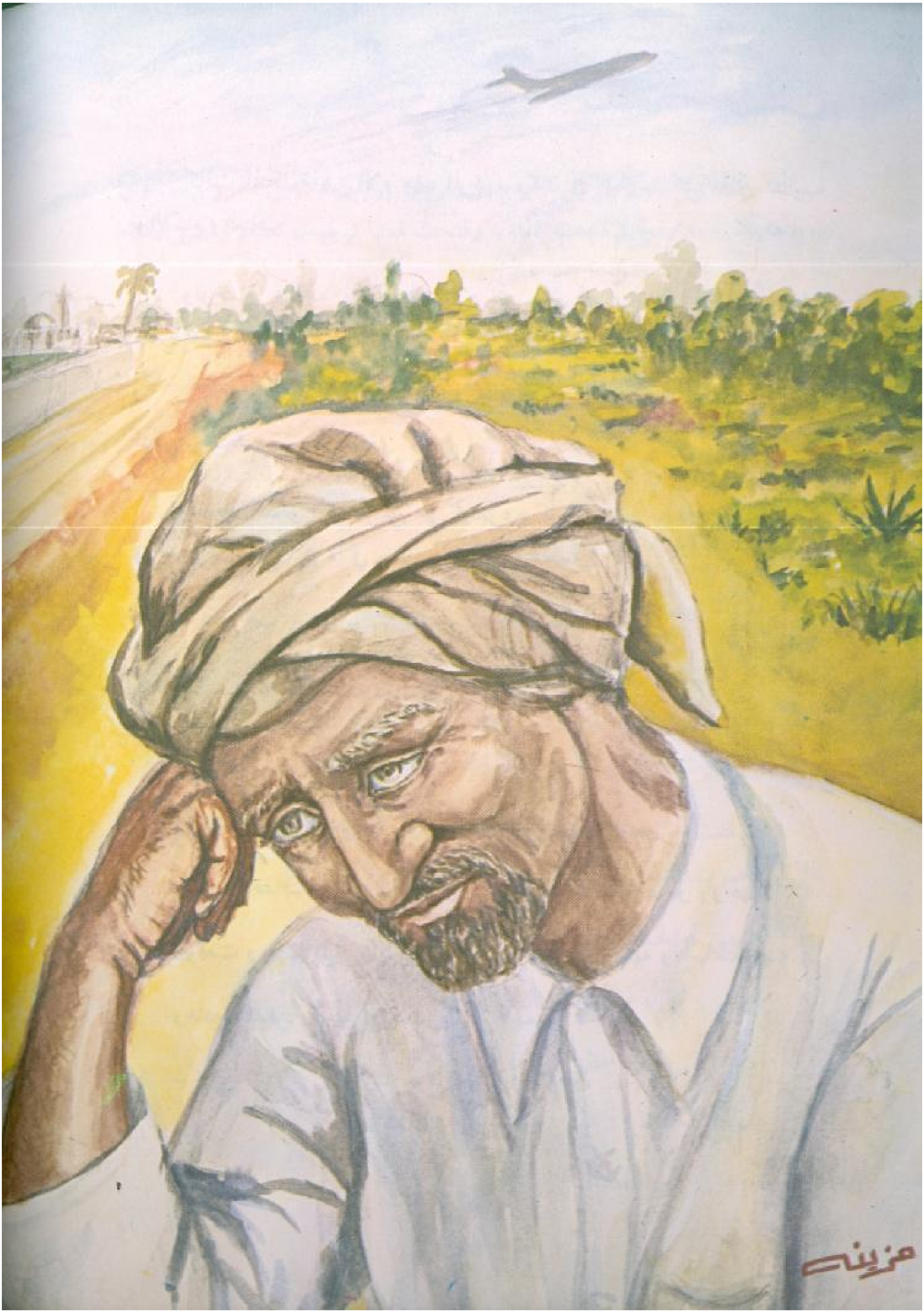

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

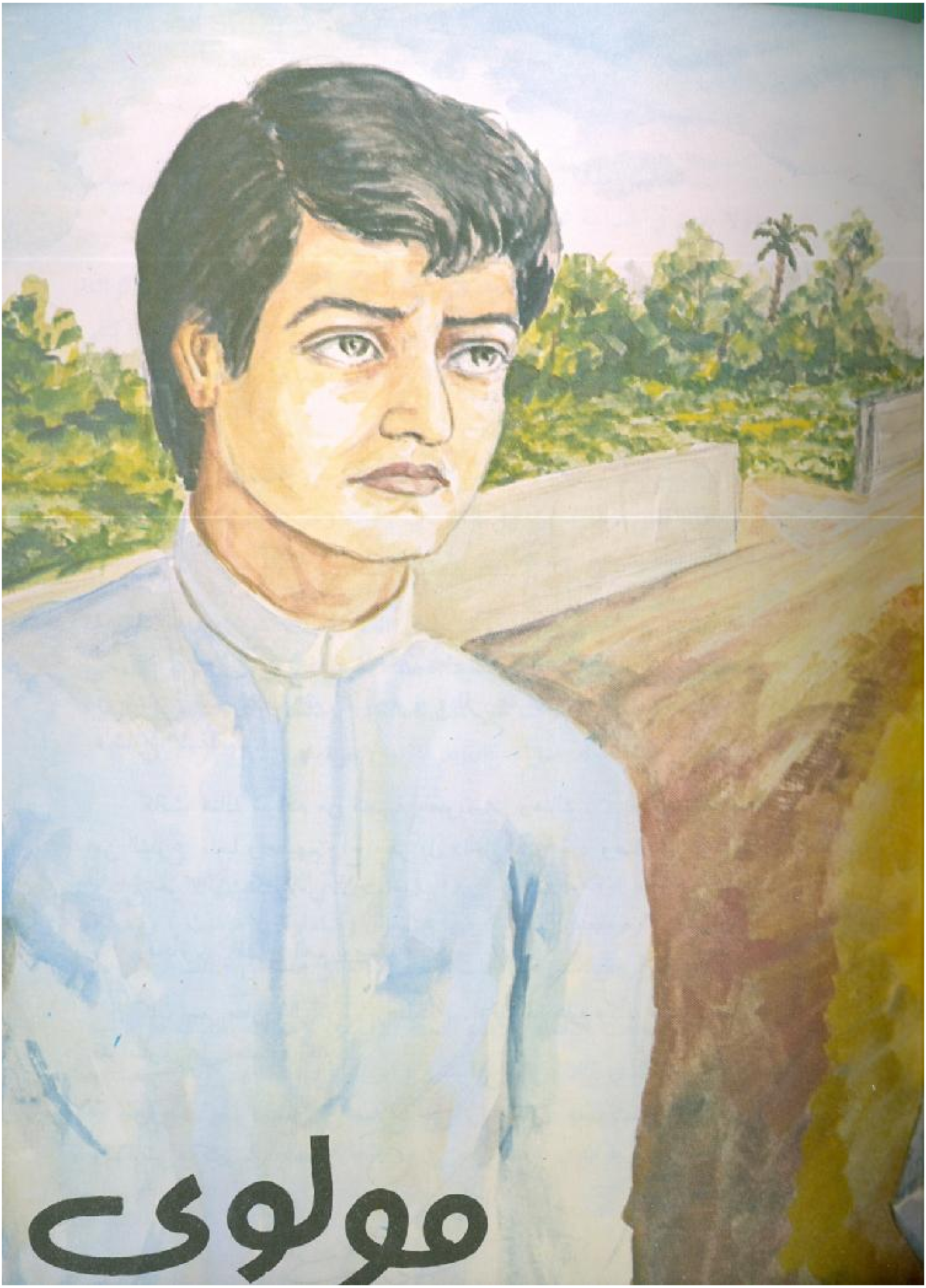

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مولوي

خرج صلاح مع جموع المصلين بعد اداء صلاة العصر ، وراح يتمشى في الشارع الذي يفصل بين المسجد و « المزرعة الكبرى » الممتدة على طول « شارع المسفله » . .

كانت هناك شراذم من الصبية يلعبون هنا وهناك . . بعضهم قد اتخذ من الشارع ملعبا وبعضهم راح يقفز إلى داخل المزرعة ، وصلاح ينظر إليهم ويتابع حركاتهم بكثير من الاهتمام . .

وفجأة . . ظهر « العم يوسف » . .

كان يسير مطرق الرأس . . صامتا . . وقد بدا عليه وكأنه مشغول بشيء قد استولى على اهتمامه كله . .

ولم يكد بصره يقع على صلاح حتى راح يقول بصوت فيه من الحرقة والالم شيء كثير :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ــ انه ليس مذنبا . . انه مسكين . . سليم النية . . ساذج . . انه ليس سياسيا ولا يفهم في السياسة شيئا . .

ونظر اليه صلاح في اشفاق ، لاسيما وان نظرات العم يوسف الزائغة لم تكن تدل على انه قد ميّزه ، وانه يوجه اليه كلامه بالذات ، وانما اكتفى بترديد كلامه بسرعة وحرارة ، كأنما هو يشعر بأن تكرار هذا القول كفيل باقناع من يسمعه . . .

وابتعد العم يوسف وصلاح يتابعه بنظراته حتّى غاب في المزرعة الكبيرة التي طالما قضى فيها ــ من قبل ــ اوقات راحته وهو يتناول الشاهي ويتجاذب اطراف الحديث مع جلسائه . .

وتنهد صلاح في اسف وهو يرى العم يوسف يتوغل داخل المزرعة ويغيب عن انظاره ، وراح يستعيد القصة الاليمة التي هزت العم يوسف حتّى الاعماق ، وجعلته لايعرف غير تلك العبارات يرددها بتلك السرعة والحرارة كلما رأى انسانا امامه سواء كان يعرفه او لايعرفه . .

* * *

كان العم يوسف رجلا معروفا في الحي بثرائه ، ومكانته الاجتماعية التي جعلت داره مقصدا للناس ، فيها يجتمعون ويتبادلون الاحاديث ، وينعمون بكرم ضيافة الرجل الذي قلما خلت مائدة عشائه من عدد من اولئك الزوار . . .

وكان يستلفت الانتباه بملابسه الثمينة الانيقة ، وعمامته الملفوفة على رأسه بعناية وبنعاله الذي كان من النوع المسمى « ابو اصباع » والذي كان العم يوسف يحرص على ان يكون من افخر انواع الجلد ، حتّى ان الناس كانوايعتبرونه نموذجا يقيسون به مدى اناقة الآخرين ووجاهة لباسهم . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان كل شيء في حياة العم يوسف يسير في دعة ويسر وهناء ، فما كان يعكر مزاجه شيء ، ولا كان يشكو من شيء . . بل كان يحمد الله دائما على أن يسر له هذه الحياة المستقرة الوادعة . .

• • •

وذات يوم طرق بابه احد الحجاج الباكستانيين الذي قال له بعد ان اثنى على ماتناهى اليه عن سمعة العم يوسف وطيبته وانسانيته :

– ان لي ابنا في الرابعة من العمر . . قد احضرته معي إلى الحج . . وقد خطر لي ، وقد سمعت عنك وعن مروءتك وشهامتك ، ان اتركه في عهدتك . . يعمل عندك . . ويكسب رزقه بعرق جبينه . . وارجو من الله ، اذا انت قبلت عرضي ، ان يكون من هذا الابن ما يرضيك ويتيح له ان ينشأ نشأة صالحة في كنفك وتحت رعايتك . .

وراق العرض للعم يوسف ، فهو – بطبيعته – محب لعمل الخير ، ويشعر بتعطش إلى رعاية ولد صغير بعد ان كبر اولاده وبدأوا في الاستقلال بحياتهم بعيدا عنه . . .

ولم يتردد في الموافقة . . واعطى الرجل ما تيسر من المساعدة ، واخذ منه عنوانه في باكستان ليظل الاب على اتصال منتظم بابنه عن طريق المراسلة . .

وخرج الرجل بعد ان ترك ولده عند العم يوسف . . .

• • •

كان اسم الطفل « مولوي » ، وقد وقع من قلب العم يوسف وزوجته موقعا حسنا منذ ان رآه ، وصرفت الزوجة معظم اهتمامها في رعاية مولوي والعناية به ، فأمرت بادخاله الحمام ، وتأمين ملابس مناسبة له ، ومعاملته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معاملة الابن . . وما هي الا أسابيع قليلة حتّى اصبح مولوي اقرب ما يكون إلى العائلة وكأنه فرد منها . .

كان مولوي يخجل كثيرا من المعاملة الطيبة التي يلقاها ، وكان يعمل جاهدا على ان يكون في مستواها ، فهو لاينسى وصايا ابيه له في ان يعمل على كسب ثقة اهل البيت ومحاسبة نفسه على تصرفاته . .

كان الاب حريصا على ان يبقى ولده في مكة ، وان يستقر بها ، فهو يتبرك بوجوده فيها ، كما كان يأمل في ان يعينه مولوي على تكاليف الحياة في بلده بما سوف يرسله له من الاجر الذي سيحصل عليه من العم يوسف فيستعين به في تربية ابنائه الآخرين . . .

ولقد وجد مولوي عناء في الانسجام مع حياته الجديدة في منزل العم يوسف اذ كان ، بادىء الامر ، يهرب بعيدا عن غرفة الطعام ، ويحاول ان يأكل في المطبخ ولكن العم يوسف وزوجته كانا يصران على ان يأكل معهما كأي فرد من العائلة . . .

وشيئا فشيئا اخذ مولوي يعتاد على هذه الحياة ويتقبل حسن معاملة العم يوسف وزوجته في محاولة لان يكون على احسن مايرومان دماثة وادبا وحسن تصرف ، حتى اشتهر في الحي كله بوداعته واخلاقه الطيبة ، وكثيراً ما رآه الناس صحبة العم يوسف ، يرافقه في غدواته وروحاته ، ويذهب معه لاداء صلاة الجمعة في الحرم الشريف . .

وكان العم يوسف من جهته فخورا بمولوي ، يقدمه للناس في اعتزاز وهو يقول :

– هذا هو ابني مولوي الهندي . . هذا هو الهندي الصغير حقّنا . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم يقصّر العم يوسف قط في أي شأن من شئون مولوي ، اذ اصّر على ان يتلقى نصيبه من العلم ، وأن يكون ذلك في الصباح كأي طالب آخر ، ورفض رفضا قاطعا ان يستجيب لرغبة مولوي التّي ابداها على استحياء في ان يعمل بالبيت صباحا ويدرس في المساء . .

وهكذا عاش مولوي حياته في كنف العم يوسف رضّيا ناعم البال وكأنه ولد من اولاده ، وحاول جهده ان يثبت له انه قد وضع ثقته ومحبته في مكانها ، فأقبل على الدراسة بهمة ونشاط حتّى قطع السنوات الدراسية واحدة بعد الاخرى بتفوق إلى ان حصل على الثانوية العامة ؛ وبات اختيار الكلية التي سوف يلتحق بها في الجامعة هي الشغل الشاغل للعائلة ، تتحدث فيه باستمرار وتحاول ان تختار له مايراه كل منها افضل . .

ولم يكن يؤلم مولوي شيء في حياته ، بعد ان قضى تلك السنوات الطوال في مكة ، الا انقطاع الصلة بينه وبين اهله في باكستان ، فقد تناقصت رسائل ابيه عاما بعد عام حتّى انقطعت تماما ، الامر الذي آلم مولوي اشد الالم ، فراح العم يوسف – من جهته – يحاول العثور عليهم بالكتابة إلى اصدقاء له هناك ، ولكن ذلك كله لم يؤد إلى اية نتيجة ؛ وكان اشد ما يؤلم العم يوسف ان يرى الألم الصامت في نظرات الفتى كلما تذكر اهله ، وكانت تلك النظرات سؤالا حائرا عما حلّ بهم وعن سبب انقطاعهم عن مكاتبته . .

وفي الوقت الذي كان فيه العم يوسف يبحث امر مستقبل مولوي والكلية التي يجدر به ان يلتحق بها في الجامعة جاء الدكتور حسن .

والدكتور حسن هو الابن الاكبر للعم يوسف ، كان موظفا في احدى دوائر الدولة وقد عرف مولوي منذ ان كان طفلا صغيرا ضمه ابوه إلى العائلة ، ثم غاب فترة طويلة في الخارج مبتعثا للحصول على الدكتوراه ، وهاهو يعود

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآن ليجد العائلة مشغولة بأمر مولوي والكلية التي سيلتحق بها . وبدون تردد اقترح الدكتور حسن على مولوي ان يدرس « العلوم السياسية » ، وراح يشجعه على اختيارها حتى اقتنع مولوي ، فالتحق بالجامعة وفق نصيحة ابن العائلة الاكبر الذي كان يتابع دراسته الجديدة هذه ويراجع معه دروسه ويشرح له ما استغلق عليه فهمه منها . .

وكثيراً ما كان الدكتور حسن يسترسل في شرحه وايضاحه ، فيدخل في مناقشات متشعبة مع مولوي ليمس امورا لم تكن من جوهر الدراسة بل كانت غريبة على سمع مولوي وعقله . .

واذ تمادى الدكتور حسن في احاديثه ، راح مولوي يرجوه ان يقصرها على الدراسة وحدها قائلا له انه لايستسيغ احاديثه تلك ولايتقبلها ، ولكن الدكتور حسن استمر في تلك الاحاديث وفي جرّ مولوي إلى مناقشات غريبة عما الفه وعرفه من افكار . . .

والواقع ان الدكتور حسن كان خالي الذهن مما كانت افكاره الغريبة تحدثه في نفس مولوي ، فهو لم ينتبه إلى الفارق الجسيم بين مستواه الثقافي والآفاق التي عاش فيها ، وبين مستوى مولوي والمحيط الذي عاش فيه . .

كان الدكتور حسن يحدّث مولوي بنظريات سياسية واجتماعية لم يسمع بها في حياته فيستفيض في الشرح والعرض ويحث مولوي على مناقشته فيها . .

وكان مولوي ، من جهته ، يحاول تحاشي هذه المناقشات فيقول له انه لاحاجة به إلى تلك الافكار وانه سعيد بالواقع الذي يعيش فيه . . ولاشأن له بالنظريات السياسية الغريبة ولا الافكار الاجتماعية الشاذة . .

ولكن الدكتور حسن كان متأثرا بما كان يسميه انفتاحا على التيارات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفكرية المختلفة ، وكأنما كان صدود مولوي عن الاستجابة له ، والتجاوب معه ، سببا اقوى لكي يزداد اصرارا على الاستمرار في احاديثه ومناقشاته . .

وبالتدريج تحول اعراض مولوي إلى شيء من الاقبال . . وتضاءلت سلبيته تجاه ما كان الدكتور حسن يحدثه به ، بل وصار يعيد مايسمع على أهل البيت ، ولكن احدا ما لم يلق بالا إلى ماحدث في نفس مولوي من تحول ، وظل — كما كان — واحدا من افراد الاسرة يتلقى تعليما عاليا . . لعله سبب مايتحدث به من افكار لم تكن تهم احدا . .

ولم يلاحظ العم يوسف نفسه اي تغيير في نفسية مولوي واحاديثه ، وظل حريصا على حث العائلة على الاستمرار في معاملتها الطيبة له ، واتاحة المجال له ليتم دراسته في جو طبيعي . .

ولعل الشيء الوحيد الذي لفت انتباه العم يوسف هو التصاق مولوي بالدكتور حسن اكثر فأكثر ، ثم ترديده لتلك الافكار الغريبة امام بعض زملائه ممن كانوا يزورونه في المنزل ومناقشته لها معهم . . .

وبدأ العم يوسف يشعر بالقلق . . وخاطب ولده الدكتور حسن فيما لاحظه على مولوي ، ولكن الدكتور حسن قال انه ليس في الامر ما يقلق وانه انما يحدثه بتلك الافكار ليترك له حرية الاختيار . .

ولم يقتنع العم يوسف . .

قال لولده ان مولوي مازال اجنبيا عن البلاد ولايجوز بالتالي توريطه بالحديث في تلك الامور . .

وتمسك كل من الاب والابن بموقفه . .

فالدكتور حسن يعتقد ، كما قال لابيه ، بانه لاضير فيما يحدث مولوي به ، والعم يوسف يرى ان مثل تلك الاحاديث لايجوز ان تلقى على عواهنها ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وان لها تأثيرا ضارا على من كان في مثل سن مولوي فضلا عن وضعه كأجنبي ، وان على حسن ان يأخذ تلك الاعتبارات بعين التقدير .

واذ تزايدت مخاوف العم يوسف افضى بها إلى زوجته وطلب اليها ان تخاطب ابنها الدكتور حسن في الامر ، وان تبيّن له سوء عاقبة مايفعل . .

ولم تفهم الام كثيرا مما قاله ولدها وهو يدافع عن موقفه ، ولا هي استوعبت العبارات المعقدة والاصطلاحات الغريبة التي استخدمها في عرض وجهة نظره ، فرأت ان تخاطب مولوي مباشرة ، وان تلقي اليه بمخاوفها ومخاوف زوجها ، فاستدعته ، امام الدكتور حسن ، وازجت اليه بما قاله زوجها العم يوسف . . .

ولشد ماكانت دهشة الدكتور حسن عندما سمع مولوي يدافع عن افكاره بقوة وجرأة ، فحدّق فيه بدهشة وهو يقول :

– ما هذا يامولوي ؟ . . لقد تفوّقت على استاذك . . وسبقته بمراحل طويلة . .

وبات هذا الامر مشكلة اقلقت العم يوسف ، الذي اصبح اكثر اهتماما بملاحظة تصرفات مولوي وكلامه مع زملائه ، وحار كيف يتصرف . . فهو يخشى ان يخدش مشاعر مولوي فيما لو حاول ان يضغط عليه بالقوة ، فكأنه – اذ ذاك – يذكره بواقعه وماضيه ، وفي الوقت نفسه كان يشعر بخطورة الطريق الذي يسير مولوي فيه والذي لايقتصر ضرره على مولوي وحده بل قد يمتد إلى العائلة بأكملها . .

وتحول العم يوسف إلى التشدد في موقفه . . فطلب من الدكتور حسن ان يبتعد عن مولوي والا يتحدث معه بتلك الاحاديث . . كما طلب من مولوي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ان يمتنع عن استقبال زملائه في المنزل مادام لم يأخذ بنصائحه وظل سادرا فيما هو فيه . .

واذعن مولوي لرغبة العم يوسف ولم يعد يستقبل احدا من زملائه في المنزل ولكنهم كانوا يلتقون في اماكن اخرى . . في منازلهم . . وفي المتنزهات العامة المنعزلة . .

وعلم العم يوسف بالامر فازداد قلقا وهمّاً وعاد يتحدث إلى الدكتور حسن حول هذا الموضوع . .

وصعق العم يوسف عندما صارحه حسن بأنه لايقل قلقا عنه على مولوي وانه — مثله — يخشى عليه من مغبة ما هو فيه . .

وقال الاب بمرارة :

— الم اقل لك ذلك منذ البداية ؟ . . . الم اطلب منك ان تكفي مولوي شر ماتقول ؟ . .

واجاب حسن مدافعا عن نفسه :

— انني لم اكن اقصد شرّا حين كنت اتحدث اليه . . فلقد كنت اناقشه واحاول ان اعوّد تفكيره على الاسس العلمية والمستوى العالي في المناقشة . . هذا هو كل ماكنت ارمي اليه . .

واردف حسن وكأنه يحدث نفسه :

— لشدّ ما انا آسف على ذلك . . انني اخشى ان اكون قد جنيت عليه . .

ورد الاب في حسرة :

— كل ما اتمناه هو الا يكون الاوان قد فات على اصلاح هذا الامر . .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم تلبث اسوأ مخاوف العم يوسف ان تحققت . .

فقد لاحظ ان مولوي قد بات كتوما ، يخفي افكاره واجتماعاته التي يقوم بها خارج المنزل . .

ثم لاحظ العم يوسف ان هناك عيونا تراقب المنزل ، وتتتبع تحركاته وتحركات كل من في المنزل . .

ولم يفاجأ الرجل بذلك . . فهو يعلم ان مثل هذا الامر لايمكن ان يكتم ، وانه لايلبث ان يصل إلى الجهات الامنية الساهرة على سلامة المواطنين وراحتهم . .

وحدّث بعض اصدقائه في الموضوع طالبا مشورتهم ، فأكدوا له ان مخاوفه في محلها ، وان هناك شكا في ان يكون منزله وكرا لخلية خطيرة ، وانه وجميع افراد عائلته — لاسيما الدكتور حسن — موضوعون تحت المراقبة . .

وزاد في هلع العم يوسف ان لاحظ ان المراقبة المفروضة على منزله قد باتت علنية ، وراح يلوم نفسه على انه لم يوقف مولوي عند حده منذ البداية ، واعتبر أنه هو الذي ترك له الحبل على غاربه وجنى عليه حين تركه يتعرض لاشياء ما كان ينبغي له أن يتعرض لها ؛ وانه كان عليه ان يمنع حسن من الاسترسال في طرح نظرياته التي قرأها في الكتب امام فتى غرير لايفقه من امور الدنيا شيئاً . .

وهكذا ركب الهم العم يوسف ، وافتقد راحة البال التي كان يعيش فيها ورأى ان يحسم الامر مع مولوي ، فراح ينبهه — لآخر مرة — إلى خطر ما هو فيه . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونادى العم يوسف زوجته وابنه الدكتور حسن ليشهدا لقاءه مع مولوي وليعيناه عليه ، واصغى اليه مولوي وهو مطرق دون ان يجيب على كلامه بحرف واحد . .

ثم تسلم الدكتور حسن زمام الحديث ، فأخذ يحذره ، بدوره ، مما هو فيه ويقول له بأنه على خطأ كبير وفي خطر اكبر وانه لم يكن يتوقع منه ذلك الاندفاع الاحمق . . .

وفوجىء الثلاثة بمولوي يبكي وهو يسمع كلام الدكتور حسن ثم رفع رأسه وقال له بهدوء غريب :

– عجيب امرك يادكتور حسن . . انت الذي دفعت بي إلى هذا الطريق .. وانت الذي جررتني إلى هذا المسلك . . وتريدني الآن ان اتراجع ؟ . . انت الذي تطلب ذلك ؟ . . لقد كنت مستعدا للتخلي عما انا فيه عندما سمعت العم يوسف والسيدة الوالدة يخاطبانني فيه . . اما ان تطلب انت ذلك مني . . فلا..

وهمّ حسن بأن يجيب ولكن مولوي اتم حديثه قائلا :

– رويدك . . رويدك يادكتور حسن . . لعلك تذكر انني كنت ارجوك الا تحدثني بما حدثتني به . . كنت اقول لك انه لاشأن لي بهذه الأمور . . ولكنك كنت تصرّ على الحديث والمناقشة حتّى زرعت تلك الافكار في ذهني وعندما حذّرك العم يوسف من ذلك زدت اصرارا على موقفك مني . . مع علمك بأنني محدود التفكير . . بل لقد رحت تحثني على ان اثبت وجودي حسب تعبيرك . . وان آخذ بأفكار لم تكن تخطر لي ببال . . وتأتي الآن بكل بساطة لتقول لي ان اتوقف ؟ . . لايادكتور . . لقد سبق السيف العذل . . ويؤسفني ان اقول لك انني كنت اعتبرك مثلي الاعلى ولكن صورتك قد اهتزت في ذهني الآن . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال الدكتور حسن بذهول :

ـ الم يخطر ببالك يامولوي بأن هناك فارقا بين النظرية والتطبيق ؟ . . وان ماتقرأه في الكتب شيء . . وماتراه ينفذ منها شيء آخر ؟ . . صحيح انني اردتك ان تفكر .. ولكنني كنت واثقا من انك سوف تصل ، بنتيجة تفكيرك، إلى ما أقوله لك الآن . . وهو الفارق العظيم ما بين النظرية والتطبيق . .

وردّ مولوي :

ـ لايادكتور . . كان حريّا بك الا تسمعني ماقلت اصلا . . لقد كنت تتحدث عن اشياء لاتدرك ابعادها . . كنت ، حين حدّثتني ، تلعب بالنار .. انت الذي دفعتني إلى النار . . كان عليك ان تدرك انني كنت ساذجا وبريئا.. ومن ثم ان تكون حريصا في كل ماقلته لي . . اما الآن فقد انتهى دورك تماما بالنسبة لي . . لقد جنيت عليّ . . وعليك ان تتحمل وزر ذلك امام ضميرك على الاقل . .

وادرك العم يوسف ان مولوي قد ضاع من بين ايديهم ، وان اية محاولة لاقناعه بالتحول عما هو فيه لافائدة منها . . فلم يتمالك ان تنهد في استسلام واليأس يملك عليه روحه واحاسيسه . .

• • •

عندما خرج العم يوسف من منزله وجد ، عند البوابة الخارجية ، عددا من رجال الامن كانوا في انتظاره ، فطلبوا اليه في لطف ان يصحبهم إلى مكان ما . .

وهناك علم العم يوسف ان ما كان يتوقعه ويتخوف منه قد تحقق ، وانهم قد حققوا مع مولوي وادلى باعترافات كاملة ، وانه قد اودع السجن تمهيدا لترحيله عن البلاد بعد ان بتّ في امره من قبل الجهات المختصة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال له الضابط بلهجة عتاب انهم لم يكونوا يتوقعون منه ان يتستّر على هذا الشاب الغريب ، ولكن العم يوسف شرح لهم موقفه ووجهة نظره ، واوضح انه لم يأخذ الامر على محمل الجد الا في المدة الاخيرة ، وان مولوي عنده في منزلة الابن ، فكان يأمل في ان يثوب إلى رشده ، ويرعوي عما كان فيه . .

وخرج العم يوسف وهو لايكاد يرى طريقه ، فالصدمة قد هدّت كيانه وكان عسيرا عليه ان يحتمل فكرة ابتعاد مولوي عنه بعد ان قضى في كنفه تلك السنوات الطوال . .

وخطر له ، في غمرة اليأس ، ان يذهب ليتشفع لمولوي ، وان يشرح ملابسات الموضوع ، ويتكفل برده إلى الطريق الصحيح ، ولكن شفاعته ذهبت سدى ، بل قيل له انهم – من اجله – قد اكتفوا بترحيل مولوي ، وانه في هذه اللحظة بطريق عودته إلى بلاده . .

وقال العم يوسف كالمذهول :

– ولكنه سليم النية . . مسكين . . ساذج . . انه لايفهم شيئا في تلك الامور . .

وخرج إلى الطريق وهو يردد تلك العبارات . .

* * *

ومنذ ذلك اليوم ، الف الناس ان يروا العم يوسف سائرا على غير هدى يردد كلماته تلك ، فلا يتمالكون من ان يهزوا رؤوسهم في اسف وأسى . .

فقد ضاع مولوى . .

وضاع العم يوسف معه . . . . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

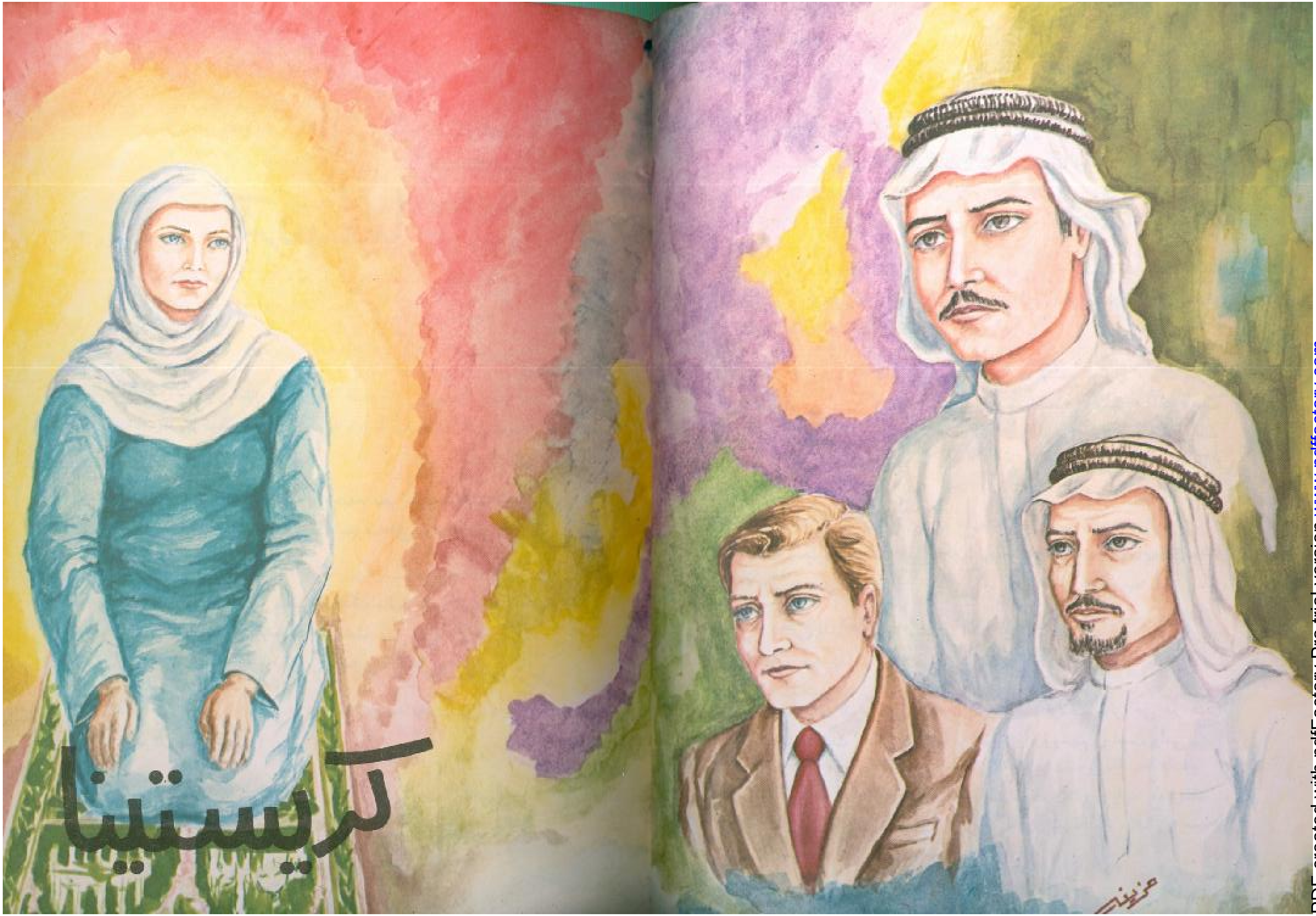

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كريستينا

انحنى السيد باركر رأسه قليلا وهو يتقدم نحو سلم الطائرة ، وراح يستعرض ببصره الواقفين تحت السلالم لعله يتعرف على الشخص الذي يفترض ان يلقاه عند وصوله . .

ولم يلاحظ ، بادىء الامر ، شيئا ، ولكنه مالبث ان رأى رجلا ممتلىء الجسم يرتدي الملابس العربية يبتسم له محييا . .

وما ان وطئت قدما المستر باركر ارض المطار حتى تقدم منه ذلك الرجل وهو يقول :

– حضرتك السيد باركر ؟ . .

– نعم . . انا باركر . .

– وانا فاروق تيسير . . سكرتير خدمات السفارة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ تشرفنا . . هذه زوجتي سالي . . وهذا ولدي جون . .

ـ اهلا وسهلا . .

علق السكرتير ثم اضاف بصوت متردد :

ـ عفوا .. هل لي ان اسأل ان كنتم قد جلبتم معكم خمرا او لحم خنزير ؟..

ـ كلا بالطبع . . فأنا اعرف ان هذه الاشياء محظورة في بلادكم . .

ـ معذرة . . ولكنني اردت ان اتأكد لا اكثر . .

ـ لاعليك . . انت تؤدي واجبك . . وشكرا لك على هذا الحرص . .

وسار الجميع في اتجاه صالة كبار الزوار بينما قام فاروق بانهاء اجراءات الدخول ، ثم اخذهم في السيارة التي كان يقودها بنفسه إلى مقر اقامتهم داخل حي السفارة . .

وكان السيد باركر يمد بصره عبر النافذة إلى الشوارع التي كانت السيارة تمر منها محاولا ان يرى ما يمكنه ان يراه من مظاهر الحياة في مدينة جدة . .

وما ان وصلت السيارة إلى المكان المقصود حتى هبط منها السيد باركر وعائلته وهو يكرر عبارات الشكر على حسن الاستقبال الذي لقوه ، وودعهم فاروق وهو يفكر في هذه الشخصية الظريفة التي بدت له اجتماعية اكثر مما كان يتوقع ، على كثرة ما استقبل من امثالها خلال عمله في السفارة . .

وما لبث ان اتجه بالسيارة نحو منزله . . .

* * *

قضى السيد باركر ذلك المساء في المنزل فلم يغادره ، لكي يأخذ قسطا كافيا من الراحة بعد عناء رحلته الطويلة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الصباح نزل إلى الحديقة وطلب من الخادم ان يعد طعام الافطار ، بينما اخذت زوجته سالي تتم زينتها . .

وتفقد باركر ولده جون فلم يجده ، فرفع صوته مناديا ولكن الخادم اجابه بأن جون قد انطلق إلى الخارج ليقوم بجولة يتعرف بها إلى بعض معالم المدينة ، واردف الخادم وهو يبتسم :

– يبدو ان الطقس الجميل قد اغراه على الخروج . .

– لابأس . . وارجو ان تطلب منه الحضور إلى هنا فور وصوله . .

كان الوقت في اواخر الربيع ، والجو في احسن حالاته ، والهواء يتسلل على شكل نسيمات هادئة ندية تداعب الوجوه بلطف ونعومة لاسيما في تلك الساعة المبكرة من الصباح . .

ونزلت السيدة سالي بخطواتها الرتيبة في الوقت الذي ظهر فيه جون وهو يلهث ، فقد قطع المسافة إلى البيت ركضا . .

وتقدم الخادم معلنا وصول فاروق الذي دخل وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة سعيدة ، فلقد شعر فاروق بنوع غريب من الالفة يشده إلى هذه العائلة اللطيفة . .

وخلال الاسابيع القليلة التي تلت ذلك كان ذلك الشعور يزداد لدى فاروق ، فلقد عامله السيد باركر معاملة طيبة ، واعتمد عليه في كثير من الشئون وبخاصة بعد ان لمس فيه امانته وطلاوة حديثه وكفاءته في العمل ، وامتدت هذه الصداقة بين الاسرتين لان فاروق مالبث ان زار السيد باركر وعائلته في المنزل مصطحبا زوجته وابنه « سراج » . .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دخل فاروق على السيد باركر في مكتبه وسلمه برقية عاجلة وردت من نيويورك وما كاد الرجل يقرأها حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة سعيدة فتنهد وهو يقول :

ــ ايه . . اذن فان كريستينا في طريقها الينا . .

وعلق فاروق على عبارة الرجل بابتسامة ثم استطرد متسائلا :

ــ لماذا ارسلت البرقية من نيويورك ؟ . . لقد اخبرتني انها تعيش في مدينة « صودص » . .

ــ هذا صحيح . . ولكنها ذهبت إلى نيويورك لتركب الخطوط الدولية . . فليس في قريتنا ، التي تكرمت وسميتها مدينة ، مطار دولي . .

ــ آه . . فهمت . .

ــ ارجو ان تعمل الترتيبات اللازمة لاستقبالها في المطار واحضارها إلى المنزل . .

ــ كما ترى ياسيد باركر . . اعطني البرقية لاعرف منها رقم الرحلة وموعد الوصول والخطوط الجوية التي ستأتي على طائرتها . .

ــ تفضل ياعزيزي . .

والقى فاروق نظرة على البرقية ثم علق :

ــ ولكن هذا التاريخ يصادف وجودنا في الطائف حيث حدد لكم موعد لمقابلة وزير البترول . .

ــ آه . . صحيح . . اذن يذهب جون لاستقبالها مع موظف الاستعلامات..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– يمكن ان يصحبه ابني سراج . . فذلك يسهّل الامور عليها . .

– فكرة عظيمة . . وشكرا لك . .

* * *

لم يجد سراج ومرافقه عناء كبيرا في التعرف على كريستينا بين الركاب الذين هبطوا من الطائرة القادمة من نيويورك . . فقد كانت يانعة الجمال . . ممشوقة القوام . . ذهبية الشعر . . زرقاء العينين . . بادية الاناقة . .

وتقدم منها اخوها جون وقدّم لها سراج ثم توجه الجميع إلى السيارة بعد انهاء اجراءات الدخول ، واستطاع سراج ان يكتشف بسرعة ان الفتاة تشبه اباها إلى حد بعيد في مرحه وسرعة تآلفه مع الناس .. وابدت كريستينا لسراج شكرها واسفها لما جشمته من صعاب في استقبالها ولكن سراج رد بأدب ان هذا واجب يؤديه تجاهها بصفتها ضيفة على بلده . .

ويبدو ان النجاح الذي حققه سراج في استقبال ابنة السيد باركر هو الذي جعل اباه يطلب منه مرافقتها إلى السوق عندما ابدت رغبتها في ذلك . .

وكانت معالم الدهشة الشديدة والانبهار تبدو على وجهها بجلاء وهي تتجول في اسواق جدة الحافلة بمتناقضات العريق والحديث من البضائع . . وكانت تتوقف طويلا امام الملابس النسائية العربية المزركشة ، والمشغولات المطرزة بالزخارف الاسلامية ، فابتاعت منها ماشاءت والفرحة الطفولية تلمع في عينيها وكأنها وقعت على كنز عظيم . .

وكان سراج ، من جهته ، سعيدا لسعادتها ، اذ كان يدرك مدى تأثير الصناعات التقليدية في نفوس الاجانب الذين يؤمون البلاد فهنأها ، وهو يبتسم ، على حسن اختيارها ثم عاد بها إلى المنزل بعد ان انتهت من جولتها في الاسواق . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكأنما اصبحت مرافقة كريستينا واجبا طبيعيا القي على عاتق سراج ، فقد كانت الفتاة ، من جهتها ، تثني عليه احر الثناء امام ابيها واخيها ، وتبدي دهشتها واستغرابها لتهذيبه الزائد الذي جعله يعاملها بكل احترام وتحفظ ، فأصبحت لاتخرج من البيت الا اذا كان سراج في رفقتها ، سواء للتبضع والتجول في الاسواق ، او للنزهة على شاطىء البحر الاحمر ، وخاصة في منطقة « ابحر » الجميلة . .

وكان سراج سعيدا لسعادتها ، مرتاحا إلى رفقتها ، دون ان يحاول سؤال نفسه عن سر هذه السعادة وذلك الارتياح . فالفتاة كانت وحيدة لاتكاد تعرف احداً في جدة ، وكان سراج اول من قابلت من اهل البلد ، وكان انطباعها الايجابي عنه سببا في اصرارها على ان يكون مرافقها الدائم في كل جولاتها . . .

ولم يجد سراج او ابوه ، او المستر باركر ، اية غضاضة في هذه العلاقة التي يبدو انها تزداد توثقا بين الشابة الامريكية وصديقها السعودي ، الا ان ام الفتى كان لها رأي آخر . . فهي بطبيعتها متحفظة جدا تجاه الغرباء ، ناهيك بأن تكون الغريبة فتاة اميركية ، فهي تتخوف من بنات الغرب وماتسمع عنهن وتخشى على ولدها منها ، ولم تتورع عن مصارحة زوجها فاروق بذلك ولكن الرجل ، بحكم احتكاكه الدائم بالأجانب وخاصة الاميركيين ، لم يأخذ مخاوف الام على محمل الجد او الاهتمام ، بل كان يرى تلك العلاقة بين الفتاة وابنه شيئا عاديا لان هذا هو اسلوب اولئك الاجانب في علاقاتهم الاجتماعية . .

ولكن مرور الايام لم يزد الام الا قناعة بما تراه . . فالعلاقة بين ابنها وتلك الفتاة الامريكية بلغت حد التزاور ، واصبحت كريستينا ضيفة شبه دائمة في المنزل ، كما كان سراج بدوره زائرا شبه دائم في منزل السيد باركر ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما ان معظم الاوقات التي يقضيها الفتى والفتاة خارج احد البيتين كانا يمضيانها معا في المتنزهات والاسواق . .

وكان مما ادهش الام حول تلك الفتاة الغريبة انها كانت تحمل في يدها كراسة كبيرة تسجل فيها مشاهداتها ، والكلمات العربية التي تتعلمها ، ولطالما اصغت ساعات طوالاً إلى ام سراج وهي تروي لها طرائف من التقاليد الشعبية السعودية وتنشدها بعض الاغاني الفولكلورية ، بينما يتولى سراج مهمة الترجمة بالطبع .

بل لقد طلبت كريستينا من ام سراج ان تعلمها طريقة صنع بعض الاكلات السعودية الشعبية التي اكلتها عندها فوافقت الام وهي تبتسم وتخفي دهشتها من بساطة هذه الفتاة التي تتصرف وكأنها شاب وليست انثى . .

وكان لهذه الرغبة من طرف كريستينا اثرها في التقريب بين المرأتين ، إذ زال كثير من تحفظات الام تجاه الفتاة ، وباتت كلتاهما تبذلان مجهوداً مضحكا للتفاهم مباشرة بالاستعانة بالقليل من الكلمات التي تعلمتها كل منهما من لغة الأخرى . . .

• • •

تلاحقت ايام العطلة بسرعة ، ومع كل يوم من ايامها كان سراج يزداد تعلقا بكريستينا بحكم ماقضى معها من تلك الايام : يخرجان سويا ، في الغالب ، ويتزاوران في بيتها او في بيته ، ويمضيان ساعات في احاديث تليفونية . .

وكان السيد باركر – من جهته – قد بدأ يلاحظ ابعاد هذه العلاقة غير الطبيعية بين ابنته وسراج والتي بلغت ، في تقديره ، حد العاطفة المشبوبة . . ولكنه كره ان يبدي اية ملاحظة خشية ان يؤثر ذلك على مشاعر ابنته ، وراح يقول لنفسه بأن تلك العاطفة لاتلبث ان تنقضي مع انتهاء عطلة الفتاة وعودتها إلى بلادها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن المفاجأة التي ادهشت السيد باركر ان كريستينا ابدت رغبتها في عدم السفر والبقاء إلى جوار اسرتها في جدة ، وفيما رحبت الام بذلك تحفظ الاب مدفوعا بمخاوفه حول تطور علاقة ابنته بسراج ، ولكنه لم يلبث ان وافق ازاء الحاح الام والابنة . .

وتنهدت كريستينا في ارتياح شديد عندما ابلغها والدها بموافقته ، فلقد كانت — وكما خمن ابوها تماما — قد باتت شديدة التعلق بسراج ، بل لقد اعترفت لنفسها بأنها تحبه الحب كله ، وكان كل ما تمنته هو أن يكون لها في نفسه مثل ماله في نفسها ، ذلك ان تحفظ سراج كان يجعلها في حيرة من امرها فما تدري ان كان يبادلها عاطفتها ام لا . .

ومع بدء العام الدراسي تضاءلت لقاءات سراج بكريستينا ، فسراج قد انشغل بدراسته ، وكريستينا قد التحقت بدورة للغة الفرنسية ضمن برنامج خاص للسكرتاريا نظمته هيئة تابعة للسفارة الفرنسية لتعليم اللغة الفرنسية ، لغة ومنهجا ، للذين يلمون الماما مقبولا بهذه اللغة . . .

كذلك اصرت كريستينا على ابيها اصرارا شديدا ان تستفيد من المدرس الذي كان يتردد على ابيها لتعليمه اللغة العربية ، فقد كان واضحا انها تتطلع إلى مزيد من الاتقان لهذه اللغة التي كانت قد تعلمت شيئا منها قبل قدومها إلى جدة واضافت اليه ماتعلمته من سراج خلال ملازمته لها . .

ودعاها سراج يوما لزيارة مدينة الطائف فوافقت بحماسة ، فهي لم تر من مدن المملكة حتى الآن سوى مدينة جدة التي تعيش فيها . . .

وفي السيارة كان سراج يشرح لها كل ما يمران به من معالم حتى وصلا إلى مفترق طرق مالبث سراج ان انعطف إلى ناحيته اليمنى وهو يقول لها باسماً :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ هذا الطريق الذي نسير فيه يسميه العامة « طريق الخواجات » . .

ودهشت كريستينا للتسمية وتساءلت عن سببها فقال لها سراج بهدوء :

ـ لان الطريق الآخر لايسمح لغير المسلمين بالمرور منه . . فهو يؤدي إلى مكة المكرمة . .

ونظرت اليه بدهشة اكثر وهي تقول :

ـ عجيب . . وما السبب في ذلك ؟ . .

ـ هكذا امرُ الله . .

ـ تعني ان الرب قد امركم بعدم السماح لغير المسلمين بدخولها ؟ . .

ـ نعم . .

رد سراج باقتضاب وحاول ان يغير مجرى الحديث بسرعة فأشار إلى مضارب بدو تناثرت في الوديان والسهول وعلى التلال والهضاب وقال :

ـ انظري . . هذه مضارب البادية . . واهلها يرعون الغنم والابل حيث تتوافر الخضرة والماء . . ولابد للسائق من ان يكون حذرا وهو يجتاز هذه المنطقة لان الحيوانات تقطع الطريق فجأة في بعض الاحيان مما يتسبب في وقوع حوادث . .

واستهوى منظر الابل نفس كريستينا فصفقت بمرح وهي تقول :

ـ اتمنى ان ترتب لي ركوب احد الجمال ذات يوم . .

ـ افعل ان شاء الله . . وسوف اختار لك جملا من جمال المدن لانها معتادة على رؤية السيارات ومواجهتها فلا تجفل منها . .

وسألته الفتاة بهدوء شديد :

ـ على فكرة ياسراج . . هل توجد في مكة جمال ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشعر بالضيق لأنها عادت إلى الحديث عن مكة المكرمة بعد ان اغلق بابه ، لانه كان يتوقع نوعية الاسئلة التي ستلقيها عليه حولها . . واراد ان يغير مجرى الحديث مرة اخرى الا انها – فيما يبدو – كانت مصممة على استئنافه :

– قلت لي ان الرب قد منع غير المسلمين من دخول مكة . . فهل ينطبق ذلك علينا نحن المسيحيين ؟ ...

– طبعا . .

– لماذا ؟ . . انني اعلم ان ربنا هو ربكم . . فلماذا يمنعنا من دخول بيته في مكة ؟ . .

وزفر سراج بشيء من الضيق وهو يجيب :

– كريستينا.. لاداعي لان نسترسل في هذا الحديث.. انه طويل ومعقد ..

– لمـــاذا ؟ . .

– هـــكذا . .

– لمـــاذا ؟ . .

– لان ديننا يختلف عن دينكم . .

وتطلعت اليه كريستينا في رجاء وهي تقول :

– انني اريد ان افهم . . فأفسح لي صدرك قليلا . . وأجبني على اسئلتي بلاضيق . . ارجوك . .

واذ لمس سراج اصرارها على الخوض في هذا الحديث ، تنهد باستسلام وقال لها :

– كما تشائين . . تفضلي واسألي . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ انا اعرف انكم تحبون المسيح عيسى بن مريم . . وتحترمونه . . ولهذا كنت اتوقع ان تجاملوا من هم على دينه . .

ـ هذا صحيح . . نحن نحترم المسيح عليه السلام ونجلّه . . ونعتبره نبي الله وكلمته التي القاها إلى مريم البتول . .

ـ اذن كيف تمنعوننا من دخول مكة ؟ . .

ـ اننا ننفذ امر الله سبحانه وتعالى كما قلت لك . .

ـ وهل الرب قال ألا يدخل المسيحيون مكة ؟ . .

ـ لا . . لم يقل هذا . . ولكنه قال « انما المشركون نجس فلا يدخلوا المسجد الحرام » . .

واعتدلت كريستينا في جلستها واستدارت نحوه قائلة في حدة :

ـ ولكننا لسنا مشركين . . نحن مؤمنون . . اجل . . نؤمن بالرب . . ربنا وربكم واحد . .

ـ انتم تقولون بالتثليث . . « الآب والابن والروح القدس » . . وهكذا تجعلون الرب ثالث ثلاثة . .

واطرقت كريستينا لحظة تفكر ثم رفعت رأسها وقالت هامسة :

ـ سراج . . لن اكتمك . . انني وابي لانؤمن بهذه العقيدة . .

وتساءل سراج بدهشة واضحة :

ـ ماذا تعنين ؟ . .

ـ نحن نؤمن بان هناك الها واحدا . . وان عيسى ابن الله . .

ـ اما نحن فنؤمن بأن الله واحد احد . . فرد صمد . . لم يلد ولم يولد . . ولم يكن له كفوا احد . .

وحين شرح لها سراج معنى هذه الكلمات قالت وقد بدا عليها التفكير العميق :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– هذا يصدر عن منطق معقول . . ولكن اعذرني ياسراج . . انني اجهل ديانتكم . .

ثم اضافت بسرعة وهي تبتسم ابتسامة رقيقة :

– ارجو الا تكون اسئلتي قد ازعجتك . . .

– لاشيء يستدعي الاعتذار . . (واضاف ضاحكا) على كل حال لقد ساعدتنا هذه المناقشة على ان نقطع هذا الطريق الطويل دون ان نحس بالملل . .

– شكرا لك ياسراج . .

– الشكر لك انت . . وثقي تماما اننا نحترم نبيكم ونجله . . لقد تحدث القرآن عنه وعن والدته عليهما السلام بشكل موسع . .

• • •

استمرت اللقاءات بين سراج وكريستينا وقد توطدت العلاقة بينهما اكثر ، وكان السيد باركر وزوجته يبديان ارتياحا شديدا لهذا التفاهم الذي ربط بين الاثنين ، فقد امتص اوقات فراغ كريستينا وساعدها على فهم عادات وتقاليد اهل جدة . .

وكان مبعث ارتياحهما ، ايضا ، ما تميز به سراج من اخلاق رفيعة ومعاملة حسنة ، كما ان السيد فاروق تيسير كان يبدو مرتاحا لهذه العلاقة الطيبة بين والده والفتاة الاميركية وان كان ينبه سراج بين الحين والآخر إلى ضرورة الاهتمام بدراسته ، مع ان سراج لم يكن في حاجة إلى هذا التنبيه ، فقد كان لامعا بين زملائه وحصل على جوائز في التفوق الدراسي اكثر من مرة اثناء دراسته الثانوية .

اما والدة سراج فقد كانت الوحيدة التي ملأ قلبها القلق والشك ، وكانت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تبدو طوال الوقت خائفة واجمة تفكر في قلق ، وضاعف خوفها ان زوجها لم يكن يشاركها في تخوفها من الخطر المحدق بابنهما بل انه كان يسخر احيانا من تلك المخاوف ، واحيانا يتهمها في قسوة بأنها تبالغ في تخيلاتها واوهامها وتجسيم الامور على صورة تزيد عن حجمها الحقيقي . . .

وقال لها مرة :

– انك بهذه الهواجس سوف تخلقين مشكلة لاوجود لها وتغرسين في ذهن الولد امورا هي ابعد ماتكون عنه . .

ومع هذا لم تتوقف الام عن الشعور بالخوف والقلق ، وان كانت قد حرصت على كتمان هذه المشاعر عن ولدها فهي تعرف رقته وحساسيته ، فحرصت على الاتجرح كريستينا فهي – على اية حال – فتاة طيبة ومتزنة ، وهي تشعر نحوها بعطف شديد رغم مخاوفها من عواقب علاقة ولدها سراج بها واندفاعه نحوها . .

* * *

خرجت عائلة السيد باركر للنزهة على طريق المدينة ، وكان سراج في صحبتها ، وابدت كريستينا اهتماما فائقا بمعرفة انواع الزهور البرية التي تنتشر في الصحراء وعند سفوح الجبال على وجه الخصوص فراحت تجمع بعضها وسراج يرافقها صامتا ساهما . .

وانحنت كريستينا على زهرة تقطفها فقال لها سراج مداعبا :

– اليس جميلا ان يستطيع الانسان قطف زهرة هنا دون اية معارضة ؟ . .

فالتفتت اليه وهي تتساءل في دهشة :

– معارضة ؟ . . ممن ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ من الذين يملكون هذه الزهور او من السلطات . .

ـ ولكن هذه زهور برية . .

ـ هذا ما عنيته بالضبط . .

ـ لم افهم . . اوضح من فضلك . .

ـ ان الامور في البادية هي اقل تعقيدا منها في المدن . . فالانسان يستطيع هنا ان يتصرف وان يعرب مباشرة عما يريد الحصول عليه دون تعقيدات . .

ـ ايضا لم افهم . . ويخيل الي انك قد اصبحت فيلسوفا او حكيما . .

ـ لاهذا ولاذاك . . انما اردت ان اقول ان حياة المدينة اكثر تعقيدا من حياة البادية . .

ـ هذه مسألة بديهية ياعزيزي . . وما كانت بك حاجة إلى كل ذلك اللف والدوران كي تثبتها . . اليس كذلك ؟ . .

وتوقفت تنتظر جواب سراج ولكن هذا ظل ساكتا . .

ـ مابك ؟ . . لم تسكت ؟ . .

وظل سراج صامتا لانه لم يجد الشجاعة لكي يكمل الحديث الذي بدأه . .

وواصل الاثنان نزهتهما سيرا على الاقدام . .

وفجأة امسك سراج بذراعي كريستينا وجذبها اليه وراح ينظر في عينيها كمن يريد ان يقول شيئا هاما ، ولكنه لم يقل شيئا ، فأفلتت كريستينا من يديه وقالت له ضاحكة :

ـ ما بك ياسراج ؟ . . هل تريد ان تنومني مغناطيسيا ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقال وهو يزفر بحرارة :

ـ للاسف . . انني لا اجيد ذلك . .

ـ اذن ماذا تريد ؟ . .

ـ اريد . . اريد ان اصارحك بشيء في نفسي . . شيء يؤرقني ليلا ويرهقني نهارا . .

وتساءلت الفتاة في تعجب :

ـ وما هو ذلك الشيء ياترى ؟ . .

فلم يجب ، وانما نظر اليها طويلا ، ثم رفع نظره إلى السماء في امل وشعرت الفتاة انه يريد أن يقول شيئا ، فجذبته إلى احد الكثبان الرملية فجلست وجلس جوارها . .

ـ ما بك ياسراج ؟ . .

ـ انني . . انني . .

وتمهل قليلا ثم اندفع يقول في اخلاص :

ـ انني احبك ياكريستينا . . نعم . . احبك . . وقد كنت اود ان اصارحك فيما مضى . . ولكنني . . لم اجرؤ على ذلك . .

ولم تجب كريستينا ، بل نهضت وراحت تتمشى وهي مطرقة ، فنهض سراج خلفها وهو يترقب جوابها بلهفة وخوف وقد تعلقت عيناه على شفتيها . .

واخيرا انفرجت الشفتان عن ابتسامة عذبة وسمعها تهمس :

ـ وانا ايضاً احبك ياسراج . . ولو لم تفاتحني انت في ذلك لفاتحتك به انا . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واحس سراج بسعادة تجتاح كيانه ، وتزاحمت الكلمات على شفتيه كأنما تريد كل منها ان تسبق الاخرى للتعبير عما شعر به من سعادة غامرة ، وقبل ان ينطق بأية كلمة سمعا صوت السيد باركر يناديهما من بعيد :

– هيه . . . كريستينا . . . سراج . . . مـــاذا يجري هناك ؟ . . انكما تبتعدان . . . . .

فتمتمت كريستينا في سعادة :

– بل اننا نقترب اكثر من اي وقت مضى . .

وابتسم سراج ، فاحتضن يدها بيده واسرعا عائدين . .

* * *

كانت الايام التالية حرجة وعصيبة في حياة كريستينا وسراج ، بل وفي حياة عائلتيهما كذلك ، فقد صارحت كريستينا والديها بحبها لسراج وحبه لها ، ورغبتهما في الزواج من بعضهما . .

وذهل السيد باركر وزوجته للخبر ، وبدا عليهما انهما لم يكونا يتوقعان هذه النتيجة السريعة للعلاقة بين الفتى والفتاة ، اما في منزل السيد فاروق فلم يكن الوضع اقل تأزما ، وكانت الام اكثر اهل البيت الما وحسرة ، فقد وقع ما كانت تخشاه وتحسب له الف حساب ، وتورط ولدها في علاقة توقعت عواقبها منذ البداية .

ولم تسكت الام هذه المرة ، بل راحت تنحي باللائمة على الاب وتضع التبعة كاملة على عاتقه وقالت :

– ماذا اقول للناس ؟ . . ماذا اقول لاهلي ؟ . . هل اقول اننا بعنا ولدنا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الوحيد للاجانب ؟ . . هل اقول اننا بعنا ديننا بدنيانا ؟ . . تكلم يافاروق . . اجبني . . انت السبب في كل هذا . . انت الذي وضع النار بجوار الهشيم . .

وقال الاب محاولا ان يهدىء من روعها :

– اهدأي ياصالحة . . لاداعي لكل هذه الضجة . .

– لاداعي لهذه الضجة ؟ . . كيف ؟ . . هل تعتبر المسألة بسيطة ؟ . . ام تظنني مغفلة ؟ . .

– حسبي الله ونعم الوكيل . . هدئي من روعك واعلمي انني لااقل عنك ألماً وقلقا . . ولكن علينا ان نفكر في روية وهدوء لا ان نتشنج . . ان الامر يختص بأغلى شخص في حياتنا . . وعلينا ان نعالجه بحكمة . . ثم ان المحذور قد وقع بالفعل . . وعلينا ان نجد لولدنا مخرجا منه دون ان نجرح شعوره او نتسبب في ايلامه او نسيء اليه . . فهو في السنة النهائية من دراسته واي ارباك نحدثه له سوف يضر بمستقبله حتما . . ان لم يقض عليه . . انه متعلق بالفتاة اشد التعلق . . اتفهمين معنى ذلك كله ياصالحة ؟ . .

– نعم افهم . . ولكنه لايعني لي شيئا . .

– بل انه يعني كل شيء . .

وصمت الاثنان ، فقد دخل سراج فجأة وعلى وجهه معالم الحزن ، فانزعج الاثنان وهب الاب واقفا وهو يتساءل في انزعاج :

– ماذا بك ياولدي ؟ . . ولم يبدو عليك الحزن والالم هكذا ؟ . .

– كيف لا اكون كذلك وقد تبين لي انكما ضدي ؟ . . انتما آخر من تصورت ان يقف ضدي . .

– ماهذا الذي تقوله يابني ؟ . . نحن نقف ضدك ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لقد سمعت شيئا من حديثكما وانا عائد لتوّي من الخارج . . انني اتعجب اشد العجب لتفكيركما بانهاء الموضوع كما تريدان . . انكما تخشيان كلام الناس . . اما انا فلم تفكرا فيّ . . ولم تعيرا سعادتي اي اهتمام . . فلماذا ؟ . . لماذا يا امي ؟ . . لماذا يا ابي ؟ . .

ـ انت مخطىء يابني . . لا انا ولا امك يمكن ان نقف ضدك . . ولكننا نخشى عواقب الامور . . ويهمنا ان تقيم حياتك الزوجية على اساس متين . . لا على شعور عابر او عاطفة مؤقتة . . .

ـ انني احبها . . احبها يا ابي . . احبها يا امي . . احبها حبا جارفا ملك عليّ كل مشاعري . . ان مابي ليس شعورا عابرا او شعورا مؤقتا . .

وانحدرت الدموع من عيني الام غزيرة حارة ، بينما قال الاب بصوت حاول ما استطاع ان يخلو من اية رنة تدل على الغضب او الاستياء :

ـ اننا نقدر مشاعرك كل التقدير ياولدي . . ولكن المسألة ليست بالبساطة التي تتصورها . . هناك اختلاف الدين . . فهي مسيحية وانت مسلم . . وهناك عائق آخر هو عدم جواز ارتباط السعودي باجنبية الا باذن خاص من وزارة الداخلية . . وفوق هذا . . فوالدها ديبلوماسي . . هذه ، كلها ، امور لابد من دراستها ومعالجتها بمنتهى الدقة والتعقل . .

وظل سراج صامتا ، ولكن اساريره كانت تنم عما يشعر به من معاناة ، الامر الذي لاحظته الام فجففت دموعها وانهت الحديث بقولها :

ـ دعونا من هذه المناقشة الآن . . وهيا بنا الى الحديقة لنشرب الشاهي معاً . .

• • •

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دخل السيد باركر إلى المنزل على عجل وطلب من زوجته باقتضاب ان تلحق به إلى غرفة المكتب ، وكان الاهتمام الشديد يبدو على وجهه ، إذ ابتدر زوجته سالي فور لحاقها به ومعها كريستينا :

ـ حسنا فعلت اذ اصطحبت كريستينا معك . . انني اريد الحديث بخصوص رغبتها في الزواج من سراج . .

وكان الاب عابس الوجه متجهم الاسارير ، وقد وشت خطواته السريعة التي كان يذرع المكتب بها بما يحس به من قلق وعصبية ، ولم يفت كريستينا ان تلاحظ ذلك ، ولكنها ظلت صامتة بينما استأنف هو الكلام :

ـ لقد رجعت إلى القوانين السعودية فوجدت انها لاتسمح بالزواج من اجنبية . . وهناك ايضاً عائق آخر هو اختلاف الدين . . انه الموضوع الاكثر تعقيدا . . لذا فانني انصحك ، يا كريستينا ، ان تتصرفي بحكمة وتعقل فلا تتورطين اكثر مما فعلت مع سراج . . كذلك اخبرك انني اتوجس من عواقب هذا الحب وتفكيرك في الزواج منه . .

وتنهدت الام بعمق وقالت مخاطبة كريستينا :

ـ هل سمعت ما يقول ابوك ؟ . . عليك ان تتفهمي المخاطر الناجمة عن صلتك بسراج وان تحاولي نسيان ما بينك وبينه . .

واستلم الاب زمام الحديث فقال بلهجة حانية :

ـ يمكن ان نعالج الموضوع بابتعادك إلى امريكا فترة تنسين فيها كل شيء وتكملين دراستك . . وبهذا تحل المشكلة بسهولة وبلا مضاعفات . . هه . . ما رأيك ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان واضحا على كريستينا انها لاتشارك ابويها رأيهما اذ لم تلبث ان قالت على الفور معلقة على كلام ابيها :

ـ انني اعرف عددا من المسيحيات اللواتي تزوجن من مسلمين هنا في جدة . . بعض ازواجهن سعوديون وبعضهم غير سعوديين . . كما انني فهمت من سراج ان الدين الاسلامي لايمنع من زواجي منه . .

وقال الاب بجفاء :

ـ لقد اوضحت لك كل ما عرفته عن طريق المصادر الرسمية . . ليس عندي ما اضيفه فوق هذا . .

ونهض يريد الخروج دون ان يشرب القهوة التي جاءه بها الخادم ، فقالت له كريستينا بلطف :

ـ انك لم تتناول قهوتك يا ابي . .

ـ آسف . . لقد نسيت . .

وعاد إلى مقعده وتناول الفنجان الذي قدمته له ابنته وهو ينظر اليها في عطف شديد ، ثم قال وكأنه يبرر موقفه وموقف والدة كريستينا :

ـ ارجو ان تلتمسي لنا العذر يا ابنتي . . فأنا وامك قد اصبحنا في غاية القلق على مستقبلك . . .

ـ لاداعي لان تقلقا يا ابي . . سراج ولد طيب . . وأنتما تحبانه . . فما الداعي للقلق ؟ . .

ورد الاب وهو يضع فنجانه على الطاولة الصغيرة :

ـ الزواج يا ابنتي مسألة تختلف عن اية مسألة اخرى . .

ـ انه افضل واكرم من اية علاقة طائشة . . ولا تنسيا انني احبه . . احبه هل تدركان ذلك ؟ . . هل تفهمان معنى ذلك ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم يجب الاب بل التفت نحو زوجته ليرى رد الفعل لديها اثر كلمات كريستينا فلاحظ ان عينيها تترقرقان بالدموع وهي تحاول جاهدة ان تخفي مشاعرها وتسدل عليها ستارا من الهدوء المفتعل .

ولم يفت كريستينا ان تلاحظ حالة امها ، فنهضت واتجهت اليها ثم قبلتها وهي تسألها بدهشة :

– اماه . . انت تبكين ؟ . .

– آسفة يا ابنتي . . لم استطع كبت مشاعري . .

– انا التي يجب ان تبكي . . لا انت يا اماه . .

– انني ابكي بدلا عنك ياكريستينا . . لانني اعرف مشاعرك واتفهم موقفك . .

– دعوني اقل لكما بصراحة . . انا مصممة على الاحتفاظ بسراج سواء قبلت المقاييس التي تتحدثون عنها ام لم تقبل . . سأحتفظ به يا ابي . . سأحتفظ به . . .

وارتمت على صدر ابيها وهي تنشج بحرارة دلت الاب على مقدار ماتعاني ابنته من الم ولوعة ، فأخذ يدها بين راحتيه وقال لزوجته :

– فلنخرج إلى الهواء الطلق . . انني اكاد اختنق هنا . . يا الهي . . ما الذي اوقعنا في هذه الورطة ؟ . . ان دماغي يكاد يتوقف عن التفكير . .

وعلقت الام وهي تنهض وتلحق بهما عند الباب :

– اما انا فقد توقف دماغي تماما . . ولم يبق لي سوى هذه الدموع لاعبر بها عن آلامي التي سببتها لي كريستينا دون قصد . . ليتني استطيع ان اتفهم الامور كما تتفهمها هي . .

• • •

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مضت الايام التالية كئيبة رتيبة ، فقد ادرك سراج وكريستينا ان زواجهما يكاد يكون في حكم المستحيل بعد ان تضافرت القوى والظروف ضدهما وسارت في غير صالحهما ، ولكن ذلك لم يوهن من عزم الاثنين لاسيما بعد ان تخرج سراج بامتياز وتفوق فقالت له كريستينا باعتزاز وفخر :

ـ انني اشعر بفرحة كبيرة يا سراج . . واحس بأن لي في نجاحك العظيم هذا نصيبا . . اتعرف انني لم افرح بهذه الصورة يوم تخرج اخي « جون » من الكلية ؟ . .

وابتسم سراج بسعادة وقال وهو يشد على يدها بقوة :

ـ ما اسعدني اذ اسمع منك هذا . . ولو انه لم يكن يخفى عليّ . .

ـ تدري ؟ . . انني اشعر باننا نزداد قربا من بعض اكثر فأكثر . . رغم العقبات والعوائق التي تعترض سبيل آمالنا . .

ـ ما اسعدني اذ اسمع هذا ايضا . . وانني لواثق من ان الصعوبات القائمة امامنا لاتلبث ان تزول . .

ـ انني اشعر شعورا عميقا بأنها ستزول . . اجل . . سوف نتزوج وسوف نسعد بحبنا وزواجنا . . ويكون لنا اولاد صغار وبنات . . انني احب البنات فأي الاولاد تحب انت ؟ . . البنات ام البنين ؟ . .

ـ احب الاثنين . . كما احب كل ما يأتي منك او له صلة بك . .

• • •

وانشغل سراج في الايام التالية بأمور العمل وراح يقضي الوقت في استكمال الاوراق ومقابلة المسئولين حتى لم يتبق سوى وقت قصير يتسلم بعده عمله في المستشفى الجامعي . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقالت كريستينا لسراج وهي تبتسم :

– هيا . . لقد آن الاوان . . ولم يعد هناك ما يمنع . .

وتساءل سراج في استغراب :

– ما يمنع من ماذا ؟ . .

– من دخولي مكة . . وزيارة بيت الله الحرام فيها . . انني في اشد الشوق لرؤية الكعبة المشرفة والطواف حولها . .

– الحق معك . . ولا ادري كيف لم انتبه إلى ذلك . . سنؤدي العمرة . . ونرجو من الله تعالى ان يتقبلها منا . .

وانطلقت بهما السيارة من جدة باتجاه مكة المكرمة حتى وصلت إلى « طريق الخواجات » وهو الطريق الذي يسلكه غير المسلمين عند مفترق الطرق إلى مكة المكرمة ، فتنهدت كريستينا في سعادة وهي تقول :

– الحمد لله الذي هداني إلى الاسلام . .

– لقد تأخر اسلامك ياكريستينا . .

– لا . . لقد كنت مسلمة بالفطرة . . نعم . . انني مسلمة منذ زمن طويل فلا تقل هذا القول . .

– يتصور البعض انك دخلت في الاسلام من اجلي . .

– انه تصور غير سليم . . حقا لقد احببت الاسلام من خلال تصرفاتك . . ولكنني لم ادخله من اجلك . . لقد دخلته ، كما سبق واكدّت لك ، عن اقتناع عقلي وايمان قلبي بأنه دين الحق . . واقسم لك انني قد احسست بعد اسلامي بأن روحي قد اغتسلت في لجة نورانية . . وان نفسي قد استراحت واطمأنت على شاطىء امين . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقال سراج وقلبه يتوثب في سعادة لاتعدلها اية سعادة اخرى :

ـ لا املك بعد ان سمعت هذا منك الا ان احمد الله واشكر فضله . . وارجوه سبحانه وتعالى ان يسهل باسلامك ماتعسر من امرنا . .

ـ انا ايضا ارجو من الله ذلك . . ثم اني . . اني . .

ـ انك ماذا ؟ . .

ـ لو ان العالم كله وقف ضدي وضدك وضد ارتباطنا فانني على استعداد لمواجهته ومحاربته من اجل الحفاظ على ديني والبقاء إلى جوارك . .

ـ لو لم اكن اعرفك تماما لصعب علي ان افسر هذا التعلق الشديد بالدين الاسلامي وانت مازلت حديثة عهد به . .

ـ اتعرف ، ياسراج ، الفارق بيني كمسلمة وبينك كمسلم ؟ . .

ـ ماذا تعنين ؟ . .

ـ انت مسلم بالولادة . . وقد نشأت في اسرة مسلمة تعيش في مجتمع مسلم . .

ـ هذا صحيح طبعا . . ثم ماذا ؟ . .

ـ انت لم تناقش الاسلام كعقيدة . . ولم تعش التهيب الرهيب الذي كنت اعيشه قبل الدخول في الإسلام .. ولم تعرف الصراع الجبار الذي كان يدور في نفسي قبل ان اترك المسيحية وبالتالي لم تتذوق حلاوة الاسلام كما تذوقتها انا ...

ـ وكيف وجدتها ياكريستينا ؟ . .

ـ انها حلاوة الماء البارد العذب تجده بعد رحلة طويلة شاقة مضنية وسط صحراء قاحلة مقفرة في يوم قائظ قد اشتعلت رماله ، والتهب هواؤه فجف الحلق وتشققت الشفاه واوشكت الروح ان تزهق . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال سراج مبهورا بالصورة العجيبة التي رسمتها بكلماتها :

ـ يالها من لوحة . . لقد ابدعت يا كريستينا الابداع كله . .

ـ صدقني انني اصف ما احس به دون زيادة او مبالغة . .

دار الحديث بينهما وتشعّب حول هذا المعنى عندما ختمته كريستينا بحمد الله الذي جاء بها من امريكا ليمنّ عليها بالاسلام في جدة . .

وسأل سراج :

ـ كيف تقبّل ابوك وامك هذا الوضع ؟ . .

ـ الحق انهما يبديان تفهما كبيرا . . ويحافظان ما استطاعا على شعوري . . وهذا يكفيني الآن . . . ولكنني . .

وتوقفت عن الكلام ونظرت إلى الامام وفي عينيها امل كبير فاستحثها سراج على الكلام . . .

ـ ولكنك ماذا ؟ . . .

ـ انني اتمنى ان يوفقني الله إلى هدايتهما للاسلام . . وان يشرح قلبيهما له . .

وابتسم سراج وعلق :

ـ لو سمعاك لجنّ جنونهما . .

ـ لاتخف عليهما . . واعتقد انهما يتفهمان شعوري . .

ـ صحيح . . ولكن هذا الحوار سيكون صعبا في الوقت الحالي . .

ـ ليس هذا مستحيلا . . وعون الله اكبر . .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اقتربت السيارة من مكة ولاحت لعيني كريستينا منائر الحرم الشريف سامقة في السماء وكأنها اذرع ممتدة بالابتهال والدعاء ، فصاحت مهللة مكبرة ، وراحت تلبي في حرارة وصدق ، وشاركها سراج انفعالها الذي كان اقوى من انفعاله واعنف ، وفجأة توقفت عن التلبية وقالت :

– سراج . . كيف ادخل بيت الله واسمي كريستينا ؟ . . انه اسم مسيحي مائة بالمائة . .

– لاعليك ياكريستينا . . فالمسألة مسألة قلوب لامسألة اسماء كما تعلمين ولابأس في ذلك . . وبوسعك ان تحتفظي باسمك . .

– احب ان ادخل بيت ربي باسم مسلم كقلبي المسلم . . هيا . . اختر لي اسما اسلاميا خالصا . . هيا . .

وراح سراج يعرض عليها العديد من الاسماء ، ولكنها اعجبت اكثر باسم « فاطمة الزهراء » فهتفت :

– انه اسم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت اشبه الناس به . . والتي هي من افضل نساء العالمين . . وزوج علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه ما اعظم ان اتشرف بحمل هذا الاسم . .

ودخلا المسجد قبل الاذان لصلاة العصر ، وما كادت الزهراء تخطو خطوات معدودة تجاه الكعبة المشرفة وترى الكتل البشرية الهائلة المتراصة حولها انتظاراً لاقامة الصلاة ، وقد تجمعوا من كل جنس ولون وافترشوا الارض جنبا إلى جنب . . لافرق بين فقير وغني . . او صغير او كبير . . حتى وقفت مأخوذة مبهورة وهي تردد :

– الله اكبر . . الله اكبر . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واحاطت بها رهبة غريبة وهي تطوف بالبيت العتيق ، والناس حولها يطوفون ويبتهلون . . ويبكون خاشعين ضارعين ، وقد تعالت الاصوات من المطوفين والطائفين :

« . . رب زد بيتك هذا تعظيما وتشريفا ومهابة وامنا » . .

وآخر ينادى بأعلى صوته :

« . . رب لاتذرني فردا وانت ارحم الراحمين . .

« اللهم اسقني من حوض نبيك وحبيبك سيدنا محمد شربة هنيئة مريئة لاظمأ بعدها ابدا » .

وحانت منها التفاتة نحو شيخ يطوف في وقار ، ويرفع صوته بالدعاء وقد تبللت لحيته بالدموع وهو يدعو :

« . . اللهم ان هذا البيت بيتك . . والحرم حرمك . . والعبد عبدك . .

« وانا يا الهي عبدك وابن عبدك . . ارجو رحمتك واخشى عذابك من النار » . .

وتعالت الاصوات واختلطت نداءات الحناجر :

« . . اللهم اني اعوذ بك من الشك والشرك والشقاق . .

« اللهم اسقني من حوض نبيك . . »

« . . اللهم اجعل في قلبي نورا . . وفي عينيّ نورا » . .

وملأت الفرحة قلب الزهراء وراحت ترفع يديها بالدعاء وسراج بجانبها يرفع صوته بالدعاء وبعد الطواف تعلقت بالبيت العتيق ، وراحت تبتهل إلى الله في ضراعة ان يعينها على البقاء في الاسلام ويشرح صدرها له . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشربت من ماء زمزم . . وشعرت بحلاوة مميزة وهي تروي ظمأها منه . . .

ثم خرجت إلى المسعى ، فكانت تسعى وتداعب سراج في براءة وهي تحاول ان تسبقه في الهرولة بين الصفا والمروة ، ولكنه افهمها ان الهرولة مقتصرة على الرجال فقط . .

كانت الزهراء تبدو جميلة ورائعة في ملابس الاحرام ، وقد بدأت حبات من العرق تتناثر على جبينها كاللؤلؤ وقد اشرق وجهها بنور الايمان ، وضاء قلبها بنور الاسلام ، فشعرت بأنها خفيفة حتّى لتكاد تطير من الفرح والسعادة اللذين ملآ جوانبها . .

ونظرت الزهراء إلى الكعبة وقالت لسراج :

– لماذا يسمون الكعبة بالحجر الاسود وهي ليست سوداء وانما الثوب وحده هو الاسود ؟ . .

– هذا اصطلاح يستعمل عندكم في الغرب . . والكعبة ليست سوداء . . بل هي من حجارة مكة . . وهناك جبل يعرف بجبل الكعبة ويعتقد البعض ان هذه الحجارة قد احضرت منه . .

– ومن اين جاءت هذه التسمية اذن ؟ . .

– لا اعلم . . وربما يخلطون بين الكعبة والحجر الاسود . . او الاسعد . . كما نسميه . .

– من اين جاء هذا الحجر ؟ . .

– من السماء . .

– كيف جاء ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لا اعرف . .

ـ من يعرف اذن ؟ . .

ـ يعرف ذلك الراسخون في العلم . . وانا لست من الراسخين في العلم..

ـ انت اذن من الراسخين في ماذا ؟ . .

ونظرت اليه بخبث ، فأجاب وهو يبتسم :

ـ من الراسخين في الحب . .

وضحك الاثنان . .

ورأت الزهراء بعض الناس يطوفون حول البيت وهم محمولون على « الشباري » ، وهي قطع من الخشب تتخللها اربطة من سعف النخل ، ويحمل كل « شبرية » رجلان . .

ـ ماهذا ؟ . . لماذا يطوف هؤلاء فوق الناس ؟ . . هل هم من علية القوم وكبارهم ؟ . .

ـ لا . . انهم ليسوا كذلك . . وانما هم عجزة لايستطيعون الطواف فحملهم هؤلاء مقابل اجر .

ـ فهمت . .

ـ الحمد لله . .

ـ هل تضايقك اسئلتي يا سراج ؟ . .

ـ ابدا . . ولكنها كثيرة . . والمفروض ان نمضي الوقت في الدعاء والابتهال . .

ـ اصبت . . وارجو المعذرة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– لاعليك . .

وعندما اتمت العمرة وانطلقت بها السيارة مع سراج قالت :

– لقد ندمت على مافات من عمري قبل ان اجيء إلى مكة المكرمة واطوف بالكعبة المعظمة واعيش هذه اللحظات الروحية السامية . . انني احس كأنني قد ولدت من جديد . .

* * *

دخلت والدة الشيخ حسان العشي المستشفى ، وكانت سيدة فاضلة كريمة اليد والنفس . . والتفت العائلة حولها وفي مقدمتها ولدها الذي كان بارا بها . .

وكما هي عادة سراج ، فقد حرص على تقديم كل التسهيلات اللازمة للمريضة ، واعجب الشيخ حسان بنشاطه وقدّر له اخلاصه في عمله ، وعندما تماثلت والدته للشفاء حرص على اكرام سراج وراح يسأله عن وضعه واحواله ، ولما عرف بقصته مع كريستينا صمم على مساعدتهما ، وكان على علاقة طيبة مع كثير من المسئولين فأقنعهم بسلامة الوضع وبذل جهدا كبيرا حتى حصل على اذن بزواج سراج وكريستينا . .

وكانت فرحة الاثنين بالحصول على اذن الزواج اكبر من ان توصف ، فلقد بكت كريستينا وقالت لسراج من خلال دموع الفرح :

– لقد طلبت من الله وانا اطوف بالكعبة ان يسهل لنا هذا الامر . .

فأجابها بتأثر :

– وهاهو سبحانه وتعالى قد استجاب دعاءك ومنّ علينا بتحقيق املنا في يسر وسهولة . .

– الحمدلله . . والشكر له ثم للشيخ حسان . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والقى سراج بجسمه المتعب على الاريكة وهو يقول :

ـ والآن . . علينا ان ندرس الامر ونتخذ مايلزم من ترتيبات دون ان نرهق احدا معنا . .

ـ هذا رأيي انا ايضا . .

* * *

سأل السيد باركر ابنته :

ـ متى تريدان عقد القران ؟ . .

ـ اتفقت مع سراج على ان نعقده فور عودتي من السفر . .

ورفع الاب حاجبيه الكثيفين في دهشة وقال :

ـ السفر ؟ . . هل تعتزمين السفر ؟ . .

ـ اجل يا ابي . . انها رحلة قصيرة جدا . .

ـ إلى اين ؟ . .

ـ إلى امريكا . . اصفي بها اعمالي واحضر حاجياتي الهامة . . هل لديك اعتراض ؟ . .

ـ لا . . ابدا . . لا اعتراض عندي . .

وفي اليوم المحدد للسفر جاء سراج وصحبها إلى المطار في سيارته ، وكان واضحا انه يبذل جهدا جهيدا للسيطرة على اعصابه وكبت مشاعره وقلبه حزين لفراقها ، وكأنما احست هي بذلك فقالت :

ـ يعلم الله اني لا اريد فراقك ولا اقوى عليه ياسراج . . ولكنها الظروف التي شرحتها لك . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– اذهبي في امان الله وحفظه يازهرائي العزيزة . . وعودي سريعاً لنتزوج ونسعد بحبنا . .

وارتفع صوت مذيع المطار يعلن تأخر الاقلاع ساعة ، فلم تأسف على ذلك ، ولم يأسف هو أيضا ، فقد كانت تلك ساعة منحها القدر الحادب الحاني لقلبين شابين جمعهما الحب الطاهر العفيف ، وربط بينهما برباطه الوردي البراق ، رسما فيه صورة المستقبل البهيج ولوّناها بألوان بديعة زاهية متألقة . . فيللا صغيرة على شاطىء جدة الحبيبة . . حولها حديقة جميلة يلعب فيها الاطفال . . يركضون ويضحكون . .

وقطع هذه الاحلام الجميلة صوت مذيع المطار وهو يعلن عن موعد اقلاع الطائرة ، فأسفت ومدت يدها تصافحه ومدّ يده ، وعندما سحب يده من يدها احس بانقباض مفاجىء . .

وارتفعت الطائرة بالزهراء ، وحلقت مبتعدة وهو جامد في مكانه قد اخذ منه التأثر كل مأخذ ، ثم رفع رأسه إلى السماء وطلب من الله سبحانه وتعالى ان يحفظها ويردها سالمة ، وخرج من المطار واستقل سيارته في الطريق إلى البيت وهو شارد العقل مع الزهراء . . ومع آمال المستقبل . .

• • •

كان السيد باركر يقرأ احدى الصحف عندما رنّ جرس التلفون ، فقام اليه ورفع السماعة متسائلا عن المتحدث ، فاذا بصوت فاروق تيسير يصيح بفزع :

– سراج في المستشفى بين الحياة والموت . . لقد تعرض لحادث شديد وهو عائد من المطار . .

وانطلق السيد باركر مع والد سراج إلى المستشفى ، وهناك وجداه يرقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في غيبوبة تامة ، والاطباء حول السرير يحاولون انقاذه بكل ما في طاقتهم من علم وجهد . .

ومع ساعات الصباح الاولى بدأت الجهود تؤتي ثمارها ، واخذ سراج يفيق من غيبوبته رويدا رويدا ، فنظر حوله ليرى اباه والسيد باركر ، فحياهما بابتسامة ضعيفة واهنة ثم طلب ورقا وقلما ، وهمّ ابوه بتنفيذ طلبه ولكن الاطباء رجوه ان يصبر حتى تتحسن حالة المصاب ، واصرّ سراج على احضار الورق والقلم ، فاستجاب الاب وقدم له ماطلب ، ثم ساعده على الجلوس فبدأ يكتب :

« . . زهرائي الحبيبة . . ما احوجني اليك الآن . . » . .

ولم يستطع الاستمرار في الكتابة ، وسقط القلم من يده ، فتوسل اليه ابوه وباركر ان ينتظر حتى يتمالك قواه ، ويستطيع امساك القلم كما يجب ، ولكنه رجاهما ان يعيدا اليه الورقة وراح يتم الخطاب :

« . . . زهرائي الحبيبة . .

« اكتب اليك في لحظات تمنيت ان تكوني فيها إلى جواري . . وحقا ان والديّ ووالديك يقدمون لي كل الرعاية والعناية . . ومع ان ملائكة الرحمة يحطن بسريري ، ويجتهدن لتخفيف آلامي المبرحة ، الا انني في اشد الحاجة اليك انت . . انت يازهرائي الحبيبة . . ولن اخفي عليك . . فقد استبد بي شعور قوي يؤكد لي انني لن اراك مرة اخرى ولا ادري لماذا . . قد تكون هي مرارة الفراق وقسوته . . وقد يكون هول الحادث قد جعلني احب الحياة واتشبث بها واشعر انني انما افعل ذلك من اجلك انت . . ياحبيبتي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتلميذتي . . نعم . . انت تلميذتي في الاسلام . . التلميذة التي عرفت من حلاوة الاسلام مالم يعرف استاذها . . فاطمة الزهراء . . كل شيء بقضاء . . هكذا علّمنا الاسلام . . واذا كان القدر قد كتب علينا الا نلتقي فسوف لانلتقي في هذا العالم . . واني اريد منك وعدا هو ان تكوني المؤمنة القوية التي عرفتها فلا تضعفين امام هذا الحادث .. ولاتبكين ، لانني اكره ان ارى الدموع في عينيك . . كما اكره ان تكوني محط شماتة اي انسان مهما كان . . لقد ضحينا معا . . وبنينا الاحلام معا . . ونحن على موعد للقاء . . فاذا قدر له ألا يتم في هذه الدنيا . . فسوف القاك في الآخرة . . وسوف اطلب من العليّ القدير ان تكوني لي وحدي كما تمنيت دائما . . انه قضاء الله ولاراد لقضائه . . وسبحان من لايحمد على مكروه سواه . .

« انني اشعر بضعف شديد في جميع اجزاء جسمي . . ولكنني اتحامل على نفسي واتماسك لانني اشعر بسعادة كبيرة وانا اكتب لك . . يامن احبك كما لم احب احدا في حياتي . . اتعرفين ما هي امنيتي الآن ؟ . . امنيتي الوحيدة هي ان آخذ يدك في يدي فأضمها إلى صدري وامر بها على وجهي . . اتعرفين لماذا ؟ . . لانني اعتقد ان يدك هي البلسم الذي يشفيني . . آه يازهراء لو تعلمين كم احبك . . »

ولم يقو سراج على اكمال خطابه بعد ان كتب منه ما كتب . . فسقط القلم من يده ثانية وكذا الورقة فأسرعوا اليه ، وساعدوه على التمدد .

وقال له ابوه :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لابأس ياولدي . . ستكتب خطابات كثيرة عندما تتحسن صحتك . .

ولم يكن الاب يدري ان هذا هو آخر خطاب يسطره ولده بيده . .

واستراح سراج . .

اغمض عينيه . . وتمتم بكلمات لم يسمعها احد ، ثم غاب في نوم لايفيق منه النائم . .

• • •

عادت الزهراء بعد ايام من الوفاة . .

عادت وفي حقائبها ثوب الزفاف الانيق الذي اختارته بعناية فائقة لكي يعجب حبيبها سراج ، والذي حرصت على ان يكون غاية في الحشمة والوقار ليتمشى وتعاليم الاسلام . .

استقبلها ابوها وامها في المطار ، واسرعا بها إلى البيت . .

واحست المؤمنة صادقة الايمان ان شيئا ما ، غير عادي ، قد وقع ، خاصة وان سراج لم يكن معهما في استقبالها ، فراحت تتساءل عن السبب ، ولكن احدا منهما لم يتكلم ، وانما قدم لها ابوها الخطاب في صمت . .

واسرعت إلى حجرتها ، واغلقت الباب خلفها ، ثم اخذت تقرأ الخطاب . .

ودخلت والدتها خلفها في هدوء ، ونقلت اليها تفاصيل ماحدث في عبارات مرتبكة متلعثمة ، وكانت الزهراء تصغي وهي تشعر وكأن يدا من حديد تعتصر قلبها ، بل تسحقه سحقا ، وانسالت الدموع من عينيها ، ولكنها تذكرت الوعد الذي طلبه حبيبها الراحل منها ، وحاولت ان تقاوم ولكن محاولتها اخفقت وانهمرت الدموع بلاحساب . . فصاحت في الم :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ما اقساك ياسراج . . لماذا طلبت مني هذا الوعد ؟ . . لماذا ؟ . . وكيف تطلب مني حبس دموعي في عينيّ بعد هذا المصاب الفادح فيك ؟ . . هل استطيع ان امنع النهر من التدفق ؟ . . او احول دون حركة البحر ؟ . . معذرة ايها الحبيب الراحل عن دنيانا . . المقيم في قلبي . . معذرة إذا قلت لك انك طلبت المستحيل . . حقا انني مؤمنة بقضاء الله وقدره . . خاضعة لمشيئته سبحانه وتعالى ، ولكنني بشر . . فسامحني . . سامحني ياسراج . . سامحني يا استاذي . . ويا حبيبي الكبير . .

* * *

قال لها ابوها بعد عودتها بشهور :

ـ انني اعرف مشاعرك يا ابنتي . . واعرف عمق الجرح الذي اصابك . . واعرف انك ضحّيت بالكثير . . بل انك تركت دينك ودخلت في الاسلام و . .

فقاطعته الزهراء متسائلة باستغراب :

ـ ماذا تعني يا ابي ؟ . . وماذا تريد ان تقول ؟ . .

فتلعثم السيد باركر وتوقف عن الكلام . .

وتدخلت امها قائلة :

ـ انه . . انه يريد ان يعرض عليك اقتراحا يا ابنتي . .

ـ وما هو هذا الاقتراح ؟ . .

ـ أن تعودي إلى دينك الأول بعد أن زال السبب الذي دفعك إلى تركه ...

واحمر وجه الزهراء ، وبدا ان كلام امها قد اثارها ، ولكنها تمالكت نفسها وتكلمت بصوت جهدت ان يكون هادئا رغم الدموع التي كانت تنهمر غزيرة من عينيها :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– لقد كرهت ان تحرجاني مرة اخرى . . صحيح انني احببت سراج وصحيح انني ضحّيت بالكثير في سبيل حبه . . ولكنني لم اعتنق الاسلام من أجله . .

وقاطعتها امها صائحة في غضب شديد :

– كريستينا . . انا . .

ولكن الفتاة واصلت كلامها غير آبهة لمقاطعة امها :

– اماه . . ارجوك . . انني اتألم . . وانا اكره العودة إلى الظلام بعد ان عرفت النور وعشت فيه . .

وتدخل الاب قائلا في هدوء :

– صدّقيني يا ابنتي انني تألمت لوفاة سراج مرتين . . مرة لانني احبه . . واخرى لانني احبك انت . . وقد احسست بحسرة كبيرة ونحن نواريه التراب . . وثقي تماما ياعزيزتي انني لا اريد ان احرجك ابدا . . ولكنني رغبت ، فقط ، في ان اقترح عليك التفكير في العودة إلى دينك . . فأنت تستطيعين عبادة الله وانت مسيحية . . تماما كما تستطيعين ذلك وانت مسلمة . .

– مادام الامر كذلك . . فقد اخترت الاسلام . . فساعدني يا ابي على البقاء على ديني . . ساعدني انت وامي . . ولاتحرجاني . . وصدّقني يا ابي انني اشعر بأنني مسلمة منذ زمن طويل . . وانت يا امي . . صدّقيني انني لم اسلم لكي اتزوج من سراج . . صحيح انني احببته . . وصحيح ان حبه قد ملأ عليّ حياتي . . ولكنني اسلمت عن قناعة . . وعن حب لهذا الدين . . . فساعداني في ذلك . . ساعداني ولاتحرجاني مرتين . .

واختنق صوت الزهراء ببكاء لم تستطع له منعا ، فتوقفت عن الكلام . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسارعت امها اليها ، تضمها إلى صدرها وهي تجهش بالبكاء . . واسرع السيد باركر في الخروج من الغرفة وقد تندّت عيناه بالدموع . .

• • •

وانحدرت الشمس نحو المغيب . . وبدأ قرصها الارجواني يختفي في هدوء وراء الافق ويضفي على الجو رهبة عجيبة . . وصاح المؤذن داعيا الناس إلى الصلاة . .

وخرجت الام بزوجها بينما كانت كريستينا – اعني فاطمة الزهراء – تستعد للصلاة . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الزهور الزرقاء

اخذت حشود الطلاب تتجه إلى الجامعة ، فدبّت الحياة في اروقتها . . بل ان كل شيء بدت عليه الحيوية والنشاط . .

حتّى اشجار « النيم » الممتدة على جوانب الممرات عادت اليها الخضرة بعد الاصفرار ، فتهادت اغصانها في سكون وراحت تتمايل مع هبّات نسيم فصل الربيع و كأنها ترحب بالقادمين . . من كان منهم جديدا يدخل الجامعة اول مرة . . ومن كان منهم صديقا قديما من طلبة الاعوام السالفة . . .

حركة متجددة . .

شباب يفدون وآخرون يخرجون . .

اساتذة الجامعة يشعرون بالنشاط المتجدد والشباب الدائم . . كأن الزمن قد توقف عندهم . . ولعل احتكاكهم بالشباب ، من طلبتهم ، هو السر فيما يشعرون به من النشاط والشباب . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووسط هذا الزحام كان امين يحث الخطى ، وفي اعماقه شوق كبير إلى لقاء الاساتذة والزملاء . . ولقد تبدى هذا الشوق في تلك الابتسامة العريضة التي ارتسمت على وجهه ، فعبرت بوضوح عن فرحته . . .

وما كاد يبلغ الحرم الجامعي ، ويتجه نحو مباني كليه الطب ، حتى سمع نداء زملائه :

– ابو زهرة . . ابو زهرة . . ياهلا . .

فأقبل عليهم يعانقهم في سعادة غامرة بهذا اللقاء مع بداية العام الدراسي الجديد ، بعد فراق اشهر العطلة الصيفية . .

ولم تكن كنية امين هي « ابو زهرة » التي ناداه بها زملاؤه . . ولكنه اللقب الذي اطلقوه عليه بعد ان رأوا منه تعلقا بالزهور يفوق كل تصور ، فهو يعنى بها في احواض صغيرة وضعها في غرفته داخل السكن الجامعي ، وعلى الشرفة ، وحتى في المعمل كانت هناك زهرية صغيرة وضع فيها زهورا زرقاء واقامها في الركن الخاص به . .

وهكذا عرف عنه زملاؤه ولعه بالزهور ، والزرقاء منها بوجه خاص ، فكانوا يداعبونه ويعبثون به شأنهم في ذلك شأن الزملاء والاصدقاء في مثل اعمارهم . . فمرة يخفون الزهرية ويتركونه يبحث عنها باهتمام وقلق ، إلى أن يشفقوا عليه فيعطونه اياها وهم يضحكون ، ومرة اخرى كانوا يلونون الزهور الزرقاء بألوان اخرى ويقهقهون ، رغما عنهم ، وهم يرونه ينظر إلى الزهور بدهشة وذهول ، حتى اذا تكشفت له اللعبة شاركهم ضحكهم وهو يرجوهم الا يعودوا لمثلها مرة اخرى . .

كان زملاؤه يعرفون عنه تقبله للمداعبة والمزاح بصدر رحب ، فهو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يشاركهم ضحكهم بعد ان يكتشف احدى الاعيبهم معه ، وكان يرد عليهم إذا نادوه بذلك الاسم « ابو زهرة » . .

كان واضحا ان امين هو من ذلك النوع من الناس الذين حباهم الله حب الناس وحبهم للناس ، فهو — باجماع آراء زملائه — ذو قلب كبير ، وحسّ مرهف ، يتفانى في خدمة الآخرين قائلا انه يقوم بالواجب ودون ان يمنّ على احد بما اسدى . .

وعلى هذه الصورة ، وسط المحبة المتبادلة الغامرة ، امضى امين حياته في الجامعة بعد ان انهى سنوات الدراسة وتخرج من كلية الطب . .

* * *

جمع امين اشياءه وكتبه استعدادا لمغادرة السكن الجامعي ، وهو يشعر بأسف عميق على فراق هذا المكان الذي قضى فيه احلى سنوات حياته . .

وراح يتأمل ، باسما ، اسمه المحفور على احد المقاعد الخشبية في البهو . .

امين ابو زهرة . .

لقد التصق به هذا اللقب حتى بعد التخرج ، وها هو يترك الاسم ذاته محفورا على المقعد الخشبي ويجيل بصره فيما حوله وكأنه يراه لاول مرة ، مع انه يلقي عليه النظرة الاخيرة . .

وتذكر عبارات الاسف التي ابداها اساتذته لان معدله لايسمح له بالعمل في الكلية كمعيد ، رغم انهم كانوا يتمنون لو استطاعوا مساعدته على ذلك العمل ، فهم يثقون بأنه سينجح فيه ، لما هو عليه من اخلاق طيبة وفطرة طبيعية لمساعدة الآخرين وكأن هذه المساعدة واجب لافضل له فيه . .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا بدأ امين حياته العملية طبيبا في المستشفى العام بجدة ، واكتملت سعادته بزواجه من ابنة خاله « مائدة » التي كانت رفيقة طفولته وشريكته في العابه ولهوه ، حتى اعتبرت عائلتهما زواجهما امرا متفقا عليه ضمنا ، فكانوا يقولون « مائدة لامين . . وامين لمائدة » ، وتحقق ذلك فعلاً ، وغدا الاثنان لبعضهما بعد ان بدأ امين حياته العملية . .

والحق ان الالفة — ثم المحبة — اللتين ربطتا قلبي الزوجين قد ازدادتا بعد الزواج ، اذ كانت مائدة تتمتع ، إلى جانب جمالها الملحوظ ، بروح مرحة وحب للناس وقدرة فائقة على توفير اجواء من الراحة والسعادة والاطمئنان في البيت ، فسارت حياة امين بعد الزواج سيرا هنيئا رفيقا ، حقق له القدرة على الانصراف إلى اكثر الاشياء ظفرا باهتمامه واقباله . .

ففي العمل ، لمس منه الجميع روحه الطيبة واخلاقه واريحيته ، وقدرته الفائقة على التنظيم فساروا بذكره مع الثناء والاعجاب ، سواء في المستشفى العام او في عيادته الخاصة . .

وفي البيت كان حوض كبير للزهور الزرقاء يتربع في شرفة المنزل حيث كان امين يقضي بعضا من اوقات فراغه في العناية بها ، يشذبها ويتابع نموها ، ويقضي ايامه — مع زوجته — ساعات يسهران خلالها وهما يرشفان الشاهي وعيونهما متجهة ، غالبا ، إلى تلك الزهور . .

كان امين راضيا عن حياته كل الرضى ، فهو يكتفي من هذه الحياة بعمله وزوجته وزهوره ، ولايقيم كبير وزن لما يأتيه من ايراد ما دام يلبي مطالبه العادية التي لم يكن يتطلع إلى اكثر منها . . واشتهر بين قاصدي عيادته الخاصة بقناعة بدت لهم غريبة ، فهو لايغالي في الاجر ، بل ويعفي رقيقي الحال منه كلية ، ويزيد على ذلك ان يقدم لهم الدواء المجاني من العينات الطبية التي تأتيه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت حياته تسير على وتيره شبه ثابتة . . فهو يخرج من عمله في المستشفى ليتناول الغداء ، ثم يسرع إلى الحديقة ليلقي نظرة على الزهور ، فيعنى بها ويتفقدها واحدة واحدة ، ثم يتجه إلى الحوض المقام في الشرفة ليخصه بعناية أكثر . .

ولطالما ضحكت مائدة اذ تراه جاثيا على ركبتيه عند الحوض ، والأدوات التي يستخدمها في العناية بالزهور قد تناثرت امامه ، وعلقت بوجهه ذرات من التراب لايعيرها اي اهتمام ، لان اهتمامه كله يكون ، اذ ذاك ، منصبًا على زهوره وحوضه .. وكانت مائدة تشاركه هذه العناية ، بعض الاحيان ولكنها تتركها له غالبا لانها تعرف مدى المتعة التي يشعر بها في ذلك . .

* * *

وقال لها ذات يوم وهما واقفان في الشرفة المطلة على الحديقة :

— اني سعيد يا « ميمو » . . سعيد جدا . . بك . . وبحياتي . . وعملي . . وبهذه الزهور كلها . . ما كان منها في الحوض او الحديقة . .

وملأ صدره بالهواء في ارتياح . .

واجابته مائدة باسمة :

— اعرف هذا يا امين . . واعتقد ان اهل جدة جميعا يعرفونه . .

وضحك الاثنان . .

وعاد امين إلى الكلام قائلا :

— انت تبالغين ياميمو . .

واستطرد في اهتمام :

— انظري . . انها ليست زهرة واحدة . . ولازهرات متفرقات . . وانما حوض كامل هنا . . ومجموعة كاملة هناك . . انها تنمو بشكل رائع . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ طبعا . . مادمت تعنى بها فلك ان تتوقع هذه النتيجة . . واخشى ان تصبح لدينا غابة كاملة تستأثر باهتمامك بصورة تجعلني اغار منها . .

ورد عليها مبتسما :

ـ انني اتفاعل كثيرا بهذه الزهور كما تعلمين . . بل انني اشعر بأنها قطعة من حياتي . .

وبينما هما في هذا الحديث لاحت من امين نظرة إلى الحوض القائم في الشرفة ، فرأى ابنته الصغيرة « مها » تحبو نحو الحوض واحدى يديها ممتدة نحوه وكأنها تريد ان تقطف منه زهرة . .

وقال امين ضاحكا :

ـ انظري إلى مها . . اسرعي . . ارجوك . . الزهور في مأزق . .

وضحكت مائدة وهي تقول :

ـ لاتقلق . . انها طفلة بريئة كهذه الزهور . . وهي تحبها مثلنا . .

واسرع امين في اللحظة التي كانت الطفلة فيها قد تعلقت بطرف الحوض ولم تكد ترى وجه ابيها حتى اطلقت ضحكة سعيدة ، وتركت الحوض وعادت ادراجها ، فقالت مائدة وهي تحمل الطفلة :

ـ الم اقل لك انها تحب الزهور مثلنا ؟ . .

فأجاب امين :

ـ من يدري ؟ . . لقد سلم الحوض هذه المرة . . ولكن من يدري ماذا يحدث في المرة التالية ؟ . . ان مها بريئة . . ولكنها متهورة فيما يتعلق بالزهور . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووجهت اليه مائدة نظرة عتاب وهي تضم طفلتها إلى صدرها وتسرع بها إلى الداخل . .

* * *

كان امين حريصا على زيارة والديه بانتظام كل اسبوع ، ولم يقطع هذه العادة قط منذ زواجه . . وكان يلقى احيانا اخاه « سعيد » في بيت والديهما . .

كان سعيد رجل اعمال ، حقق نجاحا كبيرا واستطاع انشاء مجموعة من المؤسسات التجارية التي يعمل فيها عشرات الموظفين ، والتي وضعت صاحبها في مصاف الاثرياء ، وكان سعيد قد تزوج قبل اخيه امين ببضعة اشهر ، فكانت أعمار الاولاد متقاربة ، وكان الاطفال ينتهزون فرصة زيارتهم لجدهم للقاء واللعب مع بعضهم . .

وهذه المرة قال سعيد لاخيه وهما جالسان في صالون منزل والديهما :

— متى تترك يا امين عملك كطبيب وتعمل معي ؟ . . ان مؤسسة الادوية التي املكها تسبب لي ازعاجا دائما رغم نجاحها ، لانني بحاجة إلى مدير يتمتع بالكفاية الادارية إلى جانب خبرته الفنية . . وانت اقرب الناس الي . . وتنطبق عليك الصفات التي اريدها في مدير هذه المؤسسة . .

وايد الاب كلام سعيد ، وابدى تطلعه إلى اليوم الذي يرى فيه الاخوين وهما يعملان معا ، كما عاشا معا . .

واجاب امين على كلام اخيه :

— انني مستعد لكل خدمة يا اخي . . ولكنني لا استطيع ان اترك الطب . . لانني اعتبره رسالة انسانية . . فاذا شئت يمكنني ان اعمل مساء في المؤسسة ساعتين او ثلاثا . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

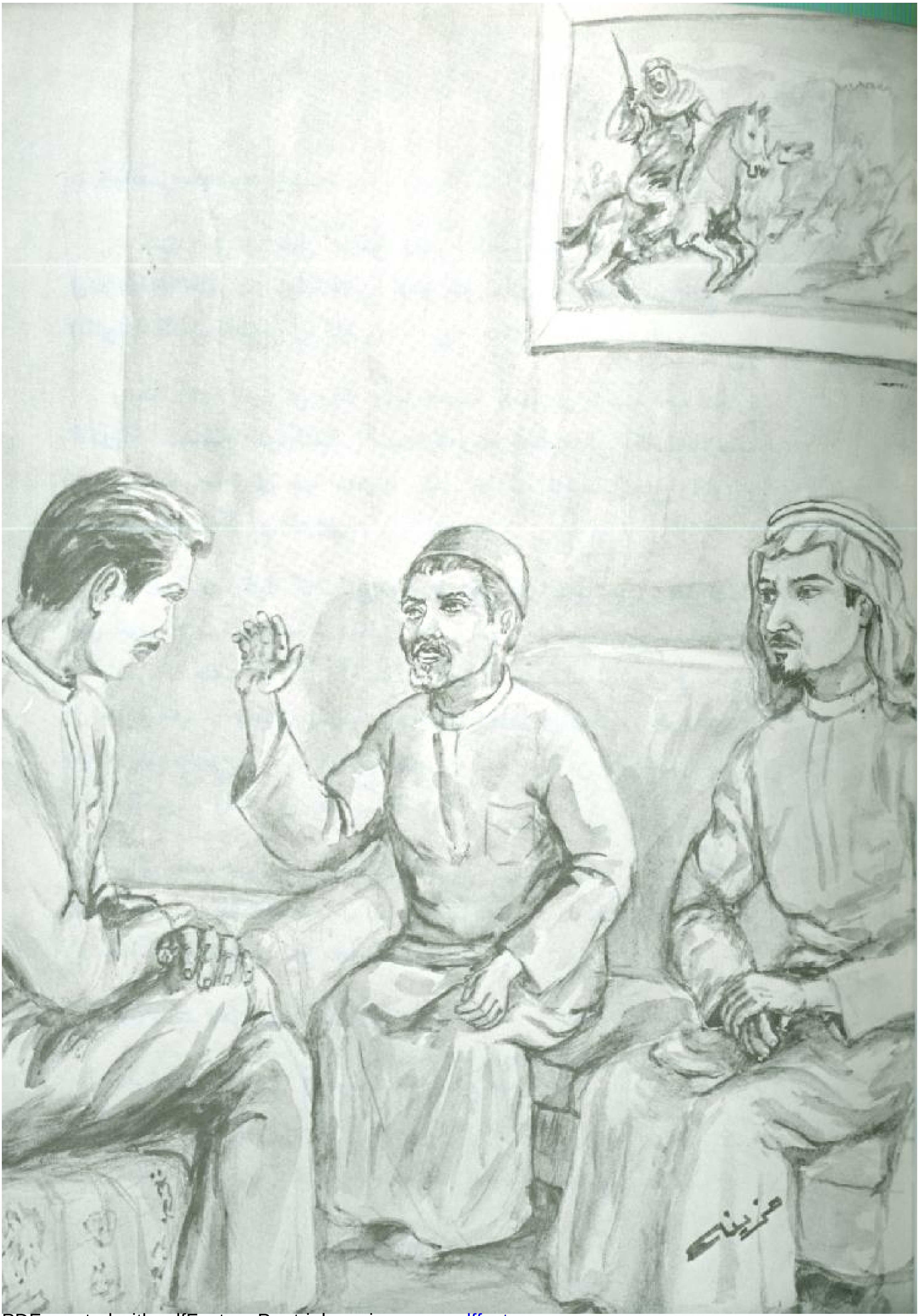

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وابتسم سعيد وهو يجيب :

– كنت اتمنى ان تقبل عرضي وتتفرغ للعمل معي . . ولكنك لم تترك لي فرصة للاختيار . . ولذا فانني اوافق على ذلك . . متمنيا ان تقتنع بعد مباشرتك للعمل بالتفرغ لي كليا . .

وهكذا اقتطع امين من وقته جانبا خصصه للعمل في مؤسسة اخيه لتجارة الادوية ، فاستطاع ان يكتشف بسرعة الطريقة الخاطئة التي كانت المؤسسة تدار بها ، لدرجة ابدى معها استغرابه كيف حققت المؤسسة النجاح والارباح وهي على تلك الحالة من الفوضى . . .

وخلال اسابيع قليلة كان كل شيء قد نظم على اتم ماينبغي ، فقد ضبط امين امور المؤسسة ووضع لها اساليب ادارية حديثة لم تخف على سعيد الذي بدأ يلمس ما حققه اخوه في المؤسسة ، وتبين ان مؤسساته الاخرى في حاجة إلى جهود اخيه ، وعقليته المنظمة ، واسلوبه الحاسم في العمل ، فعاد يجدّد عليه العرض بالتفرغ ، ويغريه بأن يخصص له نسبة جيدة من الارباح إلى جانب الراتب الكبير ، ولكن امين قال ببساطة :

– انني قانع بحياتي . . والمادة لاتغريني . . وما احصل عليه يكفيني ولله الحمد . . ولذا لااستطيع ان اتفرغ للعمل معك . . ولكنني على استعداد لان اقدم لك خدماتي في كل مجال استطيعه . .

وقال سعيد وهو يتنهد باستسلام :

– مرة اخرى تضعني في موقف لا استطيع معه اختيارا . . وانني لشاكر لك اي جهد تبذله في مؤسساتي الاخرى . .

• • •

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقف امين على الشرفة المطلة على البحر في منزل اخيه سعيد ، وكان يرى ابناءه وابناء اخيه وهم يلعبون في الحديقة وقد تعالت اصواتهم المرحة . .

وانتبه من استغراقه على صوت ولده « وجدي » ، فنظر إلى حيث مصدر الصوت ورأى « منى » ابنة اخيه وهي تقبض على كرتها بشدة بينما كان وجدي يحاول انتزاعها منها . .

وهبّ امين على الفور متوجها إلى الحديقة ليحل النزاع بين الطفلين ، وما ان رأياه حتى صاحت منى :

– عمي . . قل لوجدي ان يترك كرتي . .

– ولكنه ابن عمك . . وانتما تلعبان معا . . .

– انها كرتي . . ولا اريد ان يلعب بها احد غيري . .

وضحك امين وقال للصغيرة باسما :

– سوف اشتري لكما كرتين لتلعبا بهما معا . . واحدة لك . . وواحدة لابن عمك . . فماذا تقولين ؟ . .

ولكن الصغيرة ردت على الفور :

– يكفي ان تشتري كرة لابنك . . وتعلّمه كيلا يلعب بكرات الناس...

واستدارت الطفلة ، وجرت مبتعدة وهي تتأبط الكرة ، بينما وجدي يتابعها بنظراته في انكسار وقد تساقطت دموعه على خديه في صمت . .

وقال امين لولده بعطف :

– تبكي من اجل كرة ؟ . . غدا ان شاء الله اشتري لك كرة افضل . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن الطفل اجاب وهو يرخي عينيه إلى الأرض :

– هل لديك ثمنها يا ابي ؟ . . متى قالت لي انك فقير . . ولاتملك مالا كثيرا مثل ابيها . . ولايمكنك ان تشتري لي كرة . .

وذهل امين ، وشعر بكلام ولده ينفذ إلى قلبه كالسكين ، وروّعته مظاهر الذلة والانكسار التي بدت على وجه ولده ، فجذبه من يده واتجه به نحو سيارته ، وراح يقطع الطريق إلى البيت وقد تلاطمت امواج من الافكار في رأسه . .

* * *

لم تر مائدة زوجها من قبل كما رأته هذه الامسية ، وقد جلس مسترخيا على المقعد الطويل في الشرفة وعلى وجهه ، وهيئته ، معالم التفكير العميق . .

وابتسمت في صمت ، وعزمت على ان تعد الشاي لتشاركه جلسته ، فتسللت إلى المطبخ دون ان يشعر امين بها . .

كان امين يستعيد كلام ولده وجدي ، ومنظره ، وهو يتساءل عما إذا كان ابوه يملك ثمن كرة مثل كرة ابنة عمه سعيد ، الثري ، صاحب المال والاعمال ، والدور والمؤسسات ، ويتذكر اللهجة القاسية التي ردت بها ابنة اخيه عليه حين خاطبها وكأنها ابنته ظنا منه ان مابينها وبين ولده مجرد نزاع اطفال . .

لقد بدأ يرى الامور من زاوية اخرى ، لم يعتد ، ابدا ، على النظر منها . .

انه لايملك مالا كثيرا . . هذا صحيح . . ولكنه ، ولله الحمد ، يحصل على مايكفيه ، وهو راض به وقانع .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اتراه قليل الطموح ؟ فاتر الهمة . . . ؟ . . يؤثر حياة الدعة والكسل على الجد والاجتهاد ؟ . .

لا . . انه يعمل من الصباح الباكر حتى المساء ، دون ان يصيب سوى نزر يسير من الراحة ، فهو – اذن – مجد ومجتهد ومنتج ، ولكن على طريقته الخاصة . .

كل ما هناك ، قال لنفسه ، انه لايشعر في داخله بذلك الطمع الشره الذي يلهب حواس البعض ليحصلوا من المال مزيدا كلما حصلوا على مايزيد عن كفايتهم . .

انه ليس طماعا . . هذا هو كل ما هنالك . .

واذا كان غيره يجد المتعة في جمع المال وتكديسه ، فانه لايجد اية متعة في ذلك ، بل انه ليحسد نفسه على المتع التي يحس بها وهو منصرف إلى العناية بزهوره الزرقاء ، والاهتمام بالحديقة ، والجلوس إلى زوجته واولاده . .

الزهور الزرقاء ؟ . .

وما قيمة الزهور الزرقاء ؟ . .

وهل تستطيع ان تمسح تلك الدموع التي سالت من عيني ولده وجدي والتي لذعت قلبه كالنار ؟ . .

وما تفعله الزهور الزرقاء لكي تجعل ولده ينظر اليه ، والى نفسه ، بثقة واعتداد ، بدل ان يشعر بالذلة والانكسار لان عمه سعيد اغنى من ابيه ، ولانه قد عوّد ابناءه على الاعتزاز بما يملكه ابوهم من مال ، والاستخفاف بالآخرين الذين لايملكون مثلما يملك ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وانتبه من خواطره على اصابع مائدة وهي تعبث بشعره وتقول له بلهجة مداعبة :

ـ مابك ؟ . . وفيم تسرح بأفكارك حتى انك لم تبدل ملابسك منذ عودتك ؟ . .

ـ آسف . . شعرت بشيء من التعب فآثرت ان اجلس هنا قليلا . .

ـ لقد اعددت لك الشاي . . سآتي به لنجلس معا . .

ـ حسنا فعلت . . فان عندي حديثا طويلا . . طويلا . . اريد ان افضي به اليك . .

ونظرت اليه مائدة باستغراب ، فقد روّعتها مظاهر الجد والاهتمام التي بدت على وجهه ، والتي تنبيء ، قبل ان يتحدث ، بأن هناك شيئا خطيرا قد وقع . .

وقالت وهي تسرع إلى المطبخ :

ـ اعود حالا . .

وحين جلست امامه ، وصبّت الشاي ، قال لها امين بلهجة لم تعتد عليها من قبل :

ـ اسمعي يامائدة . . لقد قررت امرا ارجو ان يعينني الله عليه . .

* * *

لم يصدق سعيد اذنيه عندما سمع اخاه امين يقول له بلهجة متئدة وجادة :

ـ لقد جئت اخبرك بأنني قد قررت قبول عرضك بالعمل وقتا اطول . .

واشرق وجه رجل الاعمال بارتياح ولكنه لم يتمالك نفسه من القول :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ عجيب . . مرحبا بك بطبيعة الحال ولكن . . ما الذي جعلك تغيّر رأيك السابق ؟ . .

وهزّ امين كتفيه واجاب :

ـ لاشيء بالتحديد . . ولكنني وجدت ان فرص هذا النوع من العمل اكثر فائدة واسرع مردودا . .

فقال سعيد باسما :

ـ الم اقل لك ذلك منذ البداية ؟ . .

واجاب امين :

ـ انت تعرف طبيعتي . . عندما اهتم بموضوع فانني انصرف اليه بكل قواي . . وكان صعبا عليّ ان اقوم بعملي في المستشفى وفي عيادتي الخاصة ثم في مؤسستك . . ولذا فقد قررت ان اغلق العيادة . . وان احصل من رؤسائي على اذن بالعمل معك . . وارجو ان يوفقنا الله . .

وتراخى سعيد في مقعده بارتياح وقد بدا عليه ان ماسمعه من اخيه قد سرّه ولكنه قال وكأنه يخاطب نفسه بصوت مسموع :

ـ هذا شيء طيب . . هذا شيء طيب . . ولكنني دهش لتحولك المفاجىء هذا . .

ـ لا داعي للدهشة . . انني اتطلع إلى ان افيدك بشيء يبدو انك لم تجده لدى الآخرين من موظفيك . . ومن جهة اخرى اريد تحسين دخلي . .

ـ انت تعلم ان ما املكه هو ملكك ايضا . .

ـ شكرا يا اخي . . ولا اشك بذلك ابدا . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– يهمني الا يكون السبب هو مرورك في ضائقة . . فانني اخوك . .

– قلت لك من قبل .. انني اعتقد ان بامكاني ان افعل شيئا ما في المؤسسة ، لقد عرفت كل شيء تقريبا عن الوضع . . وهناك ايضا رغبتي في بناء فيللا اسكنها مع العائلة . . لقد ضاق بنا منزلنا الحالي و . . .

وقاطعه سعيد :

– كم مرة عرضت عليك ان ابني لك فيللا بجوار سكني ؟ . . ولكنك كنت ترفض باستمرار . .

وابتسم امين وهو يجيب :

– لايجوز لي ان اثقل عليك . . وعليّ ان اعمل لكي استحق تلك الفيللا بجدارة . .

وضحك الاخوان في سعادة ، وقد ساد الغرفة جو من الارتياح والمودة والتفاؤل . .

• • •

ومع ان سعيد كان يعرف عن امكانات اخيه الدكتور امين ومواهبه شيئا كثيرا ، الا أنه لم يكن يتصور ان يفوق مابدا منه كل ما كان يتوقعه . .

لقد انصرف امين إلى العمل بكل قواه وراح يعيد تنظيم المؤسسة الرئيسية والمؤسسات المتفرعة عنها ، ويتابع دقائق العمل وتفاصيله ، ويوزع المسئوليات على الموظفين بطريقة جديدة ، ويتفانى في ذلك وكأنه صاحب المؤسسة ومالكها ..

ومضت سنوات . . اضطر امين خلالها للتفرغ كليا للمؤسسة . .

وشيئا فشيئا صار يبكر في الذهاب إلى مكتبه في المؤسسة لكي يتمكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من متابعة العمل وفق الاسلوب الذي وضعه له ، فكان عليه ان يدرس كل شيء ويوجه نشاطات المؤسسة لدرجة جعلت سعيد يرى فيه سندا قويا ، فلم يلبث ان ازداد اعتماده على اخيه اكثر فأكثر ، حتى بات امين هو القلب النابض للمؤسسة . .

كان امين يزداد استغراقا في العمل كلما ازدادت مسئولياته ، وكان — في الوقت ذاته — يحاول عبثا ان ينسى الحديث الذي دار بينه وبين زوجته يوم ان انبأها بعزمه على كسب المزيد من المال وعلى بناء فيللا وتحسين مستوى معيشتهما . .

يومها قطّبت مائدة في دهشة ، ثم اطلقت ضحكة مرحة ، فقد حسبت ان زوجها يمازحها محاولا ان يقلد اخاه ، رجل الاعمال ، في حديثه . .

ولكنها تبينت ، ويالالدهشة ، ان الرجل كان يتحدث بجدية واقتناع ، وان الفكرة قد ملكت ذهنه كله . .

وقالت مائدة ، يومذاك ، بهدوء تام :

— اسمع يا امين . . إنني لا اجد علاقة على الاطلاق بين كلام منى وبين رغبتك في زيادة دخلك . . فهي طفلة قد قالت كلامها ببراءة لاتحتمل كل هذا التأويل . .

— ولكن هذه الحادثة قد نبهتني إلى امر كان غائبا عني . .

— لا اظن . . ولكن يبدو ان كلام منى ووجدي قد صادفا هوى في نفسك لانك كنت تشعر برغبة في ان تعمل وتزيد دخلك وتصبح رجل اعمال . .

— وهل هذا خطأ ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– انك تعرف رأيي في الموضوع . . فانا سعيدة بحياتنا واستقرارنا . . واتطلع معك إلى تحسين دخلنا . . ولكنني اكره ان تتحول إلى آلة تصنع دخلا لانستطيع الاستمتاع به . . وربما اشقانا . .

– انت متشائمة . .

– لست متشائمة . . ولكنني واقعية . . انظر إلى اخيك سعيد . . انه خير من تعمل معه . . فهو انسان نبيل . . وناجح . . ويحبك كثيرا . . ولكني اخشى ان يصيبك ما اصابه . .

– ماذا تعنين ؟ . .

– اعني كثرة مشاغله التي شغلته حتى عن ابنائه واهله . . والسعادة ليست في ان يصرف عليهم بسخاء . . لان المال ليس هو المصدر الاساسي للسعادة . .

– ها قد عدت إلى فلسفتك . .

– تعني واقعيتي . .

– دعينا من التشاؤم . . لقد قررت . . وسأنفذ ماقررته . .

– انني اكره ان اعترض على رأي لك . . ولكنني انصحك بالحذر . . حتى لانتورط في مشكلة يهون المال ازاءها . . اننا كما ترى ، والحمدلله ، في خير ونعمة . . ولو اجتهدت قليلا في عملك بالعيادة لكان هذا كافيا . .

– اؤكد لك انه لو كانت هناك مسابقة في القناعة لكنت الفائزة الاولى . .

– لم لا ؟ . . الحمد لله . . القناعة كنز لايفنى . .

– وما هو مفهوم القناعة في نظرك ؟ . .

– القناعة ؟ . . انها سعادة الانسان مع ابنائه . . انها اشباع لرغبة ابنائه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العاطفية . . ان اتجاهك إلى التكالب على جمع المادة سوف يزرع في نفوس ابنائك حب المادة بدل ان تزرع في نفوسهم حب الوطن . .

– وما شأن الوطن فيما نحن فيه ؟ . .

– كل الشأن . . فحب الوطن يبدأ من حب البيت . . والابوين . . . وحين تعود ابناءك على حب المادة تثريهم في المال وتفقرهم في العاطفة . . الم تلاحظ كيف يتجه بعض الناس إلى خارج الوطن بمجرد حلول العطلة الصيفية وكأن اقامتهم في الوطن مؤقتة ؟ . .

– لقد دوّختني بفلسفتك . .

– انها ليست فلسفة . . وانما هي تقرير امر واقع . . وانا معك في كل شيء . . وان كنت احب ان اعرب عن رأيي . .

– لقد بدأت الامور تختلط عليك . .

– ماذا تعني ؟ . .

– اعني انك تتكلمين عن معان غير مترابطة . .

– كيف ؟ . .

– حدّثتني عن القناعة . . ثم حاولت الربط بينها وبين الاولاد وحب الوطن . . وفجأة اراك تتكلمين عن سفر الناس إلى الخارج . . ما هذا ؟ . .

– آسفة . . ربما لم احسن التعبير يا امين . . سامحني . . ولكنني اردت ان اوضح لك اهمية قناعة الانسان برزقه المقسوم . . والسعي إلى الاستفادة من اوقاته لكي يعيش هو وعائلته في هدوء وسلام وسكينة . .

– وكيف يعرف الانسان رزقه وهو امر علمه عند الله ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– ارجوك لاتقاطعني . . دعني اكمل . .

– اريد جوابا على سؤالي . .

– لابأس . . سوف اجيبك . . انت تعمل . . وكل انسان يعمل وله دخل ورزق مكتوب وعليه ان يقنع بما قسم الله له . .

– تعنين ان يتواكل ويخلد إلى الكسل ؟ . .

– لا . . لايا امين . . بل اعني ان يقنع برزقه ويعمل على تحسين دخله بطريقة منطقية وبدون ان يلجأ إلى الشراهة والجشع . . فالمال بحد ذاته ليس غاية . . ولكنه وسيلة لتحقيق اهداف الانسان . . بل ربما بعض اهدافه . . لا كلها . . فمن الضروري ان تملك المال . . لا ان يملكك المال . .

– وماذا عن حب الوطن ؟ . .

– انك تسخر مني . . ولكنني سأجيبك . . كنت اقصد ان اقول ان الانسان اذا انشغل بجمع المال وملك عليه ذلك حياته . . حال دون اهتمامه بتربية ابنائه والعناية بهم . . وبالتالي ضعفت العلاقة بينه وبينهم . . واذا ماضعفت العلاقة هذه نشأت الاسرة مفككة . . وضعفت الروابط فيما بينها . .

– حتى الآن لم تذكري لي ما هي علاقة كل ذلك بحب الوطن . .

– عندما تنشأ العائلة مفككة . . فمن الصعب ان نتوقع فيها ارتباط الابناء بعائلتهم ، كما ذكرت ، ومن ثم بوطنهم . .

– انك تذهبين بعيدا . . وتبالغين في التشاؤم . . ماعهدت ذلك فيك . .

– عليك ان تتذكر ان الاطفال كانوا ، في الماضي ، ملتصقين بعائلتهم . . يتلقون توجيهاتهم من اهلهم ويجدون فيهم القدوة الحسنة . . واذا افتقدوها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجدوها في المدرسة . . او في الحي . . او في المجتمع . . ولكن اختلاطنا بالاغراب والاجانب وما عكسه ذلك من مفاهيم لم نكن نعرفها جعل الامر اكثر حساسية واهمية . . لقد ازدادت مسئوليات العائلات تجاه ابنائها . . ولابد من تفرغ الناس ولو بعض الشيء لشئون ابنائهم . .

— اوافقك ، ياماثدة ، في بعض ماذكرت . . ولكنني اؤكد لك انني لا ازمع ترك البيت . . او التخلي عن الاولاد . . لاقدّر الله . .

— ارجو ذلك . . ولقد كنت ابدى رأيي لك . . واحذرك من مخاطر الطريق الذي تنوي السير فيه . . اما اذا ظللت على عزمك فانني معك ان شاء الله . .

— بارك الله فيك ياماثدة . . هذا ما كنت اتوقعه منك . . وبالمناسبة . . عندي سؤال . . وارجو الا تغضبي مني . .

— اغضب منك ؟ . . اعوذ بالله . . انني احبك . . واحب المناقشة معك . .

— لم اقصد ذلك . . ولكنني اريدك الا تظني انني اسخر منك ثانية . .

— انني مصغية . .

— اريدك ان توضحي لي نقطة تبدو لي غامضة في حديثك . . وهي عن علاقة سفر الناس إلى الخارج بالوطنية حسب رأيك . .

— آه . . ارجوك ان تفهمني . . لقد ذكرت ذلك كمثال فقط . . لانني اعتقد ان سفر المواطنين بالآلاف إلى الخارج بمجرد حلول العطلة ظاهرة تدعو للاسف . . فالمفروض هو ارتباط ابنائهم بوطنهم . . واشعارهم بأنهم جزء من الوطن . . ولو تجول الناس داخل بلادهم . . وعرّفوا الجيل الذي سوف يحمل مسئولية المستقبل في وطنه بهذا الوصف لكان ذلك افضل . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– الا ترين ان من الصعب ان نطلب من الناس قضاء العطلة الصيفية في بلادهم لكي يكونوا « مواطنين » حسب رأيك .. ان الوطنية والمواطنين اكبر بكثير من هذا . . واعمق بكثير من هذا . .

– انا اوافقك . . واردت فقط ان اسجّل ان سفر المواطنين هذا هو ظاهرة غير صحية . .

– ربما . . على كل حال . . فهذا موضوع طويل ومتشعب . . واريد الآن ان اعرف رأيك في القرار الذي اتخذته . .

– بعد هذا الحديث كله تسألني رأيي ؟ . .

– اريد جوابا مباشرا . .

– كل ما اتمناه هو الا تندفع في هذا الطريق . . وان تبقى معنا . . وان تظل ، كما عهدتك ، رجل البيت . .

وفي هذه اللحظة دخل وجدي واتجه بسرعة نحو ابيه وارتمى في احضانه وهو يقول :

– بابا . . بابا . . خذني إلى مدينة الالعاب . .

وابتسم الاب وهو يحتضنه في حنان قائلا :

– حاضر . . حاضر ياحبيبي . . ولكنني اريد ان اكلفك بمهمة . .

وتطلع الطفل إلى ابيه متسائلا فقال هذا :

– اريدك ان تحمي الزهور من اختك مها . .

فنهضت مائدة واتجهت إلى الداخل وهي تقول :

– ولكن من يحمي الزهور منك ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ مني انا ؟ . . ها قد عدت إلى فلسفتك . .

* * *

كان سعيد يغبط نفسه على ان امين قد اقتنع بالعمل معه والتفرغ له ، فلقد كان واضحا ان امين موهوب في هذا النوع من الاعمال ، وان اتفاقه مع اخيه قد عاد على الاثنين بالارباح الوفيرة ، فقد اصبح العمل يسير في مثل دقة الساعة ، وراح امين يبتكر افكارا جديدة . . ويفتح آفاقا جديدة . . ويخوض كل ميدان يمكن ان يحقق لمؤسسات اخيه ارباحا اضافية . .

وانهال العمل على امين . . وباتت متعته الكبرى هي ان يتأمل كشوف حساباته في البنوك . . وان يرقب تصاعد ثروته إلى ارقام لم يكن يحلم بها في يوم من الايام . .

وبطبيعة الحال ، استغرق العمل وقت امين كله ، كما توقعت مائدة ، واخذ يكرّس وقته وجهده لعمله الجديد ، بل ان اوقات حضوره إلى البيت قد اضطربت واختلفت ، شيئا فشيئا ، فما عاد يعرف لنفسه مواعيد محددة . .

ومع ان حديثه ذاك مع زوجته لم يغب عن باله ـ وكان يشعر بقشعريرة باردة كلما لاحظ ان ماتوقعته مائدة قد حدث ـ فانه لم يتوقف عما هو فيه . . كان يريد ان يصل إلى يوم يقتنع فيه ولده وجدي بأن اباه لايقل ثراء عن والد مي . . وان يزيل من نفسه ذلك الانكسار الذي انتابه ذلك اليوم الذي كان نقطة تحول في حياة ابيه .

* * *

دخل امين إلى المنزل ، واستقبله الحارس عند بوابة الفيلا الخارجية واجاب على سؤاله ان الاولاد جميعا في المنزل . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واندفع امين بسيارته واوقفها في ساحة الفيللا مسرعا ، فقد تأخر كثيرا عن موعد الغداء . .

وما ان دلف إلى الصالة الداخلية حتى فوجىء بمنظر منضدة الطعام وعليها بقاياه . . والى جانب المنضدة جلست مائدة وحيدة متكئة على ذراعيها . .

وتقدم نحوها محييا . . ولكنه لم يلبث ان توقف وهو ينظر اليها بدهشة . .

كان يبدو عليها انها متعبة . . بل مريضة . . بصورة لم يلاحظها عليها من قبل . .

ووضع يده على جبينها وسأل بلهفة :

ـ ميمو . . مابك ؟ . . لم تبدين شاحبة هكذا ؟ . . هل تشكين من شيء في رأسك ؟ . . سآتيك ببعض الحبوب . .

وتحرك إلى الداخل بسرعة يريد ان يحضر لها الدواء ولكنها قالت :

ـ تعال يا امين . . اجلس . . انني اشكو من قلبي . . لامن رأسي . .

فهتف بذعر :

ـ قلبك ؟ . . صلّ على رسول الله . .

ـ اللهم صل وسلم وبارك عليه . . تعال . . اجلس . . الحمد لله على انك قد انتبهت اخيرا إلى حالتي . .

وجلس امين مشدوها ازاء مالاحظه في لهجتها من برود والم . .

وتكلمت مائدة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لقد حاولت ، مرات عديدة ، ان أشرح لك حالتي ولكنني لم اتمكن . . لانني لم اكن اجدك . . حتى ابناؤك اصبحوا بحاجة إلى اب . .

ـ ما هذا القول ؟ . .

ـ ارجوك . . اسمعني . . فان هذه الفرصة قد لاتأتي مرة اخرى . . الا بعد وقت لايدري موعده سوى الله تعالى . . كنت اقول لك ان الاولاد ، وانا ايضا ، في حاجة الى اب . . إلى رجل يرعى المنزل . .

ـ انني موجود . . ولكنني . . ولكنني مشغول بعض الشيء . . أنت تعرفين لماذا . . انه . . انه العمل . .

ـ العمل . . اجل . . العمل . . من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر . . العمل والمال . . وما يعنيه من رفاهية ورغد عيش . . لقد اصبحنا نسكن في فيلا كبيرة . . ولنا مساكن عديدة . . في الرياض والطائف واوربا . . ولكن هذا لا يهمني . . ولايهم اولادك . . لقد اصبحنا كالايتام يا امين . . ولاهم لنا الا ان ننتظر عودتك . . واليوم هو الجمعة . . ومع هذا تأتي إلى الغداء في العصر . . لقد انكسرت نفوس الاولاد يا امين . . ولم يعودوا يقتنعون بالحجج التي احاول بها ان ابرر غيابك . . لانني ، انا نفسي غير مقتنعة بها . .

ـ انا آسف ياميمو . . ولكنك تعلمين . . انني احاول اسعادكم . . . ومتابعة اعمالي مع اخي في الوقت نفسه . . انا ، ايضا ، متعب . . فلا تظني انني سعيد بذلك . .

ـ آه . . لقد قلتها انت يا امين . . لست سعيدا . . هل تذكر حديثنا قبل سنوات ؟ . . الم اتوقع ذلك لك ولنا ؟ . .

ـ ولكنك تعلمين الدوافع . . انني اريد لاولادي ان ينشأوا سعداء . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– سعادتنا هي في ان نراك يابابا . . وان نشعر بحنانك مثل اولاد الناس ..

كانت العبارة صادرة عن وجدي الذي اقترب دون ان يشعر به الاثنان اللذان راحا ينظران اليه بدهشة وذهول . .

وادركت مائدة اثر تلك الجملة في نفس امين . . فقالت للغلام بلهجة قاسية :

– الم اقل لك قبلا انه لايجوز لك ان تتدخل في احاديث الكبار ؟ . .

ورد الغلام بسذاجة :

– لقد قلت في نفسي انها فرصة اخاطب فيها ابي بعد ان رأيته هنا . . .

– اذهب إلى غرفتك . .

وانسحب وجدي ولكن اثر جملته فعل فعله في المكان . .

ونهض امين متثاقلا ، وتوجه إلى الصالون المطل على الحديقة ، وتهالك على مقعد وهو يفكر . .

ها هو وجدي . . وجدي نفسه . . يؤلمه مرة اخرى بعبارة ساذجة ينطق بها بعفوية الطفولة ، ولكن شتان ما بين مناسبة العبارة الاولى ، ومناسبة العبارة الثانية . .

وعاد حديثه مع زوجته ، يوم حادثة العبارة الاولى ، يتردد في ذهنه بالكلمة والحرف والجملة حين حذّرته مائدة من الاندفاع في طريق يبتعد به عن « القناعة » ويجعل منه آلة تصنع المال . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفيما هو يسائل نفسه ، حائرا ، عما اذا كان قد اصاب او اخطأ ، انتبه إلى يدين رقيقتين تلتفان حول عنقه ، فالتفت ليجد وجدي يسند رأسه إلى كتفه وهو يبكي في صمت ويقول :

– ارجوك ان تسامحني يابابا . .

وقبل ان يجيب ، فوجىء بمرأى اولاده جميعا . . مها . . ورجاء . . . وصلاح . . يلتفون حوله ، ويجلسون إلى جانبه على المقعد وقد ومضت السعادة في عيونهم فرحا بلقاء ابيهم ، وقدرتهم على الجلوس معه ، والحديث اليه . .

واقبل عليهم ، يقبّلهم ويداعبهم . . وقد نسي كل شيء عداهم . .

وجاءت مائدة ، فطلبت إلى الاولاد ان يذهبوا إلى غرفهم ، فأطاعوا وانظارهم معلقة بأبيهم . .

وقالت الزوجة :

– هل تريد ان آتيك بالطعام إلى هنا ؟ . .

– لا اشعر برغبة في الطعام . .

– ولكنك لم تأكل شيئا . .

– ارجوك . . لا اريد طعاما . .

– آتيك بالشاى اذن . .

– لابأس . .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مضت ساعة او اثنتان ، والاثنان يتحدثان ، وكل منهما يحاول ان يشرح وجهة نظره ويدافع عنها ، وفجأة قطع امين حديثه وقطب جبينه وقال :

— ماهذا ؟ . . يبدو ان الزهور عطشى . .

واتجهت مائدة بنظرها إلى حيث كان ينظر . .

كان هناك الحوض الكبير الذي حرص على نقله إلى الفيللا عندما انتقل من مسكنه السابق ، وكان ، بادىء الامر ، يجد وقتا كافيا لكي يتعهده بشيء من العناية والرعاية . .

ونهض ببطء ، واتجه إلى الحوض ، وراح يتلمس زهوره الزرقاء التي كانت قد ذبلت وجفّت حتى تصلبت وراحت تتكسر بين اصابعه من لمسة واحـــدة . .

وجاءه ، من الماضي ، صوت زملائه وهم يعابثونه ويداعبونه لما عرفوا عنه من حبه للزهور الزرقاء ، ونظر إلى الحوض ، بزهوره الميتة ، بذهول ، والتفت إلى مائدة قائلا وكأنه ينعى اليها شخصا عزيزا :

— مائدة . . لقد جفت الزهور . .

كان صوته شبه مبحوح ، وقد انكره ، هو نفسه ، عندما سمعه . .

وجاءه صوت مائدة وهي تقول له بمرارة وقد حملت صينية الشاي متجهة إلى الداخل وقد التفتت اليه نصف التفاته كأنها تجد عناء في التفاتتها :

— وهل هذا هو الشيء الوحيد الذي جفّ في حياتنا يا . . دكتور ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

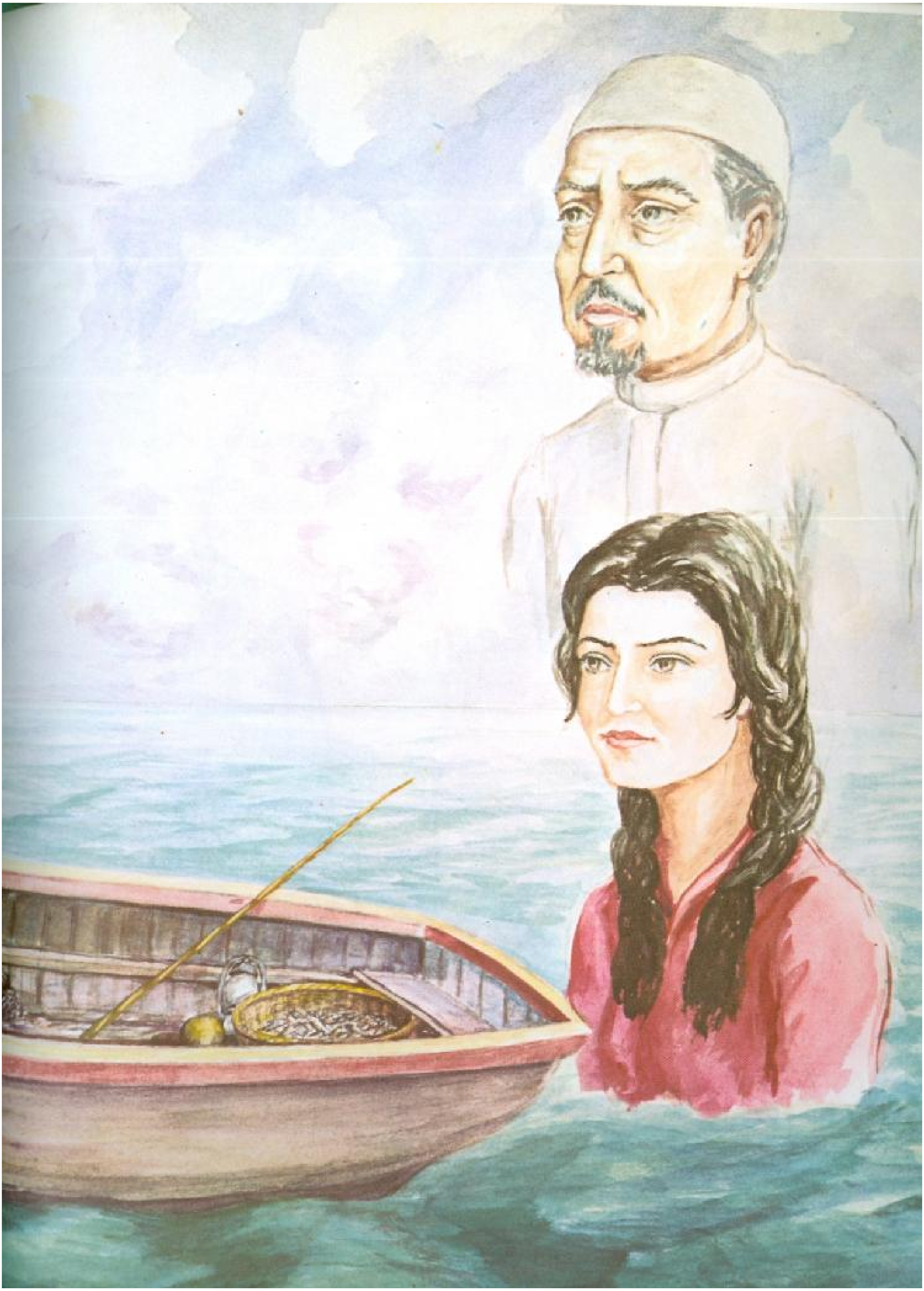

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

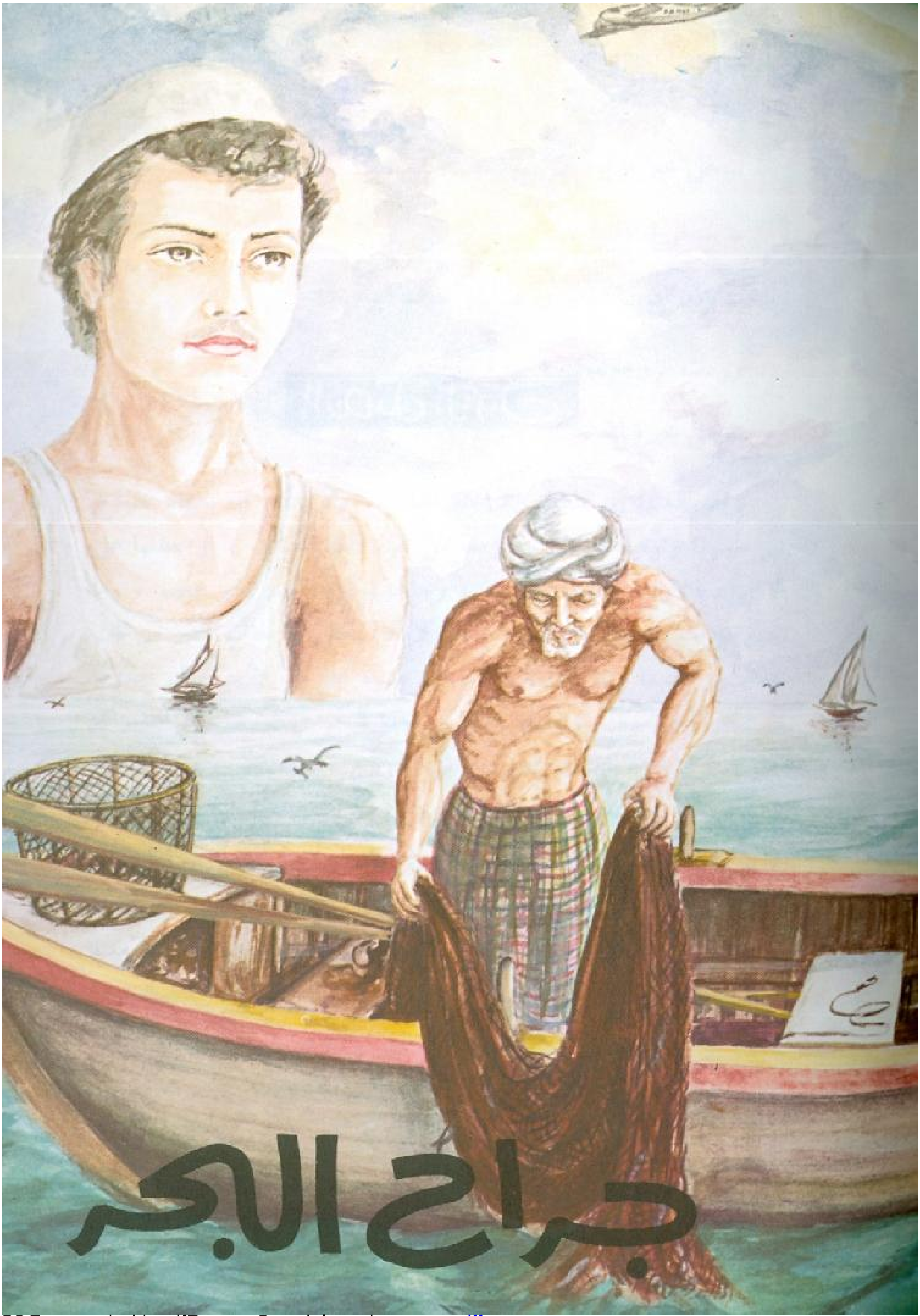

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول

نهض الشيخ حامد الدخش ، بعد ان انهى صلاته ، وهو يتمتم — كعادته — بالادعية في صوت خافت . . ثم وقف امام النافذة ، ونظر إلى السماء نظرة متفحصة ، واتجه ببصره إلى البحر الذي بدا له ، على البعد ، هادئا ساكنا ، تلتمع على صفحته انوار النهار الجديد الذي اوشكت شمسه على الشروق . . وتنهد الدخش ، وقال مخاطبا نفسه بصوت خافت وبلهجة من عزم على امر :

— على خيرة الله . .

واتاه من ورائه صوت زوجته التي كانت قد دخلت حاملة طعام الافطار :

— هه . . كيف حالة البحر اليوم ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ على خير ما يرام . .

ـ ستخرج اذن ؟ . .

ـ باذن الله . . يبدو لي ان الجو ملائم اليوم . .

وردت الزوجة مكررة عبارة زوجها :

ـ على خيرة الله . .

وقفز ذهنها إلى المطالب العاجلة للعائلة ، وما يمكن ان يحققه خروج ابو حسونة وتوفيقه في رحلته المزمعة من تلبية لتلك المطالب ، او بعضها على الاقل ، فالاولاد يكبرون بسرعة ، وحاجاتهم ومطالبهم تكبر معهم ، وما يجنيه ابو حسونه من مهنته الشاقة هذه ، لايكاد يكفي الا لجانب يسير من تلك المطالب ، لاسيما وانه كانت قد مضت عشرة ايام منذ ان خرج أبو حسونة إلى البحر آخر مرة ، وبعدها اضطرب هذا البحر في ثورة عاتية استمرت كل تلك الايام ، فمنعت الصيادين من الخروج ، وجعلتهم يترقبون هدوءه وهم يلقون عليه من وراء منازلهم المتواضعة ، نظرات متلهفة يلتمع فيها الرجاء بأن يعود اليه هدوؤه ، ليخرجوا اليه في سعيهم وراء رزقهم الذي لايعرفون له مصدرا غير هذا البحر . .

والتهم الدخش طعامه اليسير بسرعة كعادته ، ثم نهض وهو يحمد الله ، وبدأ يستعد للخروج بعد ان القى نظرة حانية على اولاده النائمين ، وتركزت نظراته على ولده الاكبر حسونة ، الذي كان في السادسة عشرة من عمره ، والذي كان ابوه يستعذب حياته الصعبة القاسية من اجل ان يهيء له اسباب الحياة اللائقة ، قدر الامكان ، لمواصلة دراسته التي كان يحقق فيها ، سنة بعد سنة ، نجاحا مرموقا . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتنهد الدخش . . وهو يحس بقوة عظيمة تجتاح كيانه ، فقد كانت اسرته – والبحر – كل دنياه ، فما يعرف لنفسه دنيا غيرهما ، وكل ما كان ينتابه من التعب والنصب اثر كل رحلة في عرض البحر ، يزول في مثل لمح البصر عندما يلج بيته ، الذي لم يكن يبعد عن الشاطىء كثيرا ، وينظر إلى اسرته الصغيرة وهي تتطلع إلى ما بين يديه في لهفة ، لتحكم على مدى توفيقه في رحلته بمقدار وحجم ما يحمل ونوعيته ...

والقى الدخش التحية على زوجته وهو يمضي إلى الباب مودعا بدعائها الحار وتمنياتها الطيبة وقد اصطرعت في رأسه شتى الآمال والآلام . .

كم مرة قطع الدخش هذا الطريق ما بين المسكن والبحر ؟ . .

انه لايدري . . ولكنه لايتذكر انه خرج في مثل هذا الوقت المبكر الا وكان البحر وجهته ومبتغاه . .

ذلك ان البحر قد امتزج بحياته امتزاجا كليا ، كما هو الشأن لدى جميع زملائه الصيادين ، ليس في جدة وحدها ، وانما في اي مكان من العالم . .

انه امتزاج تتداخل فيه المحبة بالرهبة ، والاطمئنان مع الخوف ، والأمل مع اليأس . . فالصياد يحب البحر بقدر مايرهبه ، ويطمئن اليه بقدر ما يخاف منه ، ويعلق عليه الآمال بقدر ما يتوقع منه الخيبة والخذلان . .

ورغم هذا ، فالدخش لم يفكر ، قط ، في ان يتحول عن مهنة الصيد هذه إلى اية مهنة اخرى ، كالنجارة او الحدادة ، ولاخطر له ان يستبدلها بأن يعمل حمّارا او حمّالا ، وذلك شأن كل زملائه الصيادين . . اذ لم يكن احدهم يأنس إلى مكان غير شاطىء البحر تارة ، وقاع المركب المتأرجح على صفحة المياه تارة اخرى ، وحتى في اشد الحالات مدعاة لليأس ، تراهم يبحثون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن مخرج مما هم فيه ، ولكن دون ان يخطر ببال احدهم ان يترك حياة البحر او ان يهجره . .

ان استبدال الصيد بأية مهنة اخرى لهو امر يخجل اي صياد من ان يفعله . .

ووصل الدخش إلى الشاطىء ليجد بعضا من زملائه قد سبقوه . . الدرمحي والعود . . وحسوبة . . وسواهم . .

كانوا منهمكين في حديث لو استمع اليه احد سواهم لما فهم منه — اغلب الظن — شيئا ، فهم يستخدمون كلمات وتعابير واصطلاحات تكاد تكون لغة خاصة قائمة بذاتها لايستطيع غير اهل البحر ان يفهموها ، فيتخاطبون بها بسرعة ويتبادلون كلماتها وعباراتها وهم مطمئنون إلى ان احدا سواهم لايفهم مايقولون .

ورحب الزملاء بالدخش ، وردوا تحيته في مودة ، واشركوه في الحديث الذي كانوا منهمكين فيه ، والذي كان يدور حول افضل مكان يمكن لهم العودة منه بصيد وفير ، واخطر مكان ينبغي عليهم عدم الاقتراب منه هذا اليوم . .

قال احدهم ان من الافضل عدم الذهاب إلى « القطع » . .

ونصحه آخر بأن يذهب إلى « عرق المجرى » . .

وابدى الدخش رأيه على ضوء ما رآه من حالة البحر ، ومن واقع خبرته الطويلة في شئونه وشجونه . .

وعاد النقاش يحتدم من جديد في الوقت الذي كان الصيادون يعدون فيه عدتهم للصيد ، والخروج إلى المواقع التي عزم كل منهم على ان يخرج اليها . .
وجمع الدخش « اللعف » وراح يرتبه بعناية . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و « اللعف » هو الطعم الذي يستخدمه الصيادون في اجتذاب الاسماك الكبيرة ، وهو عبارة عن اسماك صغيرة تجمع بالشباك قرب شاطىء الخور ، وتثبت في « الجالب » وهو قطعة من السلك المعقوف مربوطة إلى خيط متين مفتول تلقى في الماء لتقبل عليها الاسماك الكبيرة ، حتى اذا ماعلقت به ، اهتزّ الخيط ، فيعرف الصياد ان رزقه قد جاء . .

وانهى الدخش استعداداته ، فركب زورقه ومضى يجدّف متجها إلى البقعة التي اختار ان يصيد فيها هذا اليوم . .

ومع كل ضربة من ضربات المجذاف ، كان الدخش يشعر بأثر السنين الطويلة على قوة ذراعيه ، المفتولتين لكثرة ماجدّف طوال حياته ، فقد بدآ يفقدان كثيرا من قوتهما ، واصبحت حركاتهما اقل قدرة ولكنها تدل — على اية حال — على اصالة « الصنعة » لدى هذا الصياد القديم . .

ولم يكترث الدخش للتعب الذي سرعان ماسرى إلى ذراعيه ، بعد ان قطع جانبا من المسافة التي تفصله عن المكان الذي عزم على التوجه اليه ، فهو قد اعتاد هذا التعب حتى الفه ، وما كان بوسعه ان يفعل غير ذلك ، اذ لاخيار له في الامر ، وعليه ان يواصل التجذيف بدون توقف ، مهما تباطأت حركته ، ومهما وهنت قوته ، فلقد خلّف في البيت اربعة افواه تعيش من جني كده وجهده وعرقه ، وعليه ان يتشدد ، وان يقوي من عزيمته ، وان يلهب ارادته . . وان يواصل التجذيف املا في ان يعود إلى اهله ، ان شاء الله ، بربح مجز من صيده المأمول .

كذلك لم يكترث الدخش لاشعة الشمس التي اكتمل شروقها ، فراحت ترسل اشعتها اللاهبة على جسده الذي كان عاريا من اعلاه ، فالتمعت حبّات العرق عليه ، وسالت في خيوط على صفحة وجهه لتغيب في لحيته البيضاء . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا كله كان مما اعتاد الدخش عليه والفه ، فهو من طبيعة الحياة القاسية التي عاشها ، ويعيشها ، والتي لايعرف ، ولايريد ان يعرف ، لنفسه حياة سواها . .

واجال الدخش بصره في ارجاء البحر الذي كان سطحه يلمع كَذَوْب الفضة ، واجتاحه – تلك اللحظة – ذلك الشعور الجارف بحب هذا الصديق الرهيب . .

اجل . . انه يحب البحر ، فهو صديقه ، وعشير عمره ، ومصدر رزقه ورزق عياله . .

صحيح انه قُلّب لايستقر على حال ، فمرة يجود حتى يعود الصيادون بوفير الصيد الذي يتحول إلى مال كثير يلبون به مطالب عيالهم ، ومرة يبخل حتى يعودوا ، احيانا ، صفر الايدي او يكادون . .

مرة يهدأ ، حتى لكأن سطحه فراش ناعم منبسط من القطن المندوف . .

واخرى يثور ويزمجر ، ويتلاعب بالزوارق الخشبية الصغيرة كما يتلاعب الهواء بريشة تائهة في الفضاء . .

انه – هذا البحر – صديق اليف احيانا . . ووحش مفترس احيانا اخرى . .

انه – هذا البحر – غريب الاطوار ، لايستقر على حال ، ولايمكن حتى لاصدقائه الصيادين ان يطمئنوا اليه ، فهو اذا انقلب عليهم جرّحهم ، وادماهم وتسبب – بعض المرات – في كوارث تصيبهم في اجسادهم وارواحهم . .

ورغم هذا ، فان الدخش ، وزملاءه جميعا ، يحبون هذا الصديق ، ويغرمون بهذا الوحش ، ولايرضون عن رفقته بديلا ابدا . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وراح الدخش يجدّف ويجدّف ، وهو يلقي بالتحية ، بصوت عال ، لزميل على الخور ، او يلوّح بذراعه لزميل آخر مضى يجدّف مثله وهو يوجه زورقه إلى حيث يأمل ان يجد موفور الصيد . .

ورغم ما كان فيه من تعب ونصب وحرّ ، كان يتزايد كلما ارتفعت الشمس في كبد السماء ، حتى يكاد يكتم انفاس الصياد العجوز ، فقد ملأ الدخش صدره بالهواء ، ورفع صوته الاجش بالغناء .

وياله من غناء .. ذاك الذي اعتاد رجال البحر من صيادين وغواصين وبحارة على ان يطلقوا عقائرهم به وسط اصعب ظروف يمكن ان يعيشها انسان . .

انه غناء يصدر من اعماق القلب ، في لحن شجي ، وكلمات حزينة ، وايقاع بطيء ، يؤديه رجل البحر وهو يقوم بحركاته الرتيبة ، ممسكا بمجذافه او ذاهبا في رحلة غوص ، او مسافرا على ظهر مركب بضائع ، فيحس بأن التعب قد زايله ، وان الهموم قد انجلت عن قلبه ، وان كل شيء ، مهما كان صعبا ومرهقا ، يمكن احتماله . .

في اناشيد البحر هـذه ، يسجل رجال البحر مشاعرهم واحاسيسهم وعواطفهم ، ويصوّرون آمالهم وآلامهم ، ويروون حكاياتهم واساطيرهم في كلمات معبّرة ، ونبرات صادقة ، تخرج بلحنها الفريد ذاك فيكاد السامع ان يستنشق هواء البحر ، وان يرى عرق الكفاح وهو يلتمع على الاجساد المنهكة ، وان يجدّف معهم إلى عرض البحر ، صيادا ، او يهبط معهم إلى الاعماق ، غواصا ، او يشق معهم العباب بحّارا . .

ومضى الدخش يجدّف ويجدّف . .

وظل في نفس الوقت يغني ويغني . . .

• • •

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفجأة توقف عن الغناء ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة سعيدة . .

لقد ظهر « ابو سلامة » . .

وظهور ابو سلامة يعني – بالنسبة للصيادين – ان المنطقة خالية من اسماك القرش المفترسة . .

و « ابو سلامة » هذا ، هو سمك « الدلفين » الظريف ، الوديع ، المرح ...

وما يدري احد من الذي اطلق على الدلفين ذلك الاسم الغريب ، ولكن الصيادين ، هناك ، لايعرفون له اسما غيره . .

وهم يتفاءلون به كثيرا ، لانه عدو لدود لسمك القرش الذي يهرب دائما من المناطق التي يوجد فيها ابو سلامة . .

واذا ما اطمأن الصياد إلى ان البقعة خالية من سمك القرش ، كان معنى ذلك ان بوسعه ان يجد شيئا يصطاده ، كما ان بوسعه ان يطمئن إلى ان سمك القرش الرهيب لن يشاركه صيده ، ولن يستأثر به لنفسه كما يحدث احيانا ..

ولوّح الدخش بذراعه لابو سلامة في تحية تدل على المودة التي يكنها له ، وعاد إلى الغناء والتجذيف بهمة اكبر ، فقد استبشر بوجود الدلفين خيرا ، ورجا ان يعود من رحلته هذه بالصيد الذي يتمناه . .

وراح الدخش يفكر ، وهو يجذف ويغني . .

انه – الآن – يخرج على بركة الله ، فهل يقدّر له ان يعود بذلك الصيد حقا ؟ . . ام انه سيعود خالي الوفاض ؟ . .

هذا امر علمه عند الله تعالى . . فما يدري الدخش ، ماذا قدّر الله له في يومه هذا من رزق . . وانه ليتذكر اياما عاد فيها بأوفر مما كان يتوقع من الصيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واحيانا عاد بأقل منه ، ولكنه – في جميع الاحوال – يتقبل الصيد الوفير بالحمد لله ، كما يتقبل الصيد الشحيح بالصبر وحمد الله ايضا . .

لكنه اليوم يشعر بالتفاؤل ، لان وجود « ابو سلامة » جعله يطمئن إلى عدم وجود سمك القرش في تلك البقعة . .

وهل ينسى ما تسبب به هذا السمك المفترس من مآس للصيادين ؟ . .

انهم لايكادون يصطادون شيئا وقبل ان يجذبوا « الجلب » إلى القارب يأتي القرش فيلتهم صيدهم في مثل لمح البصر . .

انه شريك غير مرغوب فيه . . يفرض نفسه من غير دعوة ، طبعه العدوان وشيمته الاغتصاب . .

وتوقف الدخش عن التجذيف بعد ان ادار بصره فيما حوله ، وتبين له انه قد ابتعد عن الشاطىء مسافة كافية . .

ان من طبيعة هذه المهنة الشاقة ان يعرف الصياد بالفطرة مقدار المسافة التي قطعها بعيدا عن الشاطىء ، لأنه اذا ابتعد اكثر مما يجب ، كان عليه ان يتوقع تسرّب الفساد والتعفن إلى السمك الذي اصطاده قبل ان يصل إلى السوق ليبيعه فيها . .

احيانا – راح الدخش يتذكر – كان يصل إلى الشاطىء بسلام ، ولكنه لا يكاد يتخذ طريقه نحو السوق حتى تتصاعد إلى انفه رائحة التعفن الذي بدأ ينتشر فيما اصطاده ، بسبب طول المسافة ، وشدة حرارة الشمس . .

وتذكر . . كيف كان يتوقف عن سيره النشط لتتباطأ خطواته، ثم ليقف تماما ، وينزل حمله عن ظهره ويروح يتأمله وقد سرى الفساد والتعفن فيه ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيلقيه على الارض حيث هو ، ودموع القهر تكاد ان تطفر من عينيه، ثم يتوجه إلى مسكنه بطيء الخطا ، مقوّس الظهر ، خالي الوفاض ، صفر اليدين ، وقد التصقت نظراته بالأرض . .

لقد ضاع تعب النهار كله ، ولم يظفر — رغم جهده — بشيء . .

وشعر الدخش بقشعريرة تجتاح جسده ، اذ خطر له ان ما كان يحدث من قبل يمكن ان يحدث اليوم ، فألقى نظرة قلقة على ماحوله ، كأنما يريد ان يطمئن إلى ان بامكانه ان يصل إلى السوق في الوقت المناسب ، ثم رفع بصره إلى الشمس التي كانت ترسل حرّها اللاهب ، وهزّ كتفيه باستسلام ثم جهزّ مرساته ، وراح يدلي بها إلى الماء وهو يقول بصوت خاشع مسموع :

— توكلنا على الله . . .

وكانت المرساة عبارة عن حجر كبير ، مشدود إلى حبل طويل ، حتى إذا وصل إلى القاع ثبّت الدخش الحبل إلى الزورق وقد اطمأن إلى ثباته في موقفه ،ثم نشر قطعة كبيرة من الخيش ليحتمي بها من اشعة الشمس ، وراح يستقبل بكثير من السعادة والارتياح بعض النسيمات التي كانت تسري بلطف وسط الجو اللاهب ، فترطّب بعضا مما يشعر به بتأثير الحر ، وتجفف شيئا من عرقه الذي كان ينثال على جسده المكدود بغزارة . .

والقى بالجلب ، بعد ان ثبّت فيه اللعف ، وراح ينتظر . . .

ان الانتظار هو المهنة الحقيقية للصيادين جميعا . .

انهم ينتظرون ان يهدأ البحر حين يكون هائجا . .

وينتظرون ان تأتي سمكة لالتهام اللعف الذي ثبتوه بالجاب . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وينتظرون ان يصلوا إلى السوق في الوقت المناسب ، قبل ان تتسرب العفونة إلى الصيد . .

ومع الانتظار تعلّموا الصبر . .

الصبر على هياج البحر حتى يهدأ : :

والصبر على الجلب وهو في عمق البحر ينتظر الصيد . .

والصبر على الصدمات التي يواجهونها في عملهم اذا ماعادوا بصيد قليل او اذا فسد الصيد قبل ان يصلوا إلى السوق . .

وانتبه الدخش من خواطره على حركة في الخيط . .

ـ الحمد لك يارب . .

يبدو انه لن يضطر للانتظار كثيرا ، فقد اتى الصيد في وقت وجيز . .

وراح يسحب الخيط نحوه بهمّة ، وفضول هائل يجتاح كيانه يريد ، معه ، ان يعرف نوع السمكة التي اصطادها . .

ولم يكد ير السمكة حتى اطلق صيحة فرح . .

ـ الناجل . . الناجل . .

ذلك ان « الناجل » هذا هو بشرى خير للصيادين ، لانه نوع جيّد من السمك ، لذيذ الطعم ، ويحظى باقبال المشترين في السوق . .

ودلّه حجم السمكة على ان هناك كثيرا من امثالها في البحر ، فرفع رأسه إلى السماء شاكرا واقبل على عمله بهمة ونشاط ، فوضع السمكه جانبا وهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تنتفض وتتخبط ، وثبّت لعفا جديدا في الجلب ، والقاه في البحر : وبعد دقائق معدودات اهتز الخيط دليلا على التهام سمكة اخرى للعف ، فسحب الخيط وقد نسي نفسه ، ونسي حرارة الشمس ، ونسي ماكان عليه من تعب وارهاق . .

ــ الحمد لله . .

يبدو ان الصيد سيكون وفيرا هذا اليوم . .

واتجه ذهنه في الحال إلى ضرورة العودة إلى المدينة بسرعة ، بعد ان يصيد كفايته ، خوفا على الصيد من الفساد ، لان الصيد وحده لايكفي ، بل ان عليه ان يتدبر امر العودة ليبيع ما اصطاده ، ويضع الثمن في جيبه ، وعندها ــ عندها فقط ــ يستطيع ان يشعر بالارتياح والسعادة . .

وعاد يلقي الجلب في الماء ، وقد تحوّل جسده الواهن إلى شعلة من النشاط والشباب والحماسة . . .

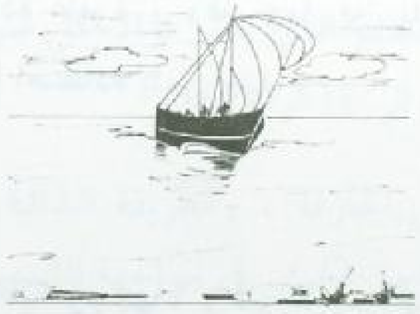

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

لم تكن ام حسونة في حاجة إلى فطنة كي تدرك ان هذا النهار كان ، بفضل الله ، موفقا ، وان زوجها قد عاد مجبور الخاطر ، وافر الكسب . .

فلقد قرأت ذلك على وجهه بمجرد ان دخل المسكن وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وفي عينيه سعادة غامرة ، وقد حمل بين يديه خيرا كثيرا قد جاء به من السوق بعد ان باع ما اصطاده بثمن جيد . .

— هــه . . بشّر . .

هتفت الزوجة مخاطبة زوجها، رغم ما ادركته من توفيقه هذا اليوم، فكأنما تريد ان تطرب اذنيها بحديثه عن الكسب الكثير ، غير مكتفية بما رأته على وجهه ، وما بين يديه ، من جواب . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال ابو حسونة وهو يناولها ما يحمل :

ـ الحمد لله . . خير وبركة . . لقد وفقت اليوم إلى صيد كمية كبيرة من الناجل . . واكرمني الله تعالى فبعتها بثمن طيب . . .

وتمتمت المرأة بعبارات الحمد لله وهي تتناول ما جاء به زوجها لتتجه إلى ركن بعيد من المسكن يستخدم كمطبخ . .

ودخل الرجل إلى الغرفة التي اعتادوا على استخدامها للجلوس ، ولنوم الابناء ، فارتمى على مرتبة في جانب من الغرفة ، واسند ظهره إلى الجدار ، مغمضا عينيه وقد استرخى جسده كجواد قطع مسافة بعيدة وآن له ان يستريح..

واقبل الابناء الثلاثة من « الحوش » على الاب يسألونه في فضول محبب عما كان عليه نهاره ، فارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه وشفتيه ، وقبّل كفّه اليمنى بطنا وظهرا ، وقال وهو يرفع رأسه إلى السماء :

ـ الحمد لله . . رضى . .

واندفع يحدثهم بالموضوع المفضل لديه ، والذي سمعوه منه كثيرا من قبل ، والذي كان يضيف اليه باستمرار ما يجدّ معه من احداث ايامه الجديدة . .

حدّثهم عن الامل العظيم الذي يغمر فؤاد كل صياد وهو يخرج إلى البحر وفي خياله الصيد الكثير والرزق الوفير . .

حدّثهم عن الشمس الحارقة ، والطريقة البدائية التي يتقي بها الصيادون اشعتها بنشر قطعة كبيرة من الخيش في مواجهة الشمس . .

حدّثهم عن الزمن الذي فعل فعله في الذراعين اللتين كانتا قويتين فيما مضى ، ولكنهما ـ الآ ن ـ تضربان على صفحة الماء بالمجذافين ضربا واهنا . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حدّثهم عن القرش المفترس ، الذي لا يخشى الصيادون من مخلوقات البحر شيئا مثلما يخشونه ، وكم من مرة فجعهم فيها بصيدهم قبل ان يخرجوه من الماء ثم يظل مكانه ليلتهم سواه إلى ان يشبع فينصرف من المكان . .

حدّثهم عن « ابو سلامة » ، صديق الصيادين المحبب ، سواء لمرحه وخفة ظله وتوثبه من قلب الماء حول قواربهم ، او لأن وجوده في بقعة ما يعني — وهذا هو المهم — ان القرش غير موجود فيها ، لان القرش — لحكمة يعرفها الخالق العظيم — يخشى ابو سلامة ويفرّ منه . .

حدّثهم عن القلق الذي يظل يفتك بأعصاب الصياد حتى بعد ان يظفر بالصيد الذي يرضيه خشية ان يتحول صيده إلى كومة من العفن إذا لم يصل إلى السوق في الوقت الملائم . .

وحدّثهم اخيرا عن التوفيق الذي حظي به ، يومه هذا ، والعدد الكبير من « الناجل » الذي اصطاده حتى عاد اليهم بما حمله من الرزق . .

وفي كل مرة كان الدخش يروي فيها هذه الحكايات لابنائه كانوا يصغون اليه مبهورين حابسي الانفاس وكأنهم يسمعون اسطورة عجيبة من اساطير الاولين ، التي يمتزج فيها الامل مع اليأس ، والصبر مع الانتظار ، والقلق مع الطمأنينة ، ويبدو لهم ابوهم فيها بطلا فائق المقدرة وسط احداث تلك الاسطورة المدهشة . .

انهم لايملّون ابدا من الاستماع مرارا وتكرارا إلى هذه القصة ، او الاسطورة ، فهي تشبع فضولهم الطفولي تجاه البطولة والابطال ، وتثير فيهم احساسا من الزهو ، لان اباهم هو البطل ، وان الاسطورة هي قصة كفاحه . .

ولكن حسونة ، اكبر ابناء الدخش ، كان يحس احساسا مختلفا تجاه مايرويه لهم الاب من اقاصيصه تلك . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

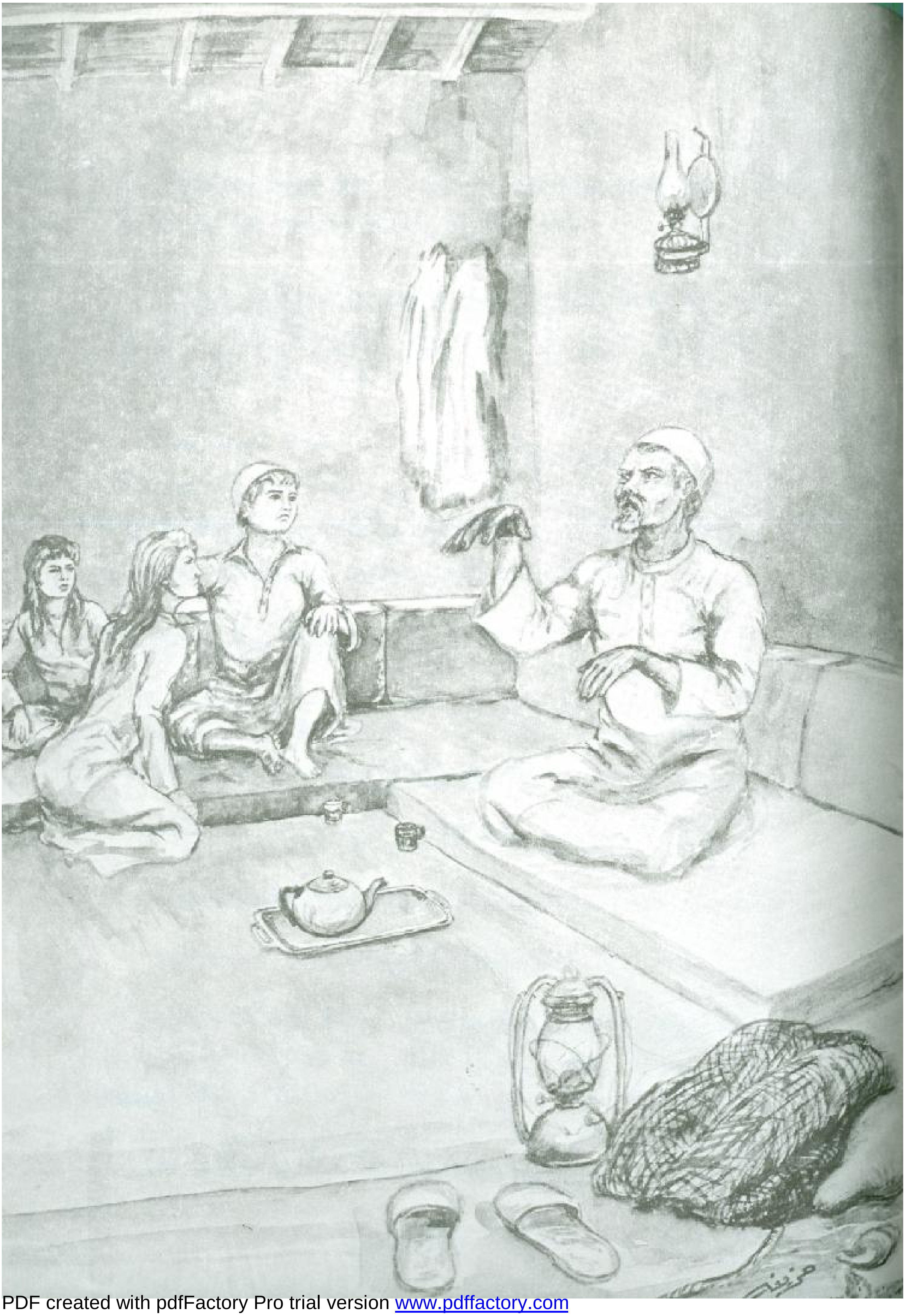

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان يشعر بضميره يؤنبه ، وباحساس من الذنب يسيطر عليه ، كلما أتى ابوه على ذكر صعوبة واجهها او امل له قد خاب . .

كان يرى إلى الزمن وهو يفعل فعله في الجسد الذي كان قويا فيما مضى ، فجاء البياض الذي اكتسح لحيته ليعلن بأن هذا الجسد لم يعد على قوته السالفة وانه إلى الضعف والوهن اقرب . .

وانتهز حسونة فرصة صمت ابيه بعد ان انتهى من رواية احداث يومه ، فتكلم بعد طول تردد ، معربا عن الفكرة التي كانت تراود ذهنه منذ زمن ، والتي ما كان يجرؤ على الافصاح عنها لتأكده من ان اباه لن يوافقه عليها ، وانه سيأمره بأن يلتفت إلى دروسه ويهتم بمدرسته . .

قال حسونة في كلمات متئدة مخاطبا اباه :

— ما رأيك يا ابي . . اذا . . اذا خرجت معك إلى . . إلى البحر ؟ . .

واتسعت عينا الاب في دهشة وقال على الفور :

— انت ؟ . . تخرج معي ؟ . . انك مازلت صغيرا . .

— انني في السادسة عشرة . .

— والمدرسة ؟ . . انها واجب اكثر اهمية . .

— المدرسة الآن في عطلة . . فنحن في الصيف . . وانت تعلم ، يا ابي ، انه لم يعد في امكاني ان اقضي العطلة في اللعب واللهو كما يفعل الاطفال الصغار . .

وحدّق الاب في ابنه وكأنه يراه لأول مرة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حقا . . لقد اصبح حسونة رجلا . . رجلا صغيرا . . ولكنه رجل على اية حال . .

ولم يكن صعبا عليه ان يلاحظ معالم الصحة والقوة في جسم ولده الفتي ، فهو — الآن — ينتقل إلى مرحلة الرجولة ، ولشد ما يطرأ تغيير سريع على بنية الفتى في هذه السن . .

ونقل بصره في جسم ولده صامتا . . .

هاتان الذراعان ؟ . . انهما — بكل تأكيد — اقوى من ذراعيه ، فهما ذراعا فتى في مقتبل العمر ولم ترهقهما ، بعد ، تكاليف الحياة . .

هذا الصدر ؟ . . انه عريض . . قوي . . وكفيل بأن يستقبل رياح البحر واشعة الشمس بشكل يعجز عنه صدره الواهن . .

لقد بدا له ولده ، لاول مرة ، رجلا مكتمل الرجولة ، إذ لم يسبق له — من قبل — ان نظر اليه الا كما ينظر إلى طفل صغير . .

ولكن المدرسة . . .

وهزّ الدخش رأسه يمينا ويسارا علامة الرفض والاستنكار قائلا :

— لا . . لا . . عليك ان تنصرف إلى دروسك . .

ولكن الفتى عاد يتوسل قائلا :

— ارجوك يا ابي . . انني اعدك بالا اعمل معك الا في العطلة الصيفية . . وفيما عدا ذلك سأظل كما انا الآن . . واؤكد لك انني ساحتفظ ، ان شاء الله ، بالاولوية في الفصل كعادتي . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشعر الدخش بعاملين يتنازعانه . . احدهما هو تصوّره لمـــا يمكن ان يحمله عنه ولده من اعباء اذا ما خرج معه إلى البحر لمساعدته ، وثانيهما هو رغبته النابعة من ابوّة عميقة في ان يكفي ابناءه مشقة العمل والصراع مع البحر وان يجنبهم قسوة الحياة ما امكن . . ولو ظل هو المصدر الوحيد للرزق . . فضلا عن انه يكره ان يحس احد منهم انه لم يعد قادرا على العمل والكسب .. وهناك ايضا المدرسة . . لا . . لا . . لا . . انه لا يوافق . .

وعاد الابن يرجو ويتوسل ، ويدافع عن وجهة نظره في حماسة ، والاب يلين شيئا فشيئا ، فقد لمس ان مطالب حسونة ليس نزوة طفولية عابرة ، وانما هو نتيجة لتصميم سابق وتفكير طويل . .

واخيرا قال وهو يربت على كتف ولده في حنان :

– لابأس . . ستخرج معي . . انني سأجربك . . وبعدها نرى ماسوف نفعل . . ولكنني اكرر عليك القول . . ان دراستك هي اكثر مايهمني . . انني لا اريد لك ان تتعلق بحياة البحر وتنسى ذلك . .

واقبل الابن على ابيه يشكره في حراره وهو يعانقه ، ولم يفت الدخش ان يشعر بقوة ذراعيه وهو يشده إلى صدره في محبة فائقة . .

* * *

وانتاب الدخش شعور عميق بالارتياح لقرار ولده بالخروج معه إلى البحر وموافقته على ذلك . .

فكأنما دبت روح جديدة في الزورق العجوز ، وصاحبه العجوز ، بقدوم الفتى حسونة ، ومشاركته في اعباء الخروج إلى البحر والصيد فيه . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم ياق الدخش عناء كبيرا في تلقين ولده الدرس الاول في الصيد ، وهو جمع « اللعف » بواسطة الشبكة من مياه الخور . .

ان هذه العملية كانت تستغرق من الدخش وقتا طويلا وهو يقوم بها ببطء وتؤدة ، ولكنها اليوم تمت بحرارة الفتوة ونشاط الشباب ، في مدة وجيزة مالبث اللعف بعدها ان ملأ الاناء الذي خصص لوضعه فيه . .

وكان الدرس الثاني اكثر سهولة . .

فما ان شرح الاب لولده كيف يمسك مجذافي القارب وكيف يحركهما على التوالي وهو يغرق احدهما في الماء ويرفع الآخر في حركة متوازنة لينزله من ثم ، حتى راح الفتى يجذف بهمة ونشاط كأنما هو قد وجد في هذه الحركة متنفسا لما في فتوته من قوة ، فمضى القارب ينزلق على صفحة الماء بخفة وسرعة ، بعد ان كان يشق الطريق نفسها قبلا في بطء وتعثر ، بقدر ما كانت ذراعا الاب العجوز الواهنتان تستطيعان الحركة . .

ودهش الدخش اذ وجد نفسه يصل مبكرا إلى البقعة التي اعتاد على الصيد فيها اغلب الاحيان ، وعهده بها تستغرق من وقته مدة طويلة . .

ووجد نفسه يقوم بمهمة « الربان » اكثر مما يقوم بمهمة الصياد . . فهو قد اكتفى باصدار التعليمات والتوجيهات إلى حسونة الذي كان يبادر إلى تنفيذها على الوجه الاكمل بسرعة ومبادرة . .

فخلال دقائق كانت « المرساة » قد استقرت في قاع البحر .

وخلال دقائق اخرى كانت قطعة الخيش الكبيرة قد نصبت لتحمي الاب من وقدة اشعة الشمس . .

وبعدها ، ويالالعجب ، كان الصيد يتكاثر بسرعة، وبصورة لم يعهدها الاب منذ زمن بعيد . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واسند الدخش ظهره إلى جدار القارب ، وهو يرخي ذراعيه ويتنهد بارتياح وينظر إلى حسونة وهو يقبل على العمل بحماسة ، دون ان يسمح لنفسه باعلان سروره اذ يرى خيط الجلب يهتز مؤذنا بأن سمكة قد التهمت اللعف ، فهو يقبل على الخيط يسحبه نحوه وقد علا قطوب الاهتمام وجهه وبجدية تنبيء بما انطوى عليه اهاب هذا الفتى من رجولة مبكرة . .

واذ اكتفى الصيادان بما حصلا عليه ، راح حسونة يجذف في طريق العودة بنفس الهمة والنشاط ، وحدّث الاب نفسه بأنه لايتذكر آخر مرة جذف فيها بهذه الطريقة ، وان كل ما يذكره هو منظر القارب وهو يتحامل على نفسه سائرا بصعوبة ، ما دامت الذراعان اللتان تحركان المجذاف غير قادرتين على امداده بالقوة اللازمة . .

اما الآن ، فالقارب ينزلق بسرعة وخفة على سطح الماء ، والفتى يجذف بقوة وكأن عناء اليوم كله لم ينل من قوته كثيرا او قليلا ، وفيما خلا قطرات العرق التي كانت تتجمع على جبينه لتسيل على وجهه وتتساقط اسفل ذقنه بصورة متتابعة ، ما استطاع احد ان يعرف ان الفتى قد قضى ساعات تحت لهيب اشعة الشمس الحارقة ، لم يهدأ لحظة ولم يتوقف ، حتى تجمع في القارب ذلك الصيد الكثير . .

وشيئا فشيئا كان شعور عدم الارتياح الذي ساور نفس الدخش عندما خرج ومعه ولده – صباحا – يتلاشى ليفسح مكانه لشعور جديد من التفاؤل والاستبشار ، فلقد اقتنع بأنه قد احسن عملا اذ سمح لحسونة بمرافقته ، وأصاب اذ استمد من شبابه وفتوته قوة جديدة دبت في القارب القديم فأحالته – بمن فيه – إلى شعلة من النشاط والحركة والحيوية . .

وسار كل شيء على ما يرام . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد بيع الصيد بثمن طيب ، وعاد الدخش – مرة اخرى خلال اسبوع واحد – محملا بما جلب لعياله من لوازم الحياة . .

ولأ ول مرة منذ مدة طويلة ، لم يشعر الدخش بذلك الالم الرتيب الذي كان ينتاب جسده ، وخاصة ذراعيه المرهقتين من التجذيف والعمل المتواصل ، فنام ليلته تلك مرتاحا وهو يغبط نفسه ويحمد الله اذ منّ عليه بهذا الفتى القوي ، ولده وحامل اسمه وذكره ، ليرفع عنه جانبا كبيرا من عناء السعي من اجل اللقمة . .

وانتبه الدخش من غيبوبة النعاس منزعجا ، فقد قدّر ان ذلك الالم قد انتقل إلى ولده الحبيب ، وشعر بشيء من تأنيب الضمير . . كيف يرضى لنفسه ان يخلد إلى الراحة وولده ، ولاريب ، يعاني من اوجاع العمل المرهق التي لاتظهر عادة الا بعد ساعات ؟ . . .

ونهض من فراشه وشعور القلق والانزعاج يتفاقم في نفسه ، واتجه إلى حيث ينام الاولاد في الغرفة المجاورة ، ووقف عند رأس حسونة وناداه بصوت خافت ، ولكن الفتى لم يجب . . لانه كان مستغرقا في نوم عميق . .

وتنهّد الرجل في ارتياح ، فقد تغلّبت فتوة حسونة على التعب وآلامه ، وكان تخوفه من ان يكون جهد اليوم قد نال من ولده في غير محله ، فأحس بالفخر بهذا الفتى القوي ، وعاد إلى فراشه وهو يحدّث نفسه بأن له ان يطمئن إلى الغد مادام بوسعه ان يعتمد – من بعد الله – على حسونة الذي اثبت رجولة اصيلة وهو ، بعد ، في العقد الثاني من عمره ، وان تحسس الفتى بالمسئولية وقيامه بها لجدير بأن يطمئنه . .

وما هي الا لحظات حتى استغرق الدخش في سبات عميق لايعكره

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك الشعور المستمر من الالم الذي اعتاد ، قبلا ، ان ينتاب جسمه الواهن كلما آب من عمله وحاول ان يخلد إلى النوم . .

* * *

وحين خرج الدخش وحسونة إلى البحر مرة اخرى ، بعد بضعة ايام ، ازدادت قناعة الاب بأن الله تعالى قد يسّر له طريق الخير حين ألهم ولده ان يصارحه برغبته في ان يشاركه اعباء العمل . .

فلقد سأله الفتى وهو منهمك في جمع اللعف :

ـ لم نذهب ، يا ابي ، للصيد بعيدا في الخور مادام بوسعنا ان نصطاد في مواقع قريبة من الميناء ؟ . .

وابتسم الاب للسؤال في عطف ، فلقد استدل منه على ان ولده قد قطع شوطا اوسع في اعمال البحر ، وان ذهنه قد بدأ ينشغل بشئون الصيد . .

وبلهجة الخبير الواثق مما يقول اجابه :

ـ ان الصيد بجوار الميناء صعب جدا . . لان الاعماق كبيرة . . وحركة السفن تنفّر السمك . .

ـ اذن . . يمكننا ان نصطاد في « القطع » او في « عرق المجرى » . . وبدلا من النزول في الخور نقترب من الميناء وبذلك يسهل علينا الوصول بالصيد إلى السوق قبل ان يتلف . . وخصوصا في الصيف . .

ودهش الدخش . .

كيف لم تخطر هذه الفكرة البسيطة على باله ؟ . . وكيف ارهق نفسه طوال تلك السنوات بالذهاب إلى مناطق بعيدة ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وابتسم الاب في عطف وقال لولده :

– افعل ماتراه يا ولدي . . ولكن علينا ان نجد موقعا مناسبا قريبا من الميناء فليست كل المواقع صالحة للصيد . . وليست كلها مسموحا بالوقوف فيها ..

وسرعان ما آتت فكرة حسونة ثمارها . . فقد اتخذا سمتهما في خط قريب من الميناء . . وكان الاب يوجه الابن للاتجاه بالقارب نحو اماكن معينة بحكم خبرته الطويلة . . إلى ان وصلا إلى المكان الملائم . . فتبين لهما انه لايقل مردودا عن الاماكن البعيدة التي كان الدخش يذهب اليها سابقا ، وهكذا حلت مشكلة الوصول إلى السوق في الوقت المناسب بصورة نهائية ، فأمكن ، بذلك ، زيادة الوقت الذي يستغرقه الصيد ، بعد ان كان معظمه يضيع في رحلتي الذهاب والاياب . .

• • •

ولمست العائلة كلها نتائج مشاركة حسونة في تحصيل الرزق ، وكان الدخش هو اكثر افرادها شعورا بذلك . .

ومضت العطلة الصيفية بسرعة ، وغاص قلب الدخش بين جنبيه ، فبعد ايام قليلة تفتح المدارس ابوابها وينقطع حسونة عن مساعدته في العمل ، ويعود – هو – إلى سيرته الاولى بما فيها من بطء وضعف وجهد . .

وعوّل ، بينه وبين نفسه ، على ان يعود إلى العمل وحيدا كما كان ، اذ لم يكن يرضى – بأية صورة من الصور – ان يحول شيء دون متابعة ولده لدروسه . .

ولكن حسونة كان له رأي آخر ، ادلى به إلى والده ، مما دل على ان هذه المسألة لم تغب عن باله ، وانه قد وجد لها الحل المناسب . . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

قال حسونة لوالده وهو يجلس إلى جانبه :

– بعد ايام تفتح المدرسة ابوابها . .

– وتنصرف انت إلى دراستك كما اتفقنا . . الدراسة اهم من اي شيء . .

اجاب الاب وهو يخفي ما يشعر به من انزعاج امام تلك الحقيقة . .

وعاد حسونة إلى القول :

– لا اظن ان الدراسة يمكن ان تحول بيني وبين الاستمرار في الخروج معك إلى البحر . .

– ماهذا الكلام يابني ؟ . . المدرسة لها الافضلية القصوى . . ولقد كنت ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بارك الله فيك ، خير معين لي خلال العطلة . . اما الآ ن فعليك ان تنصرف بكل قواك إلى الدراسة . .

– لقد فكرت في هذا الامر يا ابي . . ووجدت له حلا لعله يرضيك . .

– لا اجد اي حل . . وعليك ان توجه اهتمامك كله للمدرسة . . لا اريدك ان تصبح صيادا في ايام تتاح لك فيها فرص افضل للحياة عن طريق العلم . . فاطمئن من جهتي . . ولا تفكر في غير الدراسة والمدرسة . .

– لقد فكرت ، يا ابي ، ان بوسعي ان اخرج معك إلى البحر ايام الخميس والجمعة . . انت تعلم ان دوامنا في المدرسة يوم الخميس لايستغرق سوى نصف النهار . .

– وكيف تكون حالتك ، يا بني ، عندما تعود إلى المدرسة صباح السبت ؟ انك ستكون متعبا . . وسوف يؤثر ذلك على دراستك . .

– لاتخش عليّ شيئا ان شاء الله . . واعدك بأن اظل كما عهدتني . . واحافظ على ترتيبي المتقدم في الفصل . .

وتنهد الاب في استسلام ، فما كان بوسعه الا ان يوافق . . وهو يعجب كيف لم يخطر الحل الذي اتى به ولده على باله . .

وتذكر ان هذه ليست اول مرة يأتيه فيها حسونة بأفكار جديدة لم تكن تخطر له من قبل . . الم يكن عدم الابتعاد عن الميناء كثيرا هو احد تلك الافكار ؟ . . وهل العلم الذي يتلقاه ولده هو الذي يمده بتلك الافكار ؟ . . هذا جائز . . . الم يقولوا ان العلم نور ؟ . . لعل هذا هو التعليل الوحيد لعدم قدرته ، وهو الاكبر سنا والاكثر تجربة ، على ان يأتي بمثل هذه الافكار . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومرة اخرى جاءه حسونة بفكرة جديدة . .

فقد قال له ذات ليلة وهم يتناولون العشاء :

ــ لم لا نتفق ، يا ابي ، مع احد تجار السمك على ان نبيعه مانصيده بدل ان نبحث عمن يشتريه ونضيع الساعات ونحن نقف بالشناكير في انتظار المشتري ؟ . .

وحكّ الرجل رأسه حائرا ، شأنه كلما جاءه ولده بفكرة جديدة ، وقال وهو يعيد وضع طاقيته على رأسه بعناية :

ــ حقا . . انها فكرة موفقة . . هناك فعلا تجار يشترون السمك من الصيادين ولكنهم يدفعون عادة سعرا اقل . .

وردّ الابن على الفور :

ــ اننا نستطيع تعويض فارق السعر بسهولة . . بنصف الزمن الذي يستغرقه وقوفنا للبيع يمكننا ان نزيد مانصطاده . .

واجاب الاب :

ــ لم يخطر ذلك على بالي . . سنحاول تنفيذ هذه الفكرة في الاسبوع المقبل باذن الله . .

واردف بصوت خافت :

ــ صدق من قال . . ان العلم نور . .

ولم يجد الدخش صعوبة في العثور على الرجل المطلوب ، فقد كان « الشيخ صديق » زبونا ممتازا تعهّد له بأن يشتري منه صيده بأسعار مناسبة ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووفى بتعهده وفاء كاملا ، بل انه تعدى ذلك إلى مظاهر عديدة تدل على طيبته ونبله وحسن اخلاقه ومعاملته ، فقد راح يقدّم للدخش المال حين يحتاج اليه ، الامر الذي وجد هذا معه انه قد كفّ — لاول مرة — عن القلق تجاه مطالب البيت العاجلة ، لان الشيخ صديق كان جاهزا دوما لامداده بما يحتاجه من مال ليسترده بعد ان يفتح الله عليه ويأتيه بصيد جديد . .

واشتهر الشيخ صديق بين رجال البحر باستقامته وامانته وحبّه للخير ، فأقبلوا عليه يتعاملون معه ويفضلونه على غيره من التجار . .

وكان الشيخ صديق يدرك ان جانبا من مصادر رزقه مرتبط بهؤلاء الرجال الذين يقضون في البحر ايامهم في اقسى الظروف واكثرها صعوبة وارهاقا ، فكان حسن معاملته لهم يدل على تقديره لما يعانونه من مشقة ، وما يبذلونه من جهد ، فسارت سيرته بينهم مقرونة بالثناء والتقدير ، واطمأنوا إلى انهم يتعاملون مع رجل مستقيم يلتزم حدود الحق . .

وهكذا استأنف الدخش حياته التي خفّت قسوتها كثيرا عن ذي قبل ، اذ اتاحت له انسانية الشيخ صديق ان يحصل على حاجته من المال بصورة منتظمة ، كما اتاحت له مشاركة حسونة ان يحصل على صيد وفير بمجهود اقل مما كان يبذل من قبل . .

على ان الأمر الذي بدأ يغيب عن ذهن الدخش ، كان هو العناء الذي يتحمله حسونة ، وهو بعد في تلك السن ، لتخفيف العبء عن ابيه . .

لم يكن سهلا على من كان في سن حسونة ان يقضي الساعات الطوال وهو يجدّف تارة ، وينتظر الصيد تارة اخرى ، والشمس اللاهبة ترسل اشعتها على جسده الغض ، فيسيل العرق على وجهه وصدره من غير انقطاع ، او وهو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحمل الصيد إلى الشاطىء ، ومن ثم إلى السوق بتلك السرعة التي يخشى معها ان يتعفن السمك قبل ان يصل إلى الشيخ صديق . .

ولكن حسونة كان قد جبل على الصبر منذ نعومة اظفاره . .

فهو قد احتمل الجوع حين كان ابوه يعجز عن ان يأتي بما يسد هذا الجوع . .

وهو يحتمل حياته القاسية بعد ان اصبح صيادا ، في نفس الوقت الذي يحمل فيه عبء الدراسة والاستذكار . .

وكان من شأن طبيعة الصبر هذه ان امدته بقدرة عجيبة على اخفاء مابه وكتمانه حتى عن ابيه ، فكان يبدو امام الجميع سعيدا بحياته ، ناعما بما يبذل من جهد لكي يساعد اباه . .

وهكذا كان الابن يعاني بقدر ما يخفف عن ابيه عبء المعاناة . .

كان حسونة يحرص على ان يحل مشكلاته بنفسه قدر امكانه ، وان يخفي عن ابيه اي شيء يزعجه . .

وحتى عندما كان سمك القرش يفترس احيانا سمكة كان يهم باخراجها من الماء كان يقهقه ضاحكا ويقول لابيه وهو يحاول اخفاء آثار السمكة العالقة بالجاب :

ـ لقد افلتت السمكة . . ولعلي انالها في المرة التالية . .

ويعد الجلب من جديد ، ويثبّت فيه اللعف ، ويلقيه في الماء صابرا ، مانعا نفسه من الاعراب عن اسفه وحسرته لاعتداء القرش على صيده . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن بعضا من تلك المعاناة التي يقاسيها حسونة كان اقوى من ذراعيه ، لاسيما حين تهب الرياح فتتلاعب بالقارب القديم ، ويروح حسونة يبذل جهده لنزح الماء المتسرب ، او لتخفيف حمولة القارب والقاء مافيه في البحر بما في ذلك السمك الذي يكون قد اصطاده . .

واكثر من مرة انقلب الزورق براكبيه . فراح حسونة يجهد كالمجنون لاعادته إلى وضعه الطبيعي وانتشال ابيه من الماء . .

كان حسونة يحس بمشاعر البهجة التي تشرق على وجه ابيه عندما يخرج برفقته إلى الصيد ايام العطلة دون ان يعكر رحلتهما او ينتقص من صفوها شيء . .

وكان يعتبر ان هذه البهجة تفوق في قيمتها كل ما كان يتحمل من نصب وجهد ، فكان يسعد لسعادة ابيه ، ويراها خير جزاء يحمد الله عليه ويشكره . .

لقد قرّب البحر ما بين الاب والابن كما لايستطيع اي سبب آخر ان يفعل . .

كان الاب العجوز يطوي صدره على عشرات ، بل مئات ، من الذكريات والحكايات التي تجمعت عبر السنوات الطويلة التي عاشها . .

وكان ينتهز كل فرصة ليروي لولده شيئا من تلك الذكريات والحكايات سواء ما مرّ منها به في حياته الشاقة ، او مايتناقله الصيادون ورجال البحر من اساطير يحلق فيها الخيال ، ويمتزج مع الواقع ، لتتكون منها في النهاية قصص غاية في الغرابة والاثارة للفضول والاهتمام . .

وكان حسونة يصغي إلى تلك الحكايات مبهورا ، فهو – بحكم ممارسته الفعلية لحياة البحر – يفهم معناها ويدرك مدلولاتها اكثر مما لو كان بعيدا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن هذا الجو ، فكان يختزنها في ذاكرته ــ تماما كما يفعل ابوه ــ فمن يدري؟ لعله في يوم من مقبل الايام يروي هذه الحكايات لاولاده ، ليثير في نفوسهم مثلما يثور في نفسه الآن من فضول واهتمام ومتابعة . .

ولكن . . هل تقف ذكريات حسونة وحكاياته عن البحر عند فترة معينة من حياته ؟ . . ام انه سيظل طوال عمره صيادا كأبيه ؟ . .

ان اباه قد صارحه اكثر من مرة انه لا يريد له ان يصبح مثله . .

كان يريده ان ينهل من العلم ما يجعله قادرا على ان يشق طريقه في الحياة نحو وجهة اخرى . .

بل ان حسونة ليذكر ان اباه رفض باديء الامر ان يسمح له بالعمل معه بعد افتتاح المدارس ، لانه يريد له ان يواصل دراسته ويتفرغ لها . .

ولاحظ حسونة ، بعد ذلك ، ان اباه لم يعد يتحدث كثيرا عن آماله في ولده ورجائه ان يراه حاملا اعلى الشهادات . .

وشعر حسونة بقلق خفي . .

ترى ، هل صرف الاب نظره عن حماسته السابقة تجاه دراسة ولده بعد ان لمس بنفسه نتائج مشاركته له في العمل ؟ . .

مستحيل ان يفعل ابوه ذلك . .

وكان يسترسل في خواطره ، قائلا لنفسه ان السبب في عدم ابداء الاب حماسة لدراسته انه ليس في حاجة لان يحثه عليها ، فهو مازال ــ رغم انشغاله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعبه وارهاقه – يحقق مراتب متقدمة في الدراسة بين زملائه في الفصل ، ومازال – كما عهده ابوه دائما – يجدّ في دراسته وكأنه ليس له شاغل سواها ، ويجدّ في عمله وكأنه ليس طالبا مازال يتلقى العلم في المدرسة . .

وكان حسونة يطمئن إلى هذا التعليل ، فينعطف بأفكاره نحو وجهة اخرى ناظرا بعين الخيال إلى المستقبل الذي يرجوه . . .

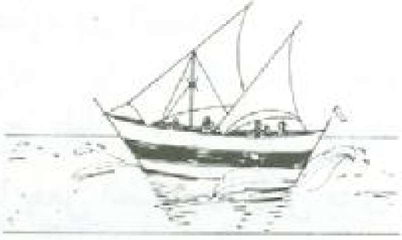

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الرابع

كان حسونة يرنو ببصره إلى السماء . . .

كان يتمنى ان يصبح طيارا ، يحلّق بطائرته في الاعالي ، ويجتاز بها سماء البحر الاحمر ، كما يفعل الطيارون الذين يرى طائراتهم في ذهابها وايابها بينما هو في القارب يصطاد مع ابيه . . .

كان هدير محركات اية طائرة تحاق في سماء جدة او سماء البحر الاحمر كفيلا بأن يجعل الدماء تركض في عروقه ، فيحلّق مع الطائرة بمثل لمح البصر في سماء الخيال ، متصوّرا نفسه وقد جلس وراء مقعد الطائرة ، بدلا من طيارها ، يقودها وهو يلقي على الأرض نظرة ، فيرى فتى صغيرا ، مثله تماما ، يركب قاربا قديما ، يصطاد منه وهو يتطلع إلى الطائرة التي يقودها حسونة وهي تشق عباب الجو متجهة إلى مختلف الانحاء . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم تكن لدى حسونة ادنى فكرة عن الطائرة ، ولا عن كيفية عمل الطيار وكل ما يعرفه عنها هو شكلها العام الذي يراه من بعيد ، ورغبته في ان يقودها دون ان يحاول الدخول في التفاصيل المملة . .

لم يكن حسونة يكف عن التفكير في هذا الحلم ، محاولا ان يتخيل نفسه وقد انهى دراسته والتحق بالعمل كطيار ، فهذا هو كل ما يهمه ، وهذا هو كل ما يشغل باله كلما خلا إلى نفسه . .

ولم يكن حسونة يكتم حلمه هذا عن عائلته واصدقائه ، فهو كثير الحديث عنه ، في معرض توكيده على رغبته في الاستمرار في الدراسة ، وتحقيق تفوق ملحوظ فيها . .

ومع ان عائلته كانت تثق — من غير حدود — بامكاناته ، وقدرته على مجابهة الصعاب ، الا ان احدا ما ، حتى ابوه ، لم يكن يحمل ذلك على محمل الجد . .

والحق ان ثقة حسونة بنفسه كانت ابرز مايلمسه الآخرون فيه حين يتحدثون اليه ، وكان البعض يسمي هذه الثقة غرورا ، وبعضهم يسميها كبرياء ، وبعضهم — في احسن الاحوال — يسميها اعتدادا واستقلالية .

وكان حسونة يعرف ، ويشعر بتلك الآراء ، ولكنه كان يقول بينه وبين نفسه ان الايام المقبلة كفيلة بأن تقنع من لم يقتنع ، بأنه ليس مغرورا ولا ذا كبرياء فارغة ، ولا مبالغا حين يتحدث عن آماله واحلامه . . فهو يثق بنفسه ويعتبر ان هذه الثقة في النفس هي — فعلا — من اسباب النجاح . .

وكان يتمتع بقدرة عجيبة على الصبر ، ولقد تزايدت هذه القدرة بعد خروجه مع ابيه للعمل ، لانه كان في حاجة إلى هذه الصفة بالذات اكثر من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حاجته لاية صفة اخرى ، ولقد علّمه البحر الصبر ، وعلّمه تحمل الصعاب ، وعلّمه قبول التحدي ومواجهته . . .

وكان يشعر ، مع كل يوم يعاني فيه ما يعاني من قسوة الخروج إلى البحر ، انه يزداد قوة وصلابة ومقدرة على مواجهة الصعوبات والعقبات ، بل بات وكأنه يستعذبها ويستمتع بها . .

ولقد تعلم حسونة من ابيه ، دون ان يشعر ، عادة غريبة ، ولكنها مألوفة جدا في عالم البحر ، وهي عادة التحدث إلى البحر . . .

كان حسونة قد لاحظ ان اباه يجلس احيانا على الشاطىء ، مع بدء انحسار الشمس في طريقها إلى الغروب ، ويغرق في حالة من التأمل والصمت لايعرف الرائي معها اليه انه كان يتحدث ، ويتحدث طويلا . . .

كان الاب يخاطب البحر في سره ، يشكره تارة على ما اعطاه ، بعون الله ، من جوفه مايقتات به هو وعياله . .

ويعاتبه ، تارة اخرى ، لانه يشحّ عليه في العطاء بعض الاحيان . . .

ويسترضيه ، تارة ثالثة ، اذا ماشعر بأنه « غاضب » يدمدم ويزمجر في ثورة من الامواج المتلاطمة التي تمنع الصيادين من الخروج اليه بقواربهم الهشة . . .

ولقد اصبح حسونة مثل ابيه . .

انه يجلس الساعات الطوال على شاطىء البحر ، يتحدث اليه حديثه الصامت الذي كان يختلف عن احاديث ابيه . .

كان يحدّث البحر ، ماء وموجا وهواء ، عن آماله واحلامه وعما عزم على ان يفعل في مقبل ايامه اذا اعانه الله تعالى وشاء . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما ان يتناهى إلى سمعه صوت محركات طائرة تشق طريقها من جدة واليها ، حتى يرفع بصره نحوها ويتابعها حتى تغيب عنه ، وقد اجلس نفسه مكان قائدها – مايدري كيف – يرتفع بها في الاجواء ، او ينخفض بها إلى الارض ، وحسمها الضخم كله رهن اشارته . . او هذا ما كان يظن . .

* * *

وذات يوم جاء الاب وهو يحمل نبأ هاما . . .

ان الشيخ صديق – قال الاب بفرح واعتزاز – قد طلب اليه ان يأخذ بناته في جولة عبر البحر ، وانه قد اختاره لهذه المهمة من بين الصيادين جميعا ، لان ذلك – كما ذكر له – ادعى إلى الاطمئنان . .

وعجب حسونة لاهتمام ابيه بتلبية رغبة الشيخ صديق هذه ، رغم ماقاله الاب من انه يعتبر هذا الطاب فرصة يقدم بها خدمة للشيخ صديق ، ويرد له بعض افضاله عليه . .

وقال الاب وقد بدت على وجهه معالم تفكير عميق زادت من استغراب حسونة :

– المشكلة ان قاربي صغير وقديم . . وبنات الشيخ ، على مافهمت ، كثر . . وعلي ان اجد قاربا اكبر . .

ولم يعلق حسونة بشيء على كلام ابيه ، فهو مع اعترافه بحسن معاملة الشيخ صديق ، كان يرى ان العلاقة بينه وبينهم هي علاقة عمل يؤدي كل من طرفيها نصيبه فيها من المسئولية ، فلاحاجة ، اذن ، إلى المبالغة في الاهتمام بايجاد قارب اكبر يتسع لبنات الشيخ صديق في جولتهن المزمعة . .

وتهلل وجه الاب فجأة وهو يقول بجذل :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ آه . . وجدت الحل . . هناك قارب زميلنا « العود » . . انه متوسط الحجم . . وهو ولاشك افضل من قاربي لاداء المطلوب . .

ولاحظ الاب ان حسونة لم يعلّق على هذا الرأي بشيء فسأله باستغراب :

ـ ايش رأيك ياحسونة ؟ . .

ورد حسونة بهدوء :

ـ في ايش ؟ . . .

ـ فيما قلته . . عن مركب الاخ العود . . انه افضل من قاربنا . . اليست فكرة موفقة ؟ . .

وتمهل حسونة بعض الوقت قبل ان يجيب بنفس الهدوء :

ـ عفوك يا ابي . . فانك قد ادهشتني باهتمامك الكبير بهذا الامر . . وانا اعتقد ان على الانسان ان يقدّم خدماته في حدود امكاناته . . ولايكلّف الله نفسا الا وسعها . . أليس كذلك ؟ . . فمادام قاربنا صغيرا . . وغير مناسب . . فلاداعي لان نأخذ قاربا من احد الناس . . والله وحده يعلم مايمكن ان يحدث له . . ثم ان بامكان الشيخ صديق ان يكلف شخصا آخر قاربه يتسع لبناته . .

وحدّق الاب في ولده بدهشة . . فما توقع منه ان ينظر إلى الامر من تلك الزاوية قط ، بل كان يحسب ان حسونة سوف يتحمس ، مثله ، لهذه اللفتة التي بدرت من الشيخ صديق اذ اختاره دون جميع الصيادين لاصطحاب بناته في نزهة بحرية . .

وقال الاب بلهجة بدا فيها كثير من خيبة الامل :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ انت ما تبطّل العنطزة دي ابدا ؟ . . . على ايش رافع مناخيرك في السما ؟ . .

وابتسم حسونة وهو يجيب بلطف :

ـ لانني اعرف نفسي . . والوالدة علّمتنا . . مدّ رجلك على قد فراشك.. وانت كذلك . .

وبدا على الاب انه لم يفهم ماقصده ابنه من جوابه ، ولكنه لم يكترث لذلك كثيرا . . فقد كان اهتداؤه إلى حل للمشكلة قد اسعده ، ورسم معالم الارتياح والغبطة على وجهه ، فما تزعجه تلك الملاحظة السلبية من ولده . .

وقال الاب بصوت مسموع وكأنه يخاطب نفسه :

ـ يا ترى يرضى العود يعيرنا مركبه ؟ . .

وبدا وكأن فكرة عدم موافقة العود على اعارة المركب قد اقلقته فهبّ واقفا وهو يقول :

ـ الاحسن اني اسأله دحين . . . . اعود بعد قليل . .

وخرج الاب غير متلكىء ، وحسونة يبدي ، بينه وبين نفسه ، دهشته لهذا الاهتمام العظيم الذي ابداه ابوه تجاه مسألة بسيطة كمثل هذه المسألة . . فهو لايرى داعيا لكل هذا . . ولكن اباه رجل يحب الناس ... ويحب ان يساعد ولو بجهد يسير بما يستطيع . . ولذا كانت تلك السعادة الغامرة التي انتابته عندما طلب منه الشيخ صديق تلك الخدمة ، ومن ثم ذلك الامل في ان يوافق العود على اعارته قاربه . . .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما هي الا ساعة او بعض ساعة ، حتّى عاد الاب منفرج الاسارير ، وقد تهلل وجهه بفرحة الظفر . .

واعلن النبأ فور دخوله :

– خلاص . . الاخ العود وافق على ان يعيرني مركبه . . .

وعمت الفرحة المسكن ، رغم ان احدا غير حسونة لم يكن يعرف مغزى موافقة العود على اعارة مركبه ، ولكن مادام سيد الاسرة قد قال انه نبأ مفرح فهو – اذن – كذلك بصرف النظر عن اية تفاصيل اخرى . . .

ومضى الاب يتحدث ونشوة الظفر تغشى كل كلمة من كلماته :

– جزاه الله خيرا . . اخونا العود . . لم يتردد لحظة واحدة في الموافقة عندما انهيت اليه غايتي . . واخبرته انني انما استعير مركبه من اجل بنات الشيخ صديق الصغيرات . . بارك الله فيه . . لقد ابدى استعداده للخروج معي لمساعدتي ، ولكنني شكرته قائلا ان ولدى حسونة فيه البركة . .

وتلاعبت ابتسامة خفيفة على شفتي حسونة وهو يتهيأ للجواب الذي ارتسم على وجهه قبل ان ينطق به عندما نظر اليه ابوه وهو يقول الجملة الاخيرة من كلامه . .

وقال حسونة بلهجة متأنية لايبدو فيها انه يشارك اباه فرحته ونشوته :

– سوف ابذل كل جهدي يا ابي فاطمئن . . وارجو ان نوفق في ادخال السعادة على نفوس بنات الشيخ صديق . .

وزفر الاب زفرة دلت على ضيقه بكبرياء ولده ، ولكنه لم يعلّق بشيء . .

* * *

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي اليوم التالي خرج الدخش وولده مبكرين إلى الشاطىء حيث استلما من العود مركبه واخذا يهيئانه للرحلة في انتظار قدوم الشيخ صديق وبناته . .

وراح حسونة يجمع « اللعف » وهو خالي الذهن من اي شيء ، فهو يعتبر خروجه هذا إلى البحر مثل خروجه في المرات السابقة ، اي كواجب عليه تجاه ابيه بصرف النظر عن اي اعتبار آخر . . . والقى نظرة على ابيه وهو منهمك ، من جهته ، في الاستعداد فترك ما بين يديه واتجه نحو ابيه ليقول له في خجل :

ـ ابي . . اريد ان اقول لك شيئا . .

ورفع الاب اليه نظره متسائلا ، فقال :

ـ انني آسف . . وأعتذر . . عما قلته الليلة البارحة . .

وابتسم الاب في عطف وهو يجيب مستأنفا عمله :

ـ لاعليك . . لاعليك ياولدي . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الخامس

في الموعد المحدد جاء الشيخ صديق ببناته الصغيرات . . .

والقى حسونة من مكانه نظرة على القادمات اللائي ارتفعت ضحكاتهن الطفولية منذ ان اقتربن من المركب ، وكانت معالم الرفاهية والاناقة بادية عليهن .

وتبادل الدخش وصديق التحية من بعيد ؛ وسارع الصياد يرحب بالشيخ ويدعوه إلى مشاركتهم الرحلة ، ولكن الشيخ اعتذر قائلا انه مرتبط بالتزامات هامة وانه يترك بناته في رعاية الدخش من بعد رعاية الله . .

وخفّ الدخش بنشاط إلى الشاطىء — سائرا على قطعة عريضة من الخشب كان قد اقامها مابين الشاطىء والمركب لكي تعبر البنات عليها — واخذ يحمل ضيفاته الصغيرات واحدة بعد الاخرى لينقلهن إلى المركب ، حتّى إذا بقيت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كبراهن – واسمها «عزة» – تردد ، فقد كانت على صغر سنها فارعة العود ، بادية الجمال ، ظاهرة الكبرياء . .

ومد اليها يده لتستند عليها ، وساعدها على الانتقال إلى المركب عبر قطعة الخشب المقامة لهذه الغاية . .

ووقفت عزة تجيل بصرها في ارجاء المركب وعلى وجهها معالم الضيق والتأفف ، وبعد ان استكملت عيناها جولتهما اتجهت بهما إلى الدخش وقالت بشيء من الاستخفاف :

– هيّ دي المركب اللي قال ابويا عنها ؟ . .

وشعر الدخش بصدمة ، فقد كان مركب زميله العود اجمل مراكب الصيادين على الاطلاق وقد عني صاحبه بنظافته وطلائه وزينته . .

وقفز ذهن الدخش في الحال إلى قاربه المتداعي ، وتساءل في سره عما كانت الفتاة ستقوله لو انه دعاها لركوبه بدلا من مركب العود . .

وقال بشيء من الارتباك :

– هذي يا بنتي افضل مركب على الشاطىء كله . . وانا استعرتها مخصوص علشانك وعلشان اخواتك . .

ولم تجب الفتاة بشيء ، بل دلفت إلى داخل المركب بحذر وكأنها تخشى ان تتسخ قدماها من ارضيته . .

وكان حسونة قد توقف عما كان فيه من تجميع اللعف عندما سمع الكلام الذي دار بين الفتاة وابيه ، وشعر بالغيظ يجتاحه اذ سمع كلام الفتاة المترفة ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكاد ان يرد عليها بخشونة طالبا اليها ان تغادر المركب اذا كان لم يعجبها ، ولكنه تمالك نفسه بحكم ماجبل عليه من قدرة على التحكم بأعصابه ، وحوّل نظره إلى ابيه الذي بدا عليه الارتباك والخجل ، فقرر ان يملك نفسه ، وان يكتّم ما بها مهما بدر من الفتاة ، اكراما لابيه الذي كان يعتبر هذه الخدمة التي يؤديها للشيخ صديق حدثا هاما اولاه كل اهتمامه ، وحرص على استكمال استعداداته له منذ ان طلب اليه الشيخ صديق ان يقوم به . .

وانتبه حسونة من خواطره على صوت ابيه وهو يطلب اليه ان يساعده في رفع المرساة وتوجيه الشراع ، والانطلاق بالمركب إلى عرض البحر ، فلبى ما طلبه منه ابوه في سرعة ونشاط ، وما هو الا بعض الوقت حتّى كان المركب في طريقه ، فارتفعت صيحات الصغيرات في حبور وابتهاج ، واخذن ينظرن إلى الرذاذ الكثيف المتطاير على جانبي المركب في سعادة ، وبدا للدخش ، مع كثير من الارتياح ، ان الرحلة قد بدأت بداية موفقة رغم ما كان يشعر به من غضاضة بسبب التعليق الذي بدا من كبرى بنات الشيخ صديق . . .

وكان الدخش قد قدّر ان بنات الشيخ سوف يطالبن ممارسة الصيد بأنفسهن ، بل لقد عوّل على ان يعلمهن اياه ، وان يشعرهن بمتعة رفع الجلب وفي نهايته سمكة تختلج ، فأعد مايلزم المدلك ومضى يعلمهن ، كلا على حدة ، كيفية القاء الجلب والانتظار وهو يوجه التعليمات والملاحظات وكأنه مدرب في مدرسة بحرية . .

ويبدو ان « اللعبة » قد راقت لابنة الشيخ صديق الكبرى بصورة استغرقت اهتمامها كله ، فكانت تلقى الجلب إلى البحر ثم تنحني على الماء باهتمام شديد وكأنها تريد ان ترى السمكة وهي تلتهم الطعم ثم تعجز عن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفرار ، ثم لاتلبث ان ترتفع في الهواء وهي تنتفض لتصبح صيدا يدخل المتعة على صاحبه . .

وكانت عزة تتلهف على ان تصطاد شيئا ، وهي تحسب ان الصيد يأتي بمجرد القاء الجلب في الماء . وكانت تنظر بغيظ إلى اخواتها اذا رأت ان احداهن قد اصطادت شيئا ، فتنحني على الماء وتصيح بالجلب ان يؤدي مهمته بسرعة ، وحتى اذا اصطادت سمكة ورأت احدى اخواتها قد اصطادت اكبر منها ضربت ارضية المركب في غيظ وحنق .

ورأى الدخش ان عزة في حاجة إلى عناية خاصة ، فصاح بولده الذي كان في اقصى المركب عند الدفة :

– تعال ياحسونة يا ولدي . . ساعد عمتك عزة . . .

وتجهم وجه حسونة ، اذ سمع عبارة ابيه ، فسار في تمهل إلى حيث وقف الاب وهمس في اذنه قائلا :

– ارجوك يا ابي . . لاتحرجني . . هذه البنت ليست عمتي . . انني على استعداد لان اساعدها ولكن ارجوك . . لاتقل انها عمتي . . .

وحدّق الاب في وجه ولده بدهشة ، فقد استغرب ان يقيم حسونة اهمية لهذا الامر ، وان يستنكر في ادب وهدوء ان يصف ابوه بنت الشيخ صديق بأنها « عمته » . .

وانفرجت اسارير الاب في ابتسامة عريضة ، وربت على كتف ولده ملاطفا وقال :

– خلاص ياحسونة . . لن اقول تلك الكلمة مرة اخرى . . والمهم ان تساعد « البنت » وترعاها . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واومأ حسونة لابيه موافقا ، واقترب من عزة ، وراح يوجهها إلى الطريقة السليمة للصيد ، والفتاة تبدي سعادة فائقة بتنفيذ تعليماته . .

وبينما هو مستغرق في ذلك ، اتاه صوت ابيه وهو يناديه من مقدمة المركب :

– هه . . كيف سوّت عمتك عزة ؟ . . هل استطاعت اتقان العمل ؟ . .

وشعر حسونة بالغيظ ، حتّى اضطرم وجهه بحمرة قانية ، ورمق اباه من بعيد بنظرة مستعطفة يرجوه فيها ان يكفّ عن اعتبار الفتاة « عمته » لاسيما وانه كان قد وعده بذلك فعلا ، ولكن الاب وهو في غمرة انهماكه بضيوفه الصغار لم ينتبه إلى انه قد خالف ماكان قد وعد به . .

ونظرت اليه الفتاة نظرة تأنيب وهي تقول في تأفف :

– ايش هذا ؟ . . صار لي دقائق وانا انتظر ان اصطاد سمكة . . ومازلت انتظر . .

وصوّب اليها حسونة نظرة حادة وقال بلهجة قاسية :

– الصيد يبغاله صبر . . واللي ما يصبر ما يقدر يصطاد شي . .

وقالت الفتاة بنفس اللهجة المتعالية :

– الاحسن انك ما تضيع الوقت بالكلام . . وتجيب لي خيط تاني علشان اصطاد اكثر . .

وعض حسونة على شفته السفلى في قهر ، وكاد ان يلقي اليها بجواب لاذع يعبّر لها به عن رأيه فيها ، ولكنه تمالك نفسه وقدّر أن انزعاج الفتاة سوف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكون سببا في انزعاج ابيه ، وما كان له ان يتسبب في ذلك مهما كانت الظروف وهو يعلم أن أباه يولي هذه الرحلة كل اهتمامه . .

وتنهد في غيظ مكظوم ، ومضى يعد للفتاة ما طلبت وهو صامت . .

وفجأة صاحت الفتاة بسرور ، فقد اهتز الخيط مما دل على ان سمكة قد علقت به ، فهرع حسونة اليها يساعدها ، وما ان ارتفعت السمكة في الهواء حتى قالت الفتاة في سخط :

– ايش هذا ؟ . . سمكة صغيرة ؟ . . انا ابغى سمكة كبيرة . . سمكة كبيرة مرّة . .

وعاد الغيظ يجتاح حسونة ، وهم بأن يوجه اليها جوابا قاسيا يقول لها فيه ان السمك ليس رهن اشارتها ، وان كونها ابنة الشيخ صديق لايخولّها حق اختيار نوعية السمك الذي تصطاده ، وان الصيد هو قسمة ونصيب ، ولاخيار لامهر صياد في العالم به . .

ولكن قدرته الفائقة على التصابر ، جعلته يطوي جوابه هذا بين ضلوعه ويبادر إلى مساعدتها دون ان ينبس ببنت شفة . .

وهكذا انقضى الوقت . .

الدخش يحاول جهده لرعاية بنات الشيخ صديق ، وادخال البهجة والمتعة على نفوسهن وحسونة يبذل جهده لارضاء عزة على حساب اعصابه ، فيكتم غيظه مما يرى من مظاهر اعتيادها القاء الكلام على عواهنه ولو تسبب في ايلام الآخرين ، والرغبة في ان تتحقق مطالبها كلها حتى ولو كانت نوعا معينا من السمك تريد ان تصطاده او ضرورة ان يسارع السمك إلى التهام اللعف الذي تلقيه اليه فور وصوله إلى الماء . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال حسونة في نفسه والغيظ يتأكله :

– هذه فتاة اعتادت على ان تأمر فتطاع . . وان تجد الجميع رهن اشارتها . . يلبون طلباتها . . ويستجيبون لنزواتها . .

وما اكثر مانازعته نفسه لأن يطرح قدرته على الصبر جانبا ، وان يلقنها درسا يجعلها تنتبه إلى نفسها ، وتعرف ان طريقتها هذه ليست هي الطريقة المناسبة للتعامل مع الناس ، ولكن نظرة منه إلى ابيه وهو يوجه اهتمامه لانجاح الرحلة ، وادخال السعادة على نفوس بنات الشيخ صديق ، تجعله يتراجع عما خطر له ، ويتحمل كل مابداله من الفتاة من تصرفات تتسم بالكبرياء والاستخفاف بالآخرين . .

واخيرا ، آذنت الرحلة بالانتهاء ، فأدار الدخش مقدمة المركب نحو الشاطيء وهو يشعر بسعادة عميقة ، فقد كانت الرحلة ناجحة إلى اقصى الحدود ، وازدادت سعادته وهو يسمع ضحكات الصغيرات وصياحهن ومرحهن ، وهذا هو كل ما يهمه ، لان ارضاء الشيخ صديق وتلبية رغبته في الخروج ببناته في هذه الرحلة كان هو الغاية ، ومن فضل الله تعالى ان هذه المهمة قد تحققت على اتم ما ينبغي . .

وكانت حرارة الشكر الذي ازجاه الشيخ صديق للدخش خير جزاء – في نظره – على مالقي من عناء في ترتيب الرحلة والقيام بها . .

واعرب الدخش عن انطباعاته هذه عندما عاد وولده إلى البيت ، وعبّر عن رضاه البالغ عما تحقق هذا اليوم من نتائج ارضت الشيخ صديق ، ولم ينس ان ينوه ، وهو يضحك ، عن ضيق حسونة بوصفه كبرى بنات الشيخ صديق انها « عمته » . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وابتسم حسونة ابتسامة مغتصبة ، ولم يحاول ان يشرح وجهة نظره التي تتفق مع ما يشعر به من اعتزاز بنفسه ، وثقة بامكاناته ، وما مسّت تصرفات الفتاة — اللامسئولة حسب رأيه — من تلك الثقة وذلك الاعتزاز . .

كان حسونة يشعر بألم الجرح الذي احدثته تلك الفتاة — التي دعاها « الدلوعة » بينه وبين نفسه — في كبريائه وكرامته . .

كان الغيظ يفترس كل ذرة من كيانه ، اذ لم يعبر للفتاة عن رأيه فيها ولم يؤنبها على تصرفاتها الصبيانية الرعناء . .

ولكن استرسال الاب في الاشادة بالشيخ صديق وبناته ، وتركيزه على ما تتصف به عزة من جمال جعلا حسونة يعلّق ، دون انتباه منه ، على كلمات ابيه قائلا :

— اخشى ان اكون مخالفا لرأيك يا ابي . . فالفتاة في حاجة إلى من يشدّ لها اذنها . . او يوجه لها صفعة كي تعود إلى صوابها وتعرف ان للناس كراماتهم ومشاعرهم وكبرياءهم . .

وضحك الدخش وهو يفسر الامر كما يراه هو :

— انك تبالغ كثيرا ياحسونة . . ولا يجمل بك ان تقيم وزنا لتصرفات طفلة مثلها . . نحن من جهتنا كنا نؤدي واجبا تجاه الشيخ صديق الذي طلب الينا ان نأخذ بناته في رحلة بحرية . . وقد نجحنا في ذلك ولله الحمد . . وهذا يكفي . .

وهتف حسونة على الفور :

— طفلة ؟ . . احسب ان الخطّاب قد بدأوا في التوافد على ابيها . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقهقه الدخش بسرور واجاب :

ـ جائز . . ولكنها مازالت طفلة على اية حال . .

وقال حسونة :

ـ اعتقد انها لاتصغرني بأكثر من عام او عامين . .

وامّن الاب على كلامه :

ـ اعتقد ذلك . .

واعتصم حسونة بالصمت ، فلقد كان عسيرا عليه ان يشرح لابيه وجهة نظره ، وان يعرب له عن احاسيسه ، لاسيما وانه كان حريصا على الايعكر صفو نشوته بما اعتبره انجازا هاما في علاقته بالشيخ صديق . .

* * *

ولاول مرة عرف حسونة السهاد . .

كان يشعر بالتعب يهد جسمه هدّا ، مع ان المجهود الذي بذله في يومه هذا هو اقل من المجهود الذي اعتاد ان يبذله في رحلات الصيد . .

وراح يستعرض احداث يومه لحظة بلحظة . .

كان طيف الفتاة يلوح له فيمنعه من الرقاد . .

وكانت تصرفاتها وكلماتها تردد في خياله واحدة راحدة . .

كان غاضبا . . متألما وهو يتذكر تصرفاتها المتعجرفة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان يشعر بالقهر لانه لم — ولا — يستطيع ان ينفّس عن غضبه ، وان يعبر للفتاة عن ضيقه من مسلكها « السخيف » وان يبين لها انه لايقل عنها كبرياء وثقة بنفسه . .

ولكن شعوره بالمسئولية ، ومراعاته لخواطر الآخرين ، يحولان بينه وبين ان يؤذي الناس كما فعلت هي . .

كما ان حرصه على عدم التسبب في اي ازعاج لابيه كان سببا آخر فيما التزمه ، هذا النهار ، من تمسك بالصبر ، واعتصام بالهدوء الذي يخفي وراءه عواصف من الغضب . .

وما يدري حسونة كيف تسلل النعاس إلى اجفانه . . ولامتى نام . . ولكنه لاحظ انه قد استيقظ نشطا ، وقد زال عنه كل اثر لتعب الامس . .

واذ خطرت له عزة ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، فقد بدا له ان كل ما حدث لايستحق منه اي اهتمام ، وانه قد بالغ في السماح لمشاعر الغضب والضيق ان تسيطر عليه وتؤرق ليلته . .

وحمل كتبه وتوجه إلى مدرسته وقد طويت — في اعتقاده — صفحة ماحدث بالامس بكل ما فيها من اسباب الغيظ والغضب و . . الارق . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل السادس

نسي حسونة ، خلال الايام التالية ، كل ما يتعلق بتلك الرحلة البحرية التي قام بها ابوه تكريما لبنات الشيخ صديق . . . وما كان فيها من منغصات عانى منها حسونة ، وحده ، بسبب تلك الفتاة المتعجرفة التي أثارت غيظه وغضبه . .

وسارت الحياة في بيت حامد الدخش كما كانت تسير من قبل . .

حسونة في مدرسته يواصل دراسته ويخرج مع ابيه إلى البحر في العطل ، وقد اصبحت الحياة اكثر سهولة على الصياد العجوز سواء بسبب مشاركة حسونة له في عمله ، او بسبب الافكار التي جاءه بها ولده للحصول على أكبر صيد ممكن في اقصر وقت ممكن وبأقل مجهود ، او بسبب ما كان الشيخ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صديق يمده به من المال في اوقات الحاجة ، بحيث لم يعد تأمين اللقمة يسحق الدخش . جسديا ونفسيا ، كما كان يحدث من قبل . .

وكان يمكن ان تستمر الحياة في بيت الدخش على وتيرتها تلك ، وان تظل صورة مكررة لكل ما يحدث في بيوت الصيادين على شواطىء جدة القريبة من الميناء ، لولا ان الاب عاد ذات يوم متهلل الوجه ، مستبشر الطلعة، ليعلن لاهل بيته :

ـ الشيخ صديق يريد ان اخرج ببناته في رحلة بحرية اخرى . . .

وكانت رنّة السرور والانتصار تبدو بوضوح في كلماته وكأنه يزفّ إلى العائلة نبأ عظيما . .

ورفع حسونة وجهه عن الكتاب الذي كان يقرأ فيه وهو جالس في ركن من الغرفة ، وقد شعر بأصابع فولاذية تعتصر قلبه . .

وقال في هدوء :

ـ وهل هذا ضروري يا ابي ؟ . .

ودهش الاب وسأل ولده باستغراب :

ـ ماذا تظن انت ياولدي ؟ . .

فأرخى حسونة عينيه وثبتهما في الكتاب وهو يقول وكأنه يحدث نفسه :

ـ هو احنا فاضيين نجري ورا لقمة عيشنا والا نضيع وقتنا في تسلية بنات الشيخ صديق ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولمعت عينا الاب في فهم لما يعنيه الابن ، فقد تذكر ما كان من ضيق حسونة بتلك الرحلة التي قاما بها ، اول مرة ، لتسلية بنات الشيخ صديق ، وما كان من تعليقه عليها بعد نهايتها . .

وابتسم الاب في عطف وقال لولده في صوت جهد ان يكون طبيعيا :

ــ لاعليك ياولدي . . اذا كنت لاتريد الخروج فلا بأس . .

واجاب حسونة :

ــ انني طوع امرك يا ابي . . ولكنني كنت اقول . . اعني كنت افكر . انا قد لانستطيع العثور على مركب مناسب كما حدث في المرة الاولى . . وقاربنا كما تعلم . . .

وقاطعه ابوه في الحال :

ــ من جهة المركب تستطيع ان تطمئن . . فلقد رضي الاخ العود بأن يعيرني مركبه مرة اخرى . . بل انه عرض عليّ ان يرافقني في الرحلة . . انه رجل طيّب . . .

وصمت حسونة ، وعاد يلقي بنظراته على الكتاب الذي بين يديه وقد حلّقت افكاره في آفاق بعيدة . . .

لقد عادت تفاصيل الرحلة الاولى إلى ذهنه دفعة واحدة وتخيل كبرى بنات الشيخ صديق وهي تتصرف وتتحدث بطريقتها المترفعة التي اثارت غضبه وغيظه . .

ولقد خشي حسونة الا يتمكن في المرة التالية ، من السيطرة على اعصابه تجاه تلك الفتاة اذا ما تصرفت كما فعلت في المرة الاولى . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خشي ان يقول شيئا يحاول معه ان يعبّر للفتاة عن رأيه فيها ، او ان يفعل شيئا خارجا عن ارادته . . ان يصفعها مثلا . . فيما لو حاولت ان تعيد ما قالت وما فعلت من قبل . .

انه لايهمّ لما سيكون من نتيجة لذلك ، لان كرامته وكبرياءه اغلى عنده من كل شيء . . ولكن ما يهمه هو مايكون من ردة الفعل لدى ابيه ، فان ذلك سيحزنه ، وربما يغضبه ، وحسونة لايطيق ان يكون سببا في ايلام ابيه او ازعاجه مهما كانت الظروف . .

ثم ان عدم الخروج مع ابيه يعتبر تخلفا عن اداء واجب تجاه الاب ، وهو امر لايرضاه حسونة ايضا . .

ورفع حسونة بصره إلى ابيه ، والتقت عيناه بعينيه ، فقرأ حسونة في عيني ابيه عطفا عميقا ، وحبا بغير حدود . .

وقبل ان يفتح فمه ليتكلم قال له بلطف :

– كما قلت لك ياولدي . . لاعليك بشأن الخروج معي هذه المرة . . المهم هو ان تنصرف إلى دراستك . . سيساعدني الاخ العود . . فلا تزعج نفسك بشيء . .

ولكن حسونة ردّ بسرعة :

– لاتخش شيئا يا ابي . . سأكون معك . . وسأفعل كل مابوسعي لراحة بنات الشيخ صديق . . لقد ابديت لك رأيا فقط . . وامرك لي على الرأس والعين والله يعلم مقدار سعادتي بالعمل إلى جانبك . .

– ولكن . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– ارجوك يا ابي . .

واقبل حسونة على يدي والده يقبلهما بحرارة ، كأنما يريد بذلك ان يثبت له انه راغب حقا في مرافقته وانه غير منزعج من شيء . .

ولم يسع الاب ، ازاء ذلك ، الا ان يوافق وهو يدعو لولده بالتوفيق . . .

* * *

وبدأ كل شيء طبيعياً . . . تماماً مثل الرحلة السابقة . .

جاءت بنات الشيخ صديق وصياحهن يتصاعد في مرح محبب وهن يقتربن من الشاطىء . .

وراح الدخش يحمل الصغيرات واحدة بعد الاخرى إلى مركب العود وحسونة يتناولهن منه إلى ان جاء الدور على عزة ، واحس الدخش بالحرج وهو يتناول يدها ويعينها على ارتقاء قطعة الخشب العريضة التي اقامها ما بين الشاطىء والمركب . .

وصاح الدخش بحسونة ان يساعد الفتاة بعد ان باتت اقرب إلى سطح المركب ، فمدّ حسونة كلتا يديه ، وتناول بهما يدي عزة اللتين افلتتا من يدي الاب لتستقرا في يدي الابن . .

كانت اليدان ناعمتين ، تعبّران عن الترف الذي تعيشه صاحبتهما ، ويقينا انها لم تتجشم يوما عناء الغسيل ، ولا ساهمتا في تنظيف الاواني والأرض كما تفعل اختاه . . ان هاتين اليدين اللينتين لتفسران سر الكبرياء التي اعتادت عزة ان تعامل الآخرين بها ، فهما يدان لاتعرفان ، ولاتعرف صاحبتهما ، المسئولية ، وانما خلقتا ، فقط ، للتمتع بمسرات الحياة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومضت هذه الافكار كالبرق في ذهن حسونة وهو يساعد الفتاة على الوصول إلى سطح المركب ، وكان وجهه هادئا ، يقبل على ما كلّفه به ابوه بجدية دون ان ينم عما يعتمل في داخله من عواصف الافكار . .

وقفزت عزة إلى المركب برشاقة وهي تقول لحسونة بصوت خافت رقيق :

ـ شكرا لك . . ياحسونة . .

ورد حسونة على الفور :

ـ يا مرحبا بك . .

وكان صادقا في ترحيبه بها ، لالشيء الا لأنها كانت هذه المرة اكثر هدوءاً واتزانا وتلاشى من تصرفها ذلك الاسلوب المترفع في الحديث والحركة ، وبدت كما هي : فتاة صغيرة السن ، تتصرف بشكل طبيعي ، وتنظر إلى الآخرين نظرة عادية . .

وشعر حسونة بالارتياح ، لان بداية الرحلة اوحت بأن من المحتمل ان تسير على مايرام ، وان تخلو من المنغصات التي ازعجته في المرة السابقة ، وبذلك تكون الرحلة حدثا عاديا مثل اية رحلة صيد قام بها مع ابيه . . بلا مزعجات . . وبلا سبب من اسباب الارهاق النفسي . .

والواقع ان عزة تغيرت فعلا عما كانت عليه في المرة السابقة ، فقد كانت تخاطب حسونة بلطف وبشيء من الاهتمام ، وحتّى عندما بدأت تلقي بالجلب إلى الماء ، بمساعدة حسونة ، كانت تبدو اكثر هدوءاً عما كانت عليه في الرحلة السابقة ، سواء خرجت بسمكة صغيرة ، او مضى وقت طويل دون ان تصطاد شيئا . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا سارت الرحلة دون ان يحدث فيها ما يزعج حسونة ، مما كان يتوقعه ويتخوف منه ، وزاد في ارتياحه ان اباه لم يشر قط إلى عزة بصفتها « عمته » . . بل انه كان منهمكا في مساعدة اخوات عزة واصوات مرحهن تتردد في المركب . .

وفيما كانت عزة تجلس صابرة وقد تدلى الجلب في الماء ، منتظرة دون تأفف أو تذمر ، قالت مخاطبة حسونة دون ان تلتفت اليه :

— حسونة . . هل تحب البحر ؟ . . .

وفوجيء حسونة بالسؤال ، وتداعت إلى ذهنه كل افكاره واحلامه حول ان يصبح طياراً دون ان يتعارض ذلك مع ما يشعر به من حب عميق للبحر ، تعلّمه من ابيه وزاد عليه من مشاعره الفتية الخاصة شيئا كثيرا . .

والتفتت اليه عزة في نظرة استغراب وهي تتساءل :

— هه . . ليش ما ترد ؟ . .

فقال حسونة بشيء من الارتباك :

— لااظن ان احدا يمكن الا يحب البحر . . ولكن . .

— ولكن ايش ؟ . .

— انني . . انني احبه كشيء عايشته منذ ان وعيت على الدنيا . . ثم ازددت محبة له عندما صرت اخرج اليه ك . . كصياد . . ولكنني لا اتوقع ان اظل على صلتي به متى انهيت دراستي . .

واشرق وجه الفتاة في اهتمام واضح وهي تسأله :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

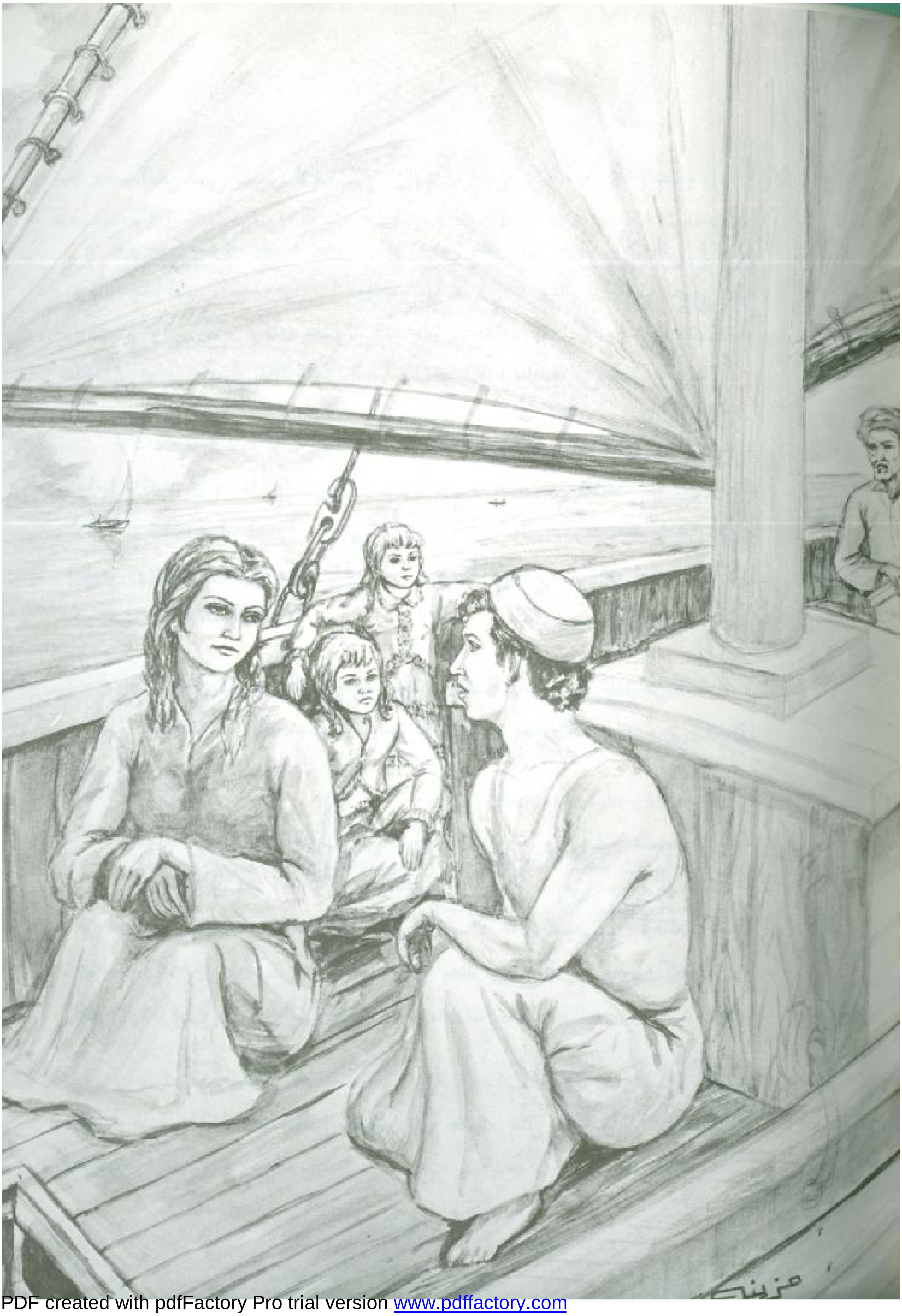

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– ايش تبغى تسوّي لما تخلص دراستك ؟ . .

ووجه حسونة بصره نحو البحر وهو ينظر في فضائه اللانهائي وتكلم وكأنه يخاطب نفسه ويوجه الحديث اليها لا الى عزة التي كانت تصغي اليه باهتمام وانبهار ، وكأن حسونة قد حقق احلامه فعلا ، وانهى دراسته ، واصبح طيارا يسبح بطائرته في اجواء البحر ذهابا وايابا كل يوم . .

وكان مما ارتاح له حسونة ان الفتاة كانت تصغي اليه بكل جوارحها ، وانها « تصدّق » كل ما يقوله لها ، وكانت الاسئلة التي تقاطعه بها بين جملة واخرى تتضمن استفسارا عن شيء لم تفهمه ، وكأن حسونة يحدثها عن شيء طبيعي وبديهي وليس عن احلام فتوّة مجنحة لايدري الا الله تعالى ان كان سيكتب لها ان تتحقق ام لا . . .

وطال الحديث بين الاثنين وتشعب ، وقد سهت عزة تماما عن الصيد ، وكأنها ماجاءت الا لتتحدث إلى حسونة ولتسمع منه الكلمات وهي تتدفق بحرارة وصدق واقتناع . .

وانتقل حسونة إلى الحديث عن البحر ، وراح يروي لها ما سمعه من ابيه وزملائه الصيادين من احاديث واقاصيص واساطير ، هي – في الاغلب – من نسج الخيال ولكن تناقلها من لسان إلى لسان كان يضيف إلى وقائعها اشياء جديدة وتفاصيل اخرى ، تجعل السامع يحار بين ان يأخذ بها كحقائق ، او يعتبرها ضربا من الخيال الخصب ليس غير . .

وحانت من حسونة التفاتة ، ففوجىء باخوات عزة وقد جلسن خلفهما على ارضية المركب صامتات يصغين إلى حديثه بمثل الاهتمام الذي كانت عزة تبديه . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشعر الفتى بالخجل ، وتوقف عن الحديث ، ولكن صيحات الصغيرات تصاعدت من حوله تطالبه بالمزيد ، وبحث حسونة عن ابيه بعينيه وكأنه يستنجد به فوجده جالسا إلى الدفة يوجهها وهو ينظر اليهم من مكانه في رضى وسعادة . . .

ولم يجد حسونة بدّا من الاستسلام ، واستأنف الحديث وهو يوجه اهتمامه إلى الصغيرات جميعا دون ان ينتبه إلى ان عزة كانت اكثرهن اصغاء واهتماما ومتابعة لكل كلمة من كلماته . .

• • •

ـ الحمد لله . . ثم الحمد لله . . لقد كانت هذه النزهة بفضل الله افضل بكثير من المرة السابقة . .

هكذا اوجز الدخش نتائج الرحلة الثانية التي قام بها مع بنات الشيخ صديق تابية لرغبة صديقه العزيز . .

واضاف الدخش مخاطبا زوجته :

ـ ياريتك شفتي حسونة وهو جالس يتكلم مع بنات الشيخ صديق وكأنه بحار عجوز قضى على صفحة البحر الف عام . .

وضحك الجميع ، وكان حسونة بين الضاحكين ، فهو لايشعر هذه المرة بالمرارة والسخط اللذين اسفرت عنهما الرحلة الاولى ، وبالتالي فهو يعتبر ان رحلة اليوم كانت موفقة من كل الوجوه ، اذ خلت مما كان يتوقعه ويتخوف منه من المنغصات . .

وطلب اليه ابوه ان يحدثهم عما كان عليه يومه ، وعن سرّ استغراقه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعزة في ذلك الحديث الطويل الذي اجتذب اليه اخواتها فجعلهن يصغين اليه بذلك الاهتمام . .

واستجاب حسونة إلى رغبة ابيه ، فمضى يروي وقائع الرحلة كما عاشها وخلا حديثه من اي انتقاد للفتاة التي كانت سببا في انزعاجه اول مرة . .

وقال حسونة مضيفا :

– يبدو انني لم افهم عزة على حقيقتها في المرة الاولى . . وقد انزعجت اذ ذاك من تصرفاتها وانفعالاتها . . وكان عليّ ان ادرك انها فتاة مترفة و « مدلعة » وكان عليّ الا انزعج كما فعلت في المرة السابقة . .

وسأله ابوه باسما :

– وهل ارتحت اليها هذه المرة اكثر من الرحلة السابقة ؟ . .

– ربما . . ولكنها ، على اية حال ، من عالم آخر . .

– ماذا تعني ؟ . .

– اعني انني اعتقد ان الرفاهية قد افسدت عليها حياتها . .

– وهل الرفاهية سوء يابني ؟ . .

– لابالطبع . . ولكن السوء ان نجعلها تفسد علينا جمال حياتنا الطبيعية . .

– انت فيلسوف . .

– تعني انني واقعي ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وضحك الاب في عطف ، فهو لم يكن يجهل حقيقة مشاعر حسونة الذي يعتز بنفسه تعبيرا عن رفضه لان يكون مقياس النظر اليه هو ما يملك من مال او جاه . .

لقد فهم الاب الذي خبر الحياة وعرف من امور الدهر شيئا كثيرا كل مشاعر ولده سواء تلك التي كانت سلبية تجاه الرحلة الاولى واصراره بشكل عجيب على ان عزة ليست « عمته » ورجاؤه إلى ابيه بألا يصفها هكذا امامها، ثم استكانة مشاعره وردود فعله الحيادية عندما تغير سلوك الفتاة تجاهه من الترفع إلى التواضع ، ومن الكبرياء إلى التفاهم ، ثم إلى ذلك الاستغراق العميق في الحديث بصورة لم تغب عن عيني ، وذهن ، الاب اللمّاح بالفطرة . .

وهكذا امن الاب من انزعاج الابن من مرافقة بنات الشيخ صديق في رحلة بحرية ثالثة عندما طلب منه صديقه ذلك ، ومرّت الرحلة بسلام كسابقتها . .

والحق ان الخروج إلى البحر مع بنات الشيخ صديق اصبح شيئا طبيعيا في حياة الدخش وولده ، لان هذا الطلب تكرر عدة مرات من الشيخ صديق ، بل ان هذا الاخير ، نفسه ، قد رافقهم في رحلة او رحلتين ، وبات « العود » — صاحب المركب — يرافقهم ايضا في بعض تلك الرحلات ، ولكن ذلك كله لم يخرج في نظر حسونة عن ان يكون سعيا وراء الرزق كالخروج للصيد مادام الشيخ صديق قد كفاهم مؤونة الحاجة ، واستمر في امداد الدخش بما يحتاجه من المال بشكل منتظم ، ليستردّه كلما عاد الدخش من البحر بصيد كثير او قليل . .

واستطاع الشيخ صديق ان يلمس ما انطوى عليه حسونة من مشاعر الاعتزاز بالنفس، والطموح ، والهمة ، والرجولة المبكرة، فأكبر فيه ذلك ، واعجب بما رآه منه وتلطف معه في الحديث مشجعا اياه على ان يواصل سعيه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في سبيل التقدم في الحياة ، واكتساب العلم الذي يؤهله ليتبوأ درجة مرموقة في المجتمع . . .

وازدادت الصلات بين الشيخ صديق والدخش قوة وتوثقا لدرجة دعا الشيخ صديق معها صديقه الدخش إلى زيارة عائلية ، تصحبه فيها زوجته وابناؤه . .

وكانت هذه الدعوة حدثا هاما في حياة اسرة الدخش ، فهي لم تقم بمثلها من قبل ، وهي لاتستطيع – بالمقابل – ان ترفضها او تعتذر عنها لعدم توفر الملابس اللائقة ، ولكن الدخش حلّ هذا الاشكال بأن اعطى زوجته ما يكفي لتبتاع لنفسها وابنتيها ما يحتجن اليه من اللباس المناسب ، اما حسونة فقد اعتذر بلطف عن المشاركة في تلبية الدعوة ، وادعى لابيه ان عليه كثيرا من الواجبات المدرسية التي يتعين عليه انهاؤها ، ولم يلح ابوه عليه فهو يفهم الاسباب التي املت عليه ذلك ولم يشأ ان يضايقه . .

ولم تكد الاسرة تعود من الزيارة حتى انهال حسونة عليها بالاسئلة المتلاحقة :

– هه . . كيف كانت زيارتكم ؟ . . هل عاملوكم معاملة طيبة ؟ . . هل احترموكم ؟ . . الم يصدر منهم شيء يمس كرامتكم ؟ . . هل كنتم مرتاحين خلال الزيارة ؟ . .

ولم يكن بوسع امه واختيه ان تجيبا على اسئلته من الزاوية التي ينظر منها ، هو ، إلى الامور : فالام قد اعتادت عيش الكفاف الذي رافقها طوال حياتها والذي يجعلها تنظر إلى كل ما يمر بها نظرة استسلام وقبول ايا كان نوعه ، وكانت تنظر إلى من هم احسن منها ، ماديا ، نظرة احترام مشوبة بذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستسلام ، فالارزاق من الله تعالى ، يعطيها لمن شاء بحكمة – ولحكمة – يعرفها جلّت قدرته ، فما كان لها ان تميز بين مايعاملها به الناس بميزان بالغ الحساسية كميزان ولدها حسونة ، ويكفي – في نظرها – ان تستقبلها عائلة الشيخ صديق بالترحاب ، وان تتناول الطعام على مائدتها ، وان تحتسي معها الشاهي ، من ثم ، في رضى دون ان توجّه انتباها للكيفية التي تم بها ذلك والمعاملة التي عاملتها بها زوجة الشيخ صديق . .

واجابت الام على اسئلة ولدها بسذاجة وبساطة ، فليس عندها ماتشكو منه في هذه الزيارة التي لم يسبق لها ان قامت بمثلها ، ولم يفتها ان تنوه باعجاب عفوي عن « الست عزة » ابنة الشيخ صديق ، بجمالها وكمالها ، وادبها واحتشامها وعما احاطتهن به من عناية وتكريم :

– الله يسلمها بنت الشيخ صديق الكبيرة . . ايش اسمها ؟ . . آه . . اسمها عزة .. دي زى السكرة .. جمال وكمال . . وادب وحشمة .. ماشاء الله كان ..

ونظرت الام إلى ابنها نظرة حانية ، ثم رفعت رأسها ويديها متجهة إلى السماء تبتهل في حرارة :

– الهي وانت جاهي . . تجعل الست عزة من نصيب ابني حسونة . . يارب . .

وصعق حسونة ، ونظر إلى امه بذهول ، اذ لم تكن امنية الام هذه قد خطرت له ببال فقال دون تردد :

– كلام ايه ده يا امي ؟ . . ايش خلاكي تقولي كده ؟ . .

وردت الام بثقة وايمان :

– ربنا قادر على كل شيء . . وهذه امنيتي . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم يجب حسونة، اذ لم يكن قادرا على ان يفهم امه وجهة نظره في علاقة عائلته بعائلة الشيخ صديق . . فهي تنظر إلى الامور بمنظارها الساذج البسيط ، ولا تستطيع ان تفهم ، او تتفهم ، وجهة نظره فيما لو ادلى اليها بها . .

وامّن الاب على دعاء ام حسونة وهو يبتسم :

— ربنا يسمع منك يا ام حسونة . .

وقال حسونة بلهجة عتاب مهذبة :

— ابويا . . ؟ . . .

فقال الاب وابتسامته تزداد اتساعا :

— ليه لأ يا والدي ؟ . . ربنا قادر على كل شيء . .

واحمرّ وجه حسونة ، فهبّ واقفا ثم غادر الغرفة بسرعة بينما ابواه يرمقانه في عطف ومحبة . .

واذ خلت الغرفة من حسونة ، اقبلت الام على زوجها تحدّثه عن عزة حديثا مستفيضا . .

قالت له انها اعجبت بالفتاة اعجابا بالغا ، وان سلوكها الذي يدل على ماتعيش فيه من رغد ورفاهية ، دون ان ينتقص من ادبها وتهذيبها ، قد اعجبها واشارت إلى العناية الزائدة التي وجهتها الفتاة اليها ، وحرصها على خدمتها والاشراف بنفسها على راحتها . .

ونوّهت عن الحديث الذي دار بينها وبين الفتاة في معزل عن مسامع الآخرين حول حسونة ، فقد ابدت الفتاة تقديرها له ، واثنت على همته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونشاطه وادبه ، وسألتها عنه اسئلة كثيرة . . عن طفولته . . عن صباه . . عن حياته في المنزل . . عن حياته في المدرسة . . عمّا يفضل من المآكل . . عمّا يحلم به ويتطلع اليه . .

واضافت الام إلى حديثها ماتعتقد انه وجهة النظر الصحيحة ، وهي ان حسونة قد استلفت انتباه الفتاة ، وانها توليه – بشكل او بآخر – كثيرا من اهتمامها ، وانها – اي الام – على استعداد لان « تقطع ذراعها » إذا لم يكن ذلك كله يعني ان الفتاة لن تمانع لو ان اهل حسونة تقدموا إلى ابيها طالبين يدها لولدهم الوحيد . .

وكان الدخش يصغي إلى كلام زوجته صامتا وهو يمر بيده على لحيته في حركة رتيبة تدل على استغراقه في الاصغاء ، ويهز رأسه بين الفينة والفينة مؤمّنا على ذلك الكلام ، موافقا عليه ، فهو – ايضا – قد لاحظ ما اشارت اليه زوجته ، ونوّه عنه في معرض المداعبة اذ اشار إلى استغراق الفتى والفتاة في الاحاديث الطويلة . .

وانتهى الحديث بين الدخش وزوجته بدعاء إلى الله ان يحقق آمال الام في ان ترى عزة زوجة لحسونة ، فهما لم يشعرا قط ان تحقيق تلك الآمال ضرب من المحال ، بل هما إلى امكان تحقيقها اقرب إلى الاقتناع والتصديق . .

وتوقفت الام عن الحديث ونظرت إلى زوجها منتظرة تعليقه ، فهزّ هذا رأسه ويده لاتزال تمر على لحيته بتلك الحركة الرتيبة :

– كل هذا الذي قلناه حسن وجميل . . ولكن . .

ونظرت الزوجة اليه بقلق وهي تتساءل :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لكن ايش ؟ . .

وقلب الدخش شفته السفلى قائلا :

ـ مدري . . ولكن المسألة ليست بسيطة . . هناك الشيخ صديق . . هل يقبل ياترى ؟ . . ثم هناك حسونة . .

ـ ماله حسونة ؟ . .

ـ تعتقدي انه يحب البنت ويبغاها ؟ . .

ـ ليه لأ ؟ . .

ـ اسأليه هـــوّ . .

واخلد الاثنان إلى الصمت برهة ، ثم استطرد الدخش قائلا ببطء :

ـ ربنا يسمع منك ويجعل البنت دي من نصيبه . . بس متهيأ لي انه الولد ما هو مفكر في الحاجات دي . .

وردت الام بسرعة :

ـ هوّ بسم الله ماشاء الله صار رجال . . وكلها كم سنة وياخذ الشهادة ويبني مستقبله . .

واختتم الاب الجلسة بهزّة من كتفيه عبّر بها عن عدم قدرته على الادلاء برأي حاسم ثم قال :

ـ ربنا يسمع منك . . ويبعث لابننا بنت الحلال اللي تسعده وترضيه . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأمنت المرأة على كلام زوجها الذي نهض متجها إلى الغرفة المجاورة باحثا عن حسونة ، فوجده مستغرقا في قراءة دروسه كعادته ، وكأن شيئا ما لايشغله سوى هذه الدراسة . .

وانتبه حسونة إلى دخول ابيه ، فرفع بصره اليـــه متسائلا ، فابتسم الاب بعطف وقال له وهو يستدير للخروج :

ــ لاشيء ياولدي . . ربنا ياخد بيدك . . وينجّح مقاصدك . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتمنى ان يكونه عندما كان صغيرا . . فوجد انه كان يتمنى في بعض الاحيان ان يكون ضابطا ، وذلك عندما شاهد بعضا من الجند يقومون بتمارينهم اليومية في ساحة « القشلة » وضابطهم يوجههم ويصدر اليهم الاوامر والايعازات . .

ومرة اخرى تمنى لو اصبح مثل الشيخ صديق ، وكان ذلك بعد يوم مرهق عانى فيه كثيرا من التعب والنصب في الصيد ، فاتجه ذهنه إلى صورة رأى نفسه فيها ، جالسا على دكة وحوله صبيانه وغلمانه من مستخدميه ، يأمرهم وينهاهم ويشتري محصول الصيادين وهو يمد يده إلى صدر ثوبه ليخرج منه كيسا من الجلد المهترىء قد حشاه بالقطع النقدية ، فيأخذ في عدّ نصيب كل صياد بعناية ليدفعه اليه ، ثم يعيد كيسه إلى داخل صدر ثوبه ، ويستأنف جلسته المسترخية التي لايعاني معها شيئا من التعب والنصب اللذين يعاني منهما الصيادون . .

ومرة ثالثة تمنى حسونة لو اصبح ربّانا لاحدى السفن الكبيرة التي كانت تؤم ميناء جدة . . وكان ذلك عندما دخل مع ابيه إلى الميناء ، وصعدا إلى اعلى السفينة بعد ان استأذن ابوه صديقا له من موظفي الميناء ، فنظر حسونة مبهورا إلى الربان بلباسه « الكحلي » الانيق والازرار الصفر تلمع على سترته ، والقبعة المذهبة تعلو رأسه ، وكان الربان اجنبيا يضع في جانب فمه « بيبة » يدخنها وهي مثبتة بين اسنانه ، فيخاطب الناس ودخانها يتدافع من فمه ، فخيل لحسونة في غمرة ذلك الانبهار ان الربان — ولاشك — شخص مهم ، يمارس عملا مهما ، هو — بكل تأكيد — خير من عمل صيادي الاسماك ، لاسيما وانه يسيطر على سفينة هائلة من الفولاذ لها مدخنة ضخمة ، وعلى متنها كثير من البحارة الذين يعملون وفق اوامر ربانهم ، ووجد انه لامجال للمقارنة — واية مقارنة ! — بين هذه السفينة الجبارة وبين قاربهم المتداعي . .

لم يعد ذهن حسونة يتجه إلى مهنة بعينها ، وانما إلى افكار عامة تقوم على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسس واقعية من المعلومات التي بات يعرفها عن التخصصات التي يوفد المبتعثون من اجلها ، فكان يؤجل اختيار الاتجاه النهائي إلى حين البت في امر ترشيحه للابتعاث ، وتقرير ذلك فعلا ، فربما يستبعد اسمه لاي سبب من الاسباب ، ولذا فهو لايمكن ان يعتبر نفسه مبتعثا الا إذا تبلغ ذلك رسميا ، اما الآن – وقبل ظهور النتيجة – فان التريث في اطلاق العقال للاحلام والتخيلات هو خير مايفعل . .

وان هي الا ايام سمع الدخش بعدها طرقا شديدا على باب المسكن وكأن الطارق لايطيق الانتظار ثوان معدودة ريثما يفتح الباب ، فهو يستحث من في الداخل بذلك الطرق الشديد . .

ونهض الدخش وهو يبذل جهده ، قدر الامكان ، للاسراع وهو يقول :

– خيرا ان شاء الله . . اللهم اجعله خيرا . .

ثم يرفع صوته مخاطبا الطارق :

– طيب . . طيب . . هي الدنيا طارت ؟ . .

وفتح الباب ليرى وراءه ولده حسونة وقد شعّت من وجهه سعادة طاغية ، فهتف وهو يعانق اباه ويقبّله قبلات متلاحقة :

– بارك لي يابوي . . لقد اختاروني للبعثة . .

فأشرق وجه الاب بمثل سعادة ولده ، ودمعت عيناه ، ورفع يديه إلى السماء وهو يقول بصوت متهدج :

– الحمد لك يارب . . ما اكرمك يارب . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وضجّ البيت كله بسعادة البشرى ، وارتفعت عبارات الحمد والشكر لله على هذه المنّة ، مع ان الام وابنتيها لم تدركا – بالضبط – ماتعنيه تلك البشرى ، إذ كان يكفيهنّ ان حسونة وأباه سعيدان لتنتقل السعادة اليهن من غير ان يحاولن معرفة التفاصيل . .

وبعد ان ثرثر الجميع ، بصوت واحد ، تعبيرا عن الفرح والسرور ، وأوضح حسونة ماذا تعنيه البعثة بالنسبة له ولهم ، وبالنسبة لمستقبله ومستقبلهم نهض الاب فجأة واتجه إلى الباب وهو يقول :

– لازم اقول للشيخ صديق . . ضروري يعرف الشيخ صديق . . فهو بمثابة الاب الثاني لحسونة . .

ومالبث ان غاب وهو يحثّ الخطا نحو دكان الشيخ صديق . .

ولم يكن فرح الشيخ صديق بأقل من فرح الدخش ، فقد استقبل النبأ السعيد بالارتياح والحمد لله ، وشارك الاب سعادته الفائقة ، وتمنى لحسونة كل نجاح في البعثة . .

وتناول الشيخ صديق بعض النقود من كيسه ودسّها في يد الدخش وهو يقول :

– هذه لحسونة . . لولدي حسونة . . سوف يحتاج إلى اشياء كثيرة عند سفره . .

وحاول الدخش ان يعترض ، ولكن الشيخ صديق اطبق يده على النقود وهو يقول بلهجة حاسمة :

– خلاص . . حسونة زي ابني . . وليس بيننا تكليف . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم يسع الدخش الا أن يقبل ، فوضع النقود في جيبه وهو يتمتم بعبارات الشكر والامتنان . . وقضى بعض الوقت لدى الشيخ الذي راح يستوضحه عن مختلف الامور المتعلقة بالبعثة ، ولكن الدخش قال في خجل :

– والله ياشيخ صديق ما اعرف حاجة . . كل اللي اعرفه انه ربنا اكرمنا باختياره للبعثة . . وانا راح اخلّيه يزورك وانت تسأله عن كل حاجة . .

وضحك الشيخ صديق وهو يقول :

– الله يحييه وقت ما يحب .. انا والله لا أتمنى له الا كل خير .. دا زي ابني ..

وشعر الدخش بالالم ، لان الشيخ صديق كان يشير إلى حرمانه من الذكور بعد ان فقد ولده البكر وهو رضيع ، وإلى توقه لان يرزقه الله ولدا يحيي ذكره ، ويدير اعماله ويساعده . .

وعلى مائدة العشاء تذكر الشيخ صديق النبأ الذي اخبره به صديقه الدخش ، فقال موجها كلامه إلى العائلة المجتمعة على العشاء :

– على فكرة . . اليوم زارني اخونا الدخش . . ابو حسونة . .

ولم ينتبه الشيخ صديق إلى ان ابنته عزة قد توقفت عن تناول الطعام ، ووجهت اليه انتباهها منتظرة بقية الحديث . .

واستطرد الشيخ صديق :

– ربنا يوفقه وياخذ بيده . . اعني الولد حسونة . . الحقيقة انه شاب يستحق كل خير . .

وتحولت عزة إلى كتلة من اللهفة والترقب والاصغاء ، وقد تركزت عيناها على شفتي ابيها وكأنها تريد ان تتلقف كل كلمة فور خروجها من فمه . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ــ قال لي ابو حسونة ان ولده سوف يبتعث إلى مصر . . هذه ميزة لايحظى بها سوى الطلبة المتفوقين . . وحسونة ـ ماشاء الله ــ حقق نتائج جيدة في التوجيهي . .

وتصلبت يد عزة على الملعقة وقد تجمدت اللقمة في حلقها ، وغاض الدم من وجهها، واعترتها رجفة هزتها من قمة رأسها إلى اخمص قدميها . .

وتناثرت التعليقات من العائلة ، فزوجة الشيخ صديق تعجب كيف استطاع حسونة ان يحقق تلك النتائج رغم رقة حال ابيه وضيق ذات يده . .

واجاب الشيخ صديق على هذا التساؤل :

ــ وازيدك من الشعر بيت ان الولد ما كان متفرغا للدراسة بل كان يساعد اباه في العمل . .

ــ بسم الله . . ماشاء الله . .

تمتمت الزوجة في اعجاب ، واضافت بلهجة لم تخل من رنة التحسر :

ــ ربنا يوفقه وياخذ بيده . . لا اعتراض على حكمك يارب . . لو بقي لنا الولد لكان الآ ن في مثل سنه . .

واطرق الشيخ صديق في الم ، كما اعتاد ان يفعل كلما اشارت الزوجة إلى ولدهما البكر الذي كان يماثل حسونة في عمره لو كتب الله تعالى له الحياة . .

وتنحنح الشيخ صديق محاولا ان يزيل هذا الخاطر الاليم من ذهنه وذهن زوجته ، وقال وهو ينهض عن المائدة :

ــ الحمد لله . . كل شيء بارادة الله . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهمست الزوجة في خشوع :

ـ لااله الا الله . .

ونهض الجميع عن المائدة ، وانهمكت البنات و « الدادة » في رفع بقايا الطعام والاستعداد للسهرة بينما كانت عزة تتحرك في تثاقل ، اذ كان رأسها مسرحا لانفعالات عاصفة لم يشعر بها ـ على شدتها ـ احد ممن كانوا حولها . . .

وفي السهرة قالت عزة مخاطبة اباها وهي تحاول ان تكسب صوتها رنة عادية قدر الامكان :

ـ انت مبسوط يابويا عاشان البعثة هادي . . حقت ابن عم حامد الدخش ؟ . .

وابعد الاب مبسم الشيشة عن فمه ونفث دخانها وهو يقول في تعجب :

ـ ايش السؤال هذا يابنتي ؟ . . طبعا مبسوط . .

ـ ليـــه ؟ . .

ـ لانه الولد . . اقصد حسونة . . راح يتقدم ويتحسن مستقبله . . . ايامنا هذي ايام شهادات وعلم يابنتي . .

ـ طيب . . وبعد مايرجع . . ايش راح يشتغل ؟ . .

ـ ايش عرفني ؟ . . هذا شيء يخصه هو . .

واطرقت الفتاة هنيهة ثم تمالكت نفسها وقالت لابيها بلهجة من لايعنيه الامر كثيرا :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ انا من رأيي انه . . انه مايسافر . .

ـ عجايب . . ليه ؟ . .

ـ انا اقولّك يابويا ليه . .

واندفعت الفتاة تتحدث في حماسة وهي تشرح وجهة نظرها . .

قالت ان الصداقة التي جمعت بين ابيها وبين الدخش قد فاقت الحدود العادية ، لتصبح علاقة حميمة تزداد مع الايام قوّة ورسوخا . . وان حسونة قد بات ـ كما قال ابوها نفسه ـ ابنا له ، ولعله يجد فيه عوضا عن ابنه البكر الذي فقده ، وان حسونة قد اثبت انه اهل للثقة ، وجدير بالمسئولية ، وان النتائج التي حققها في دراسته تقدّم دليلا آخر على ذلك . .

وختمت الفتاة كلامها قائلة :

ـ ولذا فانني اعتقد ان من الافضل لك وله ان تستفيد من مواهبه وامكاناته بأن يساعدك في ادارة اعمالك لكي تستّريح بعض الشيء . . مع ما تعرفه عن حسونة من كفاءة وثقافة وخبرة . .

وكان الشيخ صديق يصغي إلى ابنته بادىء الامر بغير كثير من الاهتمام فكلامها هو كلام طفلة محدودة التفكير والخبرة بأمور الحياة ، ولكنه بدأ يولي هذا الكلام نصيبا اكبر من الانتباه كلما استرسلت ، حتى اصبحت معالم وجهه تتغير مع كل كلمة تقولها ابنته ، وكأن اقتناعها الذي عبّرت عنه بتلك الحماسة قد انتقل اليه ، فشعر بأن من الضروري ، فعلا ، ان يحتضن حسونة ويوجه خطواته بما يعود عليهما ـ كليهما ـ بالنفع والخير . .

وقال الشيخ صديق وعلى وجهه معالم التفكير :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ كلامك طيّب يا ابنتي . . ووجهة نظرك معقولة . . ولكن . . اعتقد ان حسونة لن يقبل . .

ـ ولماذا لايقبل ؟ . . انك تفتح له ابواب مستقبل مشرق لايمكن لايّ مستوى من الدراسة ان يحققه له . .

ـ حسونة . . على مافهمت من ابيه . . سعيد جداً بالبعثة . . وقد سعى اليها بجدّه واجتهاده . . وهذا يدل على انه قد خلق للدراسة والتحصيل . .

ـ تستطيع ان تغريه بالمميزات الكثيرة التي ستقدمها له . .

ـ الواقع ان اي عرض اعرضه عليه ، مهما يكن سخيا ، فانه يكون في صالحي اكثر مما هو في صالحه . . ولكن . . هل يقبل ؟ . .

ـ اذا اقنعت عم الدخش فسوف يقبل . . ويكفيهم ما هم فيه من رقة الحال وقلة المال . . انك ستنتشلهم من الفقر جميعا . . وتريحهم من الجهد المرهق الذي يبذله الاب وابنه لتأمين عيش دون الكفاف لعائلتهما . .

وهزّ الشيخ صديق رأسه ، وقد بدا ان الفكرة قد راقت له ورسخت في ذهنه :

ـ كما قلت لك . . كلامك طيّب . . ورأيك معقول . . غدا ، ان شاء الله ، اخاطب الاخ الدخش في الموضوع . .

كانت ام عزة ترمق ابنتها خلال الحديث بنظرات ذات معنى ، ذلك انها احست ، بفطرتها الانثوية ، ان هناك شيئا ما يلوح في افق حياة عزة ، وان حماستها تلك لم تكن بقصد انتشال عائلة الدخش من الحياة التي تعيشها ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وانما هي لاسباب اخرى ، هي نفسها الاسباب التي مازالت تتكرر ملايين المرات في كل مكان من العالم منذ ان خلق الله آدم وحواء . .

ولم تقل الام شيئا ، بل راحت تصغي إلى الحديث الدائر بين زوجها وابنتها دون ان تشارك فيه بكلمة واحدة . . فقد قررت ان تعرف كل شيء من ابنتها ، او – بالاصح – كانت تريد ان تتأكد من انها كانت على صواب فيما شعرت به منذ ان اعلنت عزة رفضها لبعثة حسونة بتلك الحماسة ، ومحاولتها تبرير ذلك بمختلف الحجج والمعاذير . .

* * *

التفتت عزة بدهشة نحو باب غرفتها وهو يفتح ، لترى امها واقفة عنده تنظر اليها في صمت ، ثم تغلق الباب بعناية وتتقدم منها وعيناها مازالتا مركزتين عليها . .

وشعرت عزة بهزة تجتاح جسدها . . إذ كانت عينا الام تفصحان عن سبب قدومها من غير ان تنطق بكلمة واحدة . .

كان هناك الف سؤال وسؤال ترتسم على وجه الام . .

كان هناك اتهام يطلّ من عينيها . .

كان هناك اصرار ، يبدو في خطواتها الهادئة التي تقدمت بها من ابنتها وعيناها لاتتحولان عنها . .

ونظرت عزة حولها في يأس . .

كانت كالطريدة التي احكم الطوق من حولها فما تستطيع فرارا ولا نجاة وما عليها الا ان تقف وتنتظر مصيرها صاغرة مستسلمة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتوقفت الام ، اذ باتت على بعد خطوة واحدة من ابنتها ، ثم اشرق وجهها فجأة بابتسامة فيها العطف . . وفيها السؤال . . وفيها الفهم . .

واطرقت عزة صامتة . .

وكأنما بدأ الحديث بين الام وابنتها وانتهى في تلك اللحظات الخاطفة التي التقت فيها العينان بالعينين ، فسألت الاوليان واجابت الاخريان ، وتم الكلام دون ان يسمع في الغرفة اي صوت . .

وتناولت الام يدي ابنتها ، وجذبتها نحوها برفق وقالت لها وهي تبتسم بعطف :

ــ هه يا ابنتي . . حدثيني . .

وخارت قوى الفتاة حتى احست بأنها عاجزة عن الوقوف ، وتمتمت بصوت مرتجف :

ــ عن ايّ شيء احدثك يا اماه ؟ . .

واحاطت الام خصرها بذراعها ، واجلستها على طرف السرير وهي تقول بلهجة حانية :

ــ انا امك . . وقد عوّدتك منذ صغرك على الا تخفي عني شيئا . .

ــ لا ادري عمّ تتكلمين يا اماه . .

ــ لقد اصبحت ، اسم الله عليك ، صبية ناضجة . . وانا وانت صديقتان أليس كذلك ؟ . .

واطرقت عزة دون ان تجيب . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وازدادت ابتسامة الام اتساعا وهي تقول :

ـ انني على يقين من ان لديك ماتقولينه لي . .

ودارت عزة بعينيها في الغرفة وكأنها تبحث عن منفذ للهرب واجابت :

ـ عم تتحدثين يا اماه . . انني لاافهم . .

وجذبتها الام إلى صدرها لتستكين عليه كطفلة صغيرة ، ثم قالت وهي تمسح على شعرها بيدها في حنان :

ـ اتحدث انا اذن . .

وظلت الفتاة صامتة . .

ـ لابأس . . سأتحدث . . ان الامر يتعلق بابن حامد الدخش . . حسونة . .

وركضت الدماء في عروق عزة بعنف ، واحست الام بها وهي ترتجف انفعالا . .

ـ هل تعتقدين انك كنت تفكرين في مصلحة ابيك فقط وانت تعرضين عليه ان يعمل حسونة معه ويلغي سفره في البعثة ؟ . .

واغمضت عزة عينيها في راحة عميقة لم تشعر بمثلها من قبل ابدا . . واسترخى رأسها على صدر امها في هـــدوء واستسلام ، فلقد تأكدت الآن من غاية امها من حديثها اليها ، وفهمت ان سرها الذي حملته اكثر من سنتين لم يخف على هذه الام ، وان لها شريكة ، واية شريكة ، في سرها هذا ، وان العبء الذي كان يثقل على قلبها طوال ذلك الزمن قد خفّ كثيرا ، لانها وجدت من تحمله معها . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم تدهش الام عندما رأت خيطين من الدموع يسيلان على وجه ابنتها بل اعتبرت ذلك من قبيل تحصيل الحاصل ، فهي — اذن — لم تكن واهمة . .

وقالت الام في عطف :

— هيا . . حدّثيني . . متى كان ذلك . . وكيف ؟ . . ولم لم تخبريني به قبل الآن ؟ . .

وكطفلة صغيرة ارتكبت ذنبا تحاول تبريره في عبارات مستعطفة ، راحت عزة تروى لامها القصة . . .

قالت لها ان حسونة قد لفت انتباهها منذ اليوم الاول الذي رأته فيه ، سواء بوسامته وفتوته ، او بثقته بنفسه واعتداده بها ، وزادها تقديرا له انه لم يحاول التقرب منها بصفتها ابنة الشيخ صديق ، بل — على العكس — كان قاسيا معها ، بل وسخر منها ومن كبريائها ، ولم يبد عليه — قط — انها اثارت اهتمامه ، او استلفتت انتباهه ، اذ كان يعاملها كطفلة مشاكسة ولم يتورع عن تأنيبها اكثر من مرة بكلامه . .

وتحدثت عن اللقاءات التالية ، وكيف حاولت ان تزيل من ذهن حسونة الفكرة السلبية التي اخذها عنها في المرة الاولى ، وكيف استطاعت ان تستدرجه للحديث عن نفسه ، وعن آماله ومشاعره ، وعن البحر وحكاياته واساطيره ، بعد ان زهدت تماما في الصيد ، واصبح الاصغاء إلى حسونة هو المتعة الحقيقية التي تجنيها من النزهات البحرية التي خرجت بها مع اخواتها بصحبة ابو حسونة ووالده على مركب العود . .

كانت الام تصغي وهي تهزّ رأسها في تفهم وعطف ، فهي لم تجد فيما قالته عزة شيئا تأخذه عليها . . فالاهتمام الذي توجهه ابنتها نحو ابن الدخش

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليس سوى شعور خاص بها ، بل ان حسونة — كما قالت عزة — لايدري به ، ولاجرى بينها وبينه اي حديث او اتصال حوله . .

وقالت الام بعد ان اخلدت إلى الصمت برهة وانتهت الابنة من كلامها :

— ليس عندي ما الومك عليه يا ابنتي . . فمادمت قد التزمت حدود الادب والحشمة ، وكتمت مشاعرك في اعماقك . . فليس لاحد ان يؤاخذك على شيء ولكن . . هل تظنين انك واثقة من صدق مشاعرك ؟ . . انك مازلت صغيرة . .

— اعرف انني صغيرة . . ولكن هذا ما حدث . .

— لذا اقول انك مازلت صغيرة على مثل هذه الامور . . فهل تحسبين ان الامر جدّي ؟ . . ام هو مجرد مشاعر طفولية لاتلبث ان تنسى وتزول ؟..

وقالت عزة في صوت هادىء :

— لقد صارحتك يا اماه بكل شيء . . ولقد مضى على اول مرة رأيته فيها اكثر من سنتين . . كنت خلالهما اتابع كل شيء عنه . . اشاركه فرحة النجاح كلما انتقل من فصل إلى فصل اعلى دون ان يدري بذلك احد . . واتسقّط انباءه من امه واختيه . . واحس رغما عني ان حصوله على الشهادة هو حادث فاصل في حياتي . . حياتي انا . . اذ يمكن ، عندها ، ان استبشر بقرب تحقيق آمالي . .

وبدت الحيرة على الام فما تدري بماذا تجيب . . ذلك انها تعرف ، وتدرك ان امور « القلب » لاتخضع عادة لاي مقياس او منطق . . وان مايبدو لها غريبا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وغير معقول ، يبدو لصاحبه ، او صاحبته ، هو الامر الطبيعي الوحيد . . والامر المعقول الوحيد . . فماذا يمكنها ، كأم وكصديقة لابنتها ، ان تفعل ؟ . .

وفي عطف فائق ضمتّ عزة إلى صدرها وقالت لها :

ـ انني سعيدة جدا يا ابنتي لانك صارحتني بكل ما في نفسك دون حرج . . انني فخورة بذلك . . لان معناه أنك تعتبرينني ، فعلا ، صديقتك ، إلى جانب كوني امك ، وهو ماحاولت ان اعوّدك عليه منذ الصغر . . وانا معك . . انا معك يا ابنتي دون تردد . . وبدون حدود . . ولكن ليس بوسعنا ان نفعل ، الآن ، شيئا . . وسننتظر حتّى نرى، نتيجة مايفعله ابوك بعد ان اقتنع برأيك في شأن حسونة . . وبعدها نتصرف ، انا وانت ، حسب مقتضى الحال . .

وانهمرت الدموع من عيني عزة ، وتألقت عيناها بفرح طاغ . فطبعت على خد امها قبلة حارة وهي تقول بصوت مرتجف امتزجت فيه الفرحة بالاسى :

ـ اماه . . يا اعزّ صديقة لي في الوجود . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثامن

في الليلة التالية ، كان الحديث عن بعثة حسونة يتكرر في بيت الدخش . .

ذلك ان الرجل ماكاد يعود مساء إلى البيت بعد ان قضى جانبا من أمسيته في حانوت الشيخ صديق ، حتى سأل عن حسونة فور وصوله ، فجاءه هذا ملبيا . .

واتجه الاب إلى ركنه المعتاد في الغرفة التي تتخذها الاسرة للجلوس والاكل والسمر ، وتهالك جالسا وهو يطلق تنهيدة تدل على الارتياح ، وقال لحسونة وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه :

ـ مبروك يا ولدي . . مبروك . . انت حقا ولد محظوظ . . ولكن هذا ليس كثيرا عليك لانك تستحق كل خير . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودهش حسونة وتساءل :

– مبروك على ايش يا بويا ؟ . .

وعدل الاب من جلسته وكأنه يتهيأ لاعلان نبأ عظيم مهدّ له بتلك البداية التي تصور ان تكون مشوّقة :

– بخصوص مستقبلك . . وموضوع البعثة . .

– مستقبلي ؟ . . البعثة ؟ . . سبق لك يا ابي وان باركت لي . . وشاركتني فرحتي . .

– بعثة ؟ . . بعثة ايش يا ابني ؟ . . حاجة اهم من البعثة . . حاجة عن مستقبلك . . مستقبلك . .

وزادت دهشة حسونة وهو يجيب :

– حاجة اهم من البعثة ؟ . .

– مرّة . . اهم مرّة . .

وقلب حسونة شفته في حيرة وقال :

– والله ما انا فاهم حاجة يابوي . . خيرا ان شاء الله ؟ . . .

فقال الاب وهو يضغط بعطف على ركبة ولده الجالس بجانبه :

– الشيخ صديق يبغاك تشتغل معاه . .

– ايش ؟ . .

هتف حسونة في ذهول . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وضحك الاب وهو يعلّق :

ـ شايف كيف انفجعت ؟ . . انا حصل لي زيك كده لما كلّمني الشيخ صديق وقالي انه يبغاك تشتغل معاه بعدما صرت متعلم . . ومعاك شهادة و . .

وقاطع حسونة اباه بنفس اللهجة المستغربة :

ـ وايش اللي يخللي الشيخ صدّيق يعمل كده ؟ . . والبعثة ؟ . .

ـ مالك ومال البعثة ؟ . . انت انفتحلك باب خير ما كان حد يحلم به . .

واعقب الاب كلامه بضحكة سعيدة هانئة ، وراح يترقب جواب ولده الذي عقل الذهول الشديد لسانه فما علّق على كلام ابيه بشيء . .

ولما طال صمت حسونة قال له ابوه باسما :

ـ شفت ؟ . . انا سكتت كده لما كلمني الشيخ صديق . . ووين ووين حتى اتاميت على روحي وعرفت اجاوبه . .

ـ وايش قلتله ؟ . .

تساءل حسونة ببطء وقد امتقع وجهه . . .

ـ قلت له انها فكرة معقولة مرة . . وانها فرصة علشانك . . بكرة ربنا يفتح عليك وتصير زي الشيخ صديق . . ويمكن اغنى . . بعد ما تتعلم الشغل . . و . .

وتوقف الاب عن الكلام ، فقد رأى حسونة يطرق في الم ؛ وبدا واضحا ان حديث ابيه لم يسعده كما كان يعتقد . . كما انه لم يكن ـ على مايبدو ـ مفاجأة سارة لولده كما كان يتوقع . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال الاب في اهتمام وقلق :

— ايش فيه يا ابني ؟ . . مالك ؟ . .

فقال حسونة وفي صوته رنة خيبة الامل :

— سامحني يا بوي . . كلامك هذا هزّني . . وخلاني ما اعرف ايش اقول . . انت عارف انه كل آمالي معلقة بالبعثة هذي . . وبذلت كل جهدي لحد ربنا ماوفقني فيها . . ودحين تقولي انه الشيخ صديق . . .

وغاب عليه التأثر ، فاختنق صوته ولم يعد قادرا على ان يكمل حديثه . .

وتساءل الاب في قلق :

— يعني . . ما تبغى تشتغل مع الشيخ صديق ؟ . .

— اذا كنت تبغاني على حريتي يابوي . . انا ابغى البعثة . . وارجوك تبلغ الشيخ شكري وتقديري . . وتفهّمه انه البعثة هذي مهمة جدا بالنسبة لي . . مستقبلي متوقف عليها . .

وفجأة عاد الاشراق إلى وجه الدخش وقال لولده دون تردد :

— خلاص . . بلاشي من الشيخ صديق . . زى ماقلت يا ابني . . البعثة اهم . . احنا مالنا ومال الشغل مع الشيخ صديق ؟ . . انت لازم تكمل تعليمك وتاخذ اكبر شهادة . . بكرة اقول الكلام ده للشيخ صديق . . ولا تزعل يا ولدي . .

فتناول حسونة يد ابيه يقبلها في امتنان وهو يقول :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– كتر خيرك يا بوي . . ربنا يخلليك لنا . . ويطول عمرك . .

وانتبه الاثنان على صوت ام حسونة وهي تدخل متسائلة :

– ايش فيه ؟ . . خير ان شاء الله . .

فقال لها زوجها في عدم اكتراث يتناقض مع ما كان عليه من حماسة عندما جاء إلى البيت :

– الشيخ صديق كان يبغى حسونة يشتغل معاه . . لكن حسونة مايبغى . . اصله لازم يكمل دراسته ويروح البعثة . .

واردف بعد توقف :

– انا برضه كان رأيي كده من الاول . . بس قلت لازم اسأل حسونة . .

ولم يجد الدخش اي حرج في الانتقال برأيه من النقيض إلى النقيض ، فهو – في الواقع – قد فرح كثيرا للعرض الذي قدمه له الشيخ صديق هذا الصباح ، اذ وجد فيه مايحقق آمال ولده في مستقبل زاهر ، وجاء يعرضه بحماسة على حسونة ، حتى اذا ما عارض الابن واعلن تمسكه بالبعثة عاد يفرح مرة اخرى لان ولده سوف يبتعث ويحصل على شهادة « كبيرة » دون ان يلاحظ ذلك التناقض الذي وقع فيه ، فلقد كان رجلا بسيطا ، بل ساذجا ، لم يجد نفسه على طول ماعاش في هذه الدنيا في موقف الاختيار بين قرار وقرار في اي يوم من الايام . .

كانت حياته، منذ وعى على الدنيا ، بسيطة مثله . . ساذجة مثله . . تسير على وتيرة واحدة لاتتقلب عند الاختيار امام الاشياء البسيطة والساذجة التي ما صادف سواها طوال حياته ، حتى اذا وجد رجلا – كالشيخ صديق –

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعرض عليه ان يعمل ولده حسونة معه ، قبل العرض فورا وتحمس له ، فاذا ما رفض الابن هذا العرض رفضه على الفور وبنفس الحماسة ، بل وزاد على ذلك ، دون شعور منه ، بأن الرفض كان يتفق مع رأيه منذ البداية . . لقد كان رجلا بسيطا جدا . . وعفويا جدا . .

وقال الدخش لولده في عطف :

– هو كده يا ابني . . طيب . . طيب . . ربنا يختار مافيه الخير . . بكره اروح للشيخ علشان اشكره واقول له اننا نفضل البعثة . . ولايهمك ياحسونة . .

وقال حسونة بسرور واضح :

– ربنا يطول عمرك يا بوي . . اذا تبغى . . اروح معاك للشيخ صديق علشان اشكره على اهتمامه واعتذر له اني ما راح اسيب البعثة . .

– ما يحتاج . . مايحتاج يا ابني . . انا اقول له بنفسي . .

* * *

ومع ان الدخش كان يعد في سريرته الكلمات التي سيدلي بها إلى الشيخ صديق وهو يشكر له فضله واهتمامه ، فانه لم يجد حاجة لاي ايضاح او شرح عندما ابلغ الشيخ صديق بجواب ولده وايثاره الذهاب في البعثة ، فقد هز الشيخ صديق رأسه وهو يجيب :

– خليه على راحته . . مادام يبغى يكمل تعليمه . .

وانتقل إلى حديث آخر ببساطة دون ان يبدو عليه ان جواب الدخش قد ازعجه او كان له اي نصيب من اهتمامه ، او انه متمسك بالعرض الذي تقدم به إلى الصياد وولده . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وامضى ابو حسونة مع الشيخ صديق بعض الوقت وهما يحتسيان الشاهي ويتحدثان في شتّى الامور دون ان يتطرقا إلى موضوع حسونة ، فقد اعتبره – كلاهما – امرا عاديا قد انتهى وطويت صفحته . .

واستأذن الدخش من صديقه الشيخ في الذهاب ، واتجه في طريق عودته إلى الخور حيث لقي بعض زملائه ، فراح يحدّثهم – بسذاجته المعهودة – عن بعثة ولده ، والشهادة الكبيرة التي سيعود بها ، ان شاء الله ، بعد ان يتم دراسته . .

اما في بيت الشيخ صديق فقد كان الامر مختلفا تماما . .

لقد بدا على الرجل انه قد نسي الموضوع فلم يتطرّق اليه ، اثناء العشاء مع انه تحدث في امور شتّى . .

وكانت عزة تتلقف كل كلمة تصدر عن ابيها بلهفة ، علّ كلامه التالي يتناول المسألة التي تشغلها ، والتي لم تعد سرها وحدها ، بعد ان شاركتها امها فيها ، فكان قلبها يثب إلى حلقها ، او هكذا كانت تشعر ، كلما انتهى ابوها من موضوع وشرع بالحديث في موضوع آخر ، حتى اذا تبينت انه ليس هو الحديث الذي تترقب ، اصابتها خيبة امل وراحت تتلهف على ان ينتهي ابوها من ذلك الموضوع ، لعل حسونة يكون هو مدار الحديث التالي . .

ولم تنتبه عزة إلى ان امها كانت في مثل حالتها تقريبا ، وانها كانت – هي الاخرى – تتتبّع حديث زوجها بنفس اللهفة ، فتتراوح مشاعرها بين الرجاء ونقيضه . .

ولكن الشيخ صديق لم يأت قط على ذكر حسونة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتقت عينا الام والابنة في لحظة خاطفة ، ولكنها كانت كافية لكي تتبادلا حديثا صامتا ابلغ من كل كلام . .

لقد تبادلتا الشعور باللهفة ، والخيبة ، وضرورة فتح موضوع حسونة مع الاب مادام قد اغفله عامدا او ساهيا . .

واستجمعت الام شجاعتها ، وقالت لزوجها بصوت جهدت في ان تبدو نبراته طبيعية :

ــ على فكرة . . ايش صار في مسألة حسونة ؟ . .

ــ اية مسألة ؟ . .

وتبادلت الام وابنتها نظرة تفاهمتا ، خلالها ، على ان النتائج ليست كما كانتا ترجوان . .

وقبل ان توضح الام مقصدها قال الشيخ صديق وكأنه قد تذكر ما كان غائبا عن باله :

ــ آه . . حسونة . . صحيح . .

وتعلقت انظار الام وابنتها بشفتي الاب لتتلقفا منهما كل كلمة . .

واستطرد الشيخ صديق :

ــ ما صار شي والله . . الولد مصمم على انه يكمل دراسته ويسافر في البعثة . . وافتكر انه عمل طيّب . . زمانه هو زمان العلم والشهادات . .

ــ كيف يعني ؟ . . . مصمم يسافر ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قالت عزة جملتها هذه بسرعة ، وبلهجة حادة بعض الشيء ، وكأنها تعلن احتجاجها على ذلك الموقف الذي يقفه حسونة .

ولم ينتبه الاب إلى مغزى سؤال ابنته ، ويبدو انه حسبه سؤالا عابرا ، فأجاب عليه ببساطة :

ـ هوّ حر . . يختار اللي يعجبه . . انا صحيح كنت افضل انه يشتغل معايا . . لكن . . أهو . . مايبغي . . وهو على كل حال ادرى بمصلحته . .

وعاد حديث النظرات الخاطفة يدور بين الاثنين : الام وابنتها . .

وبنفس البساطة تحول الاب إلى حديث آخر ، وقبل ان يسترسل فيه سمع عزة تقول له بصوت مرتجف :

ـ ما حاولت تقنعه يابوي ؟ . .

وتساءل الاب :

ـ اقنع مين ؟ . .

كان واضحا تماما ان هذا الموضوع لايشغل من تفكير الشيخ صديق ایّ حیّز . . .

ـ حسونة . . .

اجابت عزة بصوت اقرب إلى الاختناق . .

ـ آه . . حسونة . . وليه اقنعه ؟ . . هو حرّ . . على كل حال انا عملت اللي عليّ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبدون وعي منها ، وضعت عزة ملعقتها التي لم تكن تناولت بها طوال فترة العشاء اكثر من بضع لقيمات ، واستأذنت بصوت خافت ، وتوجهت إلى غرفتها وهي تكاد تترنح . .

وراح ابوها يرمقها في قلق ثم قال :

– عــزة . . .

– نعم يا يوي . .

اجابت عزة بصوت ضعيف وهي تتوقف عن السير . .

– مالك ؟ . .

– ولا حاجة يابوي . .

– حاسة بحاجة ؟ . .

– لا يابوي . . تصبحوا على خير . .

وواصلت سيرها حتى غابت وراء الباب . .

والتفت الشيخ صديق إلى زوجته يسألها في استغراب :

– مالها ؟ . . بها حاجة ؟ . .

فقالت الام بوجوم وهي تطرق برأسها :

– يمكن تعبانة شوية . .

وعندما بدأت السهرة ، بدأ الشيخ صديق احاديثه المتشعبة دون ان يبدو عليه ان موضوع حسونة يهمه كثيرا او قليلا . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان رأس الام مسرحا لصراع عنيف ، فهي – كأنثى اولا وكأم ثانيا – كانت تعرف ما انتاب ابنتها بعد النبأ الذي اعلنه الاب دون اكتراث . . وكانت واثقة من ان عزة ، هذه اللحظة ، غارقة في نوبة من البكاء تخفيفا لمشاعر الصدمة التي اصيبت بها ، فآثرت ان تتركها وحدها بعض الوقت ريثما تتخذ قرارها بين ان تفاتح زوجها في الموضوع بكل صراحة ، وبين ان تؤجل ذلك إلى فرصة اخرى . .

ومضى الشيخ صديق يتحدث كعادته ، وهو يحتسي الشاهي ويجذب انفاسا من شيشته دون ان ينتبه إلى ان زوجته لم تكن تصغي اليه كما تعودت ان تفعل ، فصوته يصل إلى سمعها حقا ، ولكنها لم تكن تفقه كلمة واحدة . .

وحزمت الام امرها اخيرا ، فطلبت إلى بناتها الاخريات ان يتوجهن إلى النوم ، حتى اذا خلت إلى زوجها قالت له بصوت خافت ولكنه قوى النبرات :

– اسمع ياصديق . .

فنظر اليها باستغراب ، وقد لمس في صوتها رنة لم يعهدها من قبل ، فيها من العزم والتصميم والجدية ما لم تعتد زوجته على ان تحدثه بها . .

وقال لها متسائلا :

– خيراً . . ان شاء الله ؟ . .

– ابغى اكلمك عن حسونة . .

– تاني ؟ . . ايش الحكاية ياجماعة . . ماقلنالكم ما يبغى . . ايش اسويله ؟ . . اشغله عندى بالقوة يعني ؟ . . ثم بدي افهم ايش هو سر اهتمامك انتي وبنتك في الموضوع ده . . عمركم ماتدخلتوا بشغلي . . اشمعنى المرة دي تبغوني اشغل حسونة بالعافية ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعادت الزوجة تستجمع شجاعتها وتقول له بكل مافي غريزة الام والانثى من حماسة في الدفاع عن وجهة نظرها فيما تعتبره امرآ بالغ الاهمية ، دون ان تفقد حذرها من ان تفلت منها كلمة في غير محلها :

ـ افتكر . . انه . . البنت . . مهتمة بحسونة . .

ـ يعني اية مهتمة ؟ . .

ـ انت عارف قصدي . .

ولمعت عينا الرجل ، اخيرا ، في فهم . . وبدا عليه انه قد ادرك كل شيء فبدت الدهشة الشديدة على وجهه ، حتى انه لم ينبس بكلمة واحدة . . ثم قال ببطء وكأنه يضغط على كل كلمة :

ـ ايش عرّفك انتي انها . . انها مهتمة بالولد ده . .

ـ انا عارفة . . وبس . .

ـ هيّ قالتلك ؟ . .

ـ تقريبا . .

ـ والغرض ؟ . .

ـ مايخفاك . .

وفكر الشيخ قليلا ثم قال :

ـ يعني فيه حاجة بينها وبينه ؟ . .

ـ ابدا . . ابدا . .

ـ اجل كيف . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقاطعته المرأة بسرعة :

– هو مايدري حاجة . . ولو كانت المسألة غير كده كان وافق على طول على انه يشتغل معاك . .

وبدا على وجه الشيخ صديق الاقتناع بهذا المنطق ، فلم يجد في الامر مايزعجه مادام لايتعدى مجرد شعور من جانب الفتاة قد كتمته في نفسها ، ولعلها – كما قدّر – قد صارحت امها به . .

وقال لها بنفس اللهجة المتباطئة :

– وايش تبغيني اسوّي ؟ . .

– اول حاجة . . انت عندك مانع لو . . يعني . . لو حسونة يتزوج عزة ؟ . .

واطرق الشيخ مفكرا . . وبدا عليه شيء من الحيرة ، اذ فوجيء بهذا الامر دفعة واحدة ودون ان تكون لديه فكرة مسبقة عنه . .

وراحت الزوجة ترقبه بلهفة وعيناها مسمرتان على شفتيه ، وكأنها متهم ينتظر ان يسمع من القاضي الحكم عليه . .

واخيرا تكلم الشيخ صديق ، وكانت لهجته توحي بأنه مازال يناقش الموضوع في ذهنه ، وانه يفكر بصوت عال ، كما يقال :

– الحقيقة انه الولد طيب . . ايوه . . طيّب . . انا متأكد من كده . . واتوقع له مستقبل مهم . . اهم حاجة في الرجال عندي انه يقدر المسئولية ، ويشيل حملها . . وحسونة ، من الناحية دي ، سبق عمره . . سبق عمره بزمان . . يعني كان رجال وهو لسه صغير . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبدا الارتياح على وجه الام ، فسمع ان كلام زوجها لايعني الموافقة النهائية ، الا انه يوحي بأن هذا الموضوع – على الاقل – قابل للمناقشة . .

واضاف الشيخ صديق :

– طبعا كنت اتمنى لو يكون زوج بنتي من. . من عيلة كبيرة. . و.. بس في ايامنا هذه فيه حاجات كثيرة تغيرت . . المهم هو الاخلاق . . . والثقافة . . وحسونة من الناحية دي ماعليه كلام . . .

وقالت الام بوجه متهلل :

– يعني . . ابشّر البنت ؟ . .

– حيلك . . حيلك . . ماتنسي انه حسونة ماهو زي الشباب التانيين . . رفض فرصة كبيرة عرضتها عليه لانه يبغى يكمل تعليمه . . وما استبعد انه لو عرضنا عليه الزواج يمكن يرفض . .

فهتفت الام باستنكار غريزي :

– يرفض ؟ . . ليه هوّ طايل الاول ؟ . .

وضحك الشيخ صديق وقال :

– سيبولي الموضوع ده اسبوع او اسبوعين وانا اشوف ايه اللي ممكن يتعمل . .

وساد الغرفة جو من الارتياح بعد هذه الجملة التي اوحت لام عزة ان الاب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قد ادلى بموافقته من ناحية المبدأ . . وانه يعلق هذه الموافقة على الطريقة التي سيسلكها لتحقيق غاية ابنته . .

• • •

ولم يدر احد من الزوجين ان ذلك الارتياح قد انتقل إلى خارج الغرفة ايضا . . فوراء الباب كانت عزة تتتبع حديث ابويها بلهفة ، فتبتسم تارة وتعبس اخرى ، حسب تطور الحديث ، إلى ان ادلى بجوابه الاخير الذي يبشر بالامل ..

وسارعت إلى غرفتها وارتمت على سريرها وهي تبتسم وتتنهد بارتياح ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل التاسع

— جيتي في وقتك يافاتن . . لانه عندي حاجات كثيرة ابغي اقولهالك . . بصفتك صديقتي المفضلة . .

همست عزة في اذن صديقتها فاتن بهذه الجملة وهي تستقبلها بالقبل والعناق امام والدتها ، عندما جاءت الصديقة لزيارة ابنة الشيخ صديق . .

وابتسمت فاتن في فهم ، فهي تعرف بعض المعلومات السطحية عن حسونة وهي معلومات سمعتها من صديقتها عزة في مناسبات مختلفة ، وكانت عزة تستحلفها دائما ان تكتم ماتقوله لها ، وانها قد سمحت لنفسها بالافضاء بأسرارها الشخصية لها لانها تعتبرها — كما قالت — صديقتها المفضلة . .

وهكذا ادركت فاتن ان تلك « الحاجات الكثيرة » التي تريد عزة ان تقولها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لها ، تتعلق بحسونة بشكل او بآخر ، لاسيما وانها افضت بعبارتها ، تلك ، همسا . . .

وجلست الفتاة بعض الوقت مع الام ، تجيب على اسئلتها التقليدية حول صحة الوالدة والاخوات والعائلة ، وعزة تتحرق للانفراد بصديقتها كي تفضي اليها بما كان ، وتخفف عن قلبها تلك الاحاسيس التي كانت تثقله منذ ان رأت حسونة اول مرة ، ولاحظت كبرياءه الطبيعية التي كانت اول ما لفت انتباهها اليه ، لاسيما وانه لم يبد — اذ ذاك — اي اهتمام بكونها ابنة الشيخ صديق ، وهو من هو في عالم المحيط الذي يعيشون فيه . .

واستأذنت فاتن من الام بعد قليل ، وانسحبت من المكان متوجهة إلى غرفة عزة وقد بلغ منها الفضول كل مبلغ ، تريد ان تعرف شيئا جديدا عن صديقتها المعروفة بين زميلاتها بالكبرياء بل بالعجرفة ، وبأنفها المرفوع دوما ، ولهجتها الحادة التي تلجأ اليها اذا ما استثيرت . .

ولم تكد الفتاتان تدخلان إلى غرفة عزة ، حتى ارتسم السؤال الكبير على وجه فاتن ، فقالت بلهجة من تنتظر ان تعرف كل تفاصيل سؤالها :

— هه ؟ . . .

واجابت عزة وعيناها تلمعان في انتصار :

— سأتزوجه . .

وذهلت فاتن ، فهي لم تكن تتوقع ان تصل الامور إلى هذا الحد بتلك البساطة والسرعة ، فقالت دون ان تحاول اخفاء دهشتها :

— هكذا ؟ . . بهذه البساطة ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان فرحا بعمله في إدارة المستشفى الجامعي لاسيما وان البرنامج كان يشتمل على تأهيل لمدة سنتين في احدى الجامعات لدراسة ادارة المستشفى كعمل متخصص . .

وكما هي عادته في التعامل مع الناس ، نجح سراج في تكوين اصدقاء جدد ، ولم تمض اشهر قلائل حتى كانت له علاقات طيبة بجميع من حوله وضاعف هذا من سعادته وجعله يقبل على عمله بروح ايجابية عالية . .

اما كريستينا فقد انشغلت بأمر ملك عليها كل جوارحها وهو دراسة الاسلام دراسة واعية وواسعة ، فلقد شعرت برغبة طاغية في التعرف إلى هذا الدين ، ومعرفة اصوله وتعاليمه ، والاطلاع على مختلف شئونه . . وكان سراج يساعدها على ذلك ، فيحضر لها الكتب والمصادر والبحوث ، ويلخص لها بعض الدراسات والمحاضرات الخاصة بمختلف امور الدين الإسلامي والتي كان يقوم بها كبار العلماء والمتخصصين ، ويشرح لها مايستعصي عليها فهمه . .

وكان سراج ، في كل ذلك ، حريصا كل الحرص على ان يترك للفتاة فرصة التعرف على الاسلام بصورة طبيعية لااكراه فيها ، لعلمه بأن حسّها السليم لن يلبث ان يقودها إلى الطريق الصحيح .

وتحقق ما توقعه سراج ، فقد ابدت كريستينا رغبة قوية في اعتناق الإسلام عن قناعة عقلية وايمان قلبي . .

وعندما صارحت اباها بالامر حاول جاهدا ان يوضح لها ان حبها لسراج شيء وتركها لدينها شيء آخر ، كما بكت الام وتوسلت ونصحت وانذرت ولكن كريستينا ظلت على موقفها مؤكدة ان رغبتها في اعتناق الإسلام لاعلاقة لها بحبها لسراج ، لان دراستها لهذا الدين قد فتحت عينيها على اشياء كانت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غائبة عنها وانها واثقة من انها سوف تجد في هذا الدين ماتنشده من راحة نفسية واطمئنان روحي .

* * *

قال سراج لكريستينا وهو يراها لاول مرة في ملابس محتشمة :

— لو تعلمين كم انت جميلة ياكريستينا بهذه الملابس . . انك تبدين لي كانسان جديد . .

واحنت كريستينا رأسها مؤمنة على كلامه وهي تقول :

— انني ، فعلا ، انسان جديد . . لا استطيع ان اصف لك ما انا فيه من سعادة بعد ان اهتديت إلى هذا الدين . .

والواقع ان اعتناق كريستينا للاسلام قد احدث ضجة في بيت السيد باركر كما احدثها في بيت السيد فاروق . .

اما السيد باركر فقد تقبل الامر كارها دون ان يحاول اثناء ابنته عما اعتزمته ، وكان للاسلوب الاميركي في الحياة ، من حيث ترك حرية القرار للابناء متى كبروا ، دوره في هذا التقبل . .

اما في بيت السيد فاروق فان الام قد استقبلت النبأ بحذر وتحفظ ، بينما استقبله الاب بفرح واغتباط . .

كانت مشاعر الام تتخبط بين التساؤل الحذر عن سبب اعتناق تلك الفتاة للدين الإسلامي وعلاقته بحبها لابنها ، وبين الخوف الغريزي من الام على ولدها من ان « تختطفه » منها امرأة اخرى ، ايا كانت . .

ولكن الام كتمت مشاعرها تلك في نفسها وتركت للايام ان تكشف عما تخبيء . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل السابع

ومضت سنوات العمر حثيثة . .

وكبرت الفتاة عزة . .

وكبر الفتى حسونة الذي اسهم البحر في اعطاء جسده مزيدا من القوة والفتوة ، فنمت عضلاته واتسع صدره ، وارتفعت هامته ، حتى اصبح يلفت الانتباه إلى ما حباه الله به من قوة ووسامة . .

وكانت فرحة العائلة فوق كل حدود التصور عندما تكلل جهد حسونة بالنجاح ، وحصل على « التوجيهية » وبدأ الحديث بين المتخرجين واهاهم حول احتمالات ابتعاث هذا او ذاك من الناجحين في بعثة دراسية إلى مصر . .

ولم يكن الدخش يعرف ، تماما ، المدلول الذي يشير اليه ابتعاث احد الشباب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن رغبة ولده في هذا الابتعاث كانت تكفي لكي يشاركه اياها وان يتمنى على الله ان يحققها له . .

وخلال فترة الانتظار والترقب تلك ، كان الدخش يعيش بعواطفه كلها مع ولده ، وقد ابعد جانبا كل تفكير في النتائج المترتبة على سفر حسونة بالنسبة اليه ، وافتقاده لشباب وفتوة ولده في مساعدته عند الخروج إلى الصيد ، بل لعل الاصح ان يقال ان دور الدخش لم يعد يتعدى في المدة الاخيرة مهام المساعدة التي يقوم بها ، عادة ، الصياد المبتدىء ، واصبح حسونة يقوم بكل مجهود فيطلب منه في عبارات مهذبة تدل على الاحترام العميق ان يفعل كذا . . او يتكرم — مشكورا — بأن يفعل كذا . . والاب يلبي الطلب بهمة تتفق مع امكاناته الجسدية ، وتذكرنا بما كان عليه امر حسونة عندما خرج مع ابيه للصيد اول مرة . .

اجـــل . .

لم يخطر على بال الدخش ان يقفز بذهنه إلى مقبل الايام فيما لو فاز ولده بالبعثة ، اذ كان يكفيه ان هذا الابتعاث — لو تم — سيكون من شأنه ان يرفع من مستوى ولده وظيفيا واجتماعيا وهذا يكفيه . .

ومضى حسونة يتابع انباء البعثات والترشيحات بقدر ما سمح له الوقت ، وسر حين علم ان اسمه قد وضع بين اسماء المرشحين ، فكانت تلك خطوة اولى اثلجت صدره وانعشت الآمال في قلبه . .

ولابد من ان يعترف حسونة انه ، وقد ازداد نضجا وعاما ، لم يعد كثير التحمس للحلم الذي كان يراود فكره في ان يصبح طيارا ، بل بات ينظر إلى الامور نظرة اكثر واقعية واتزانا . وكان يستعرض احيانا في ذهنه ما كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

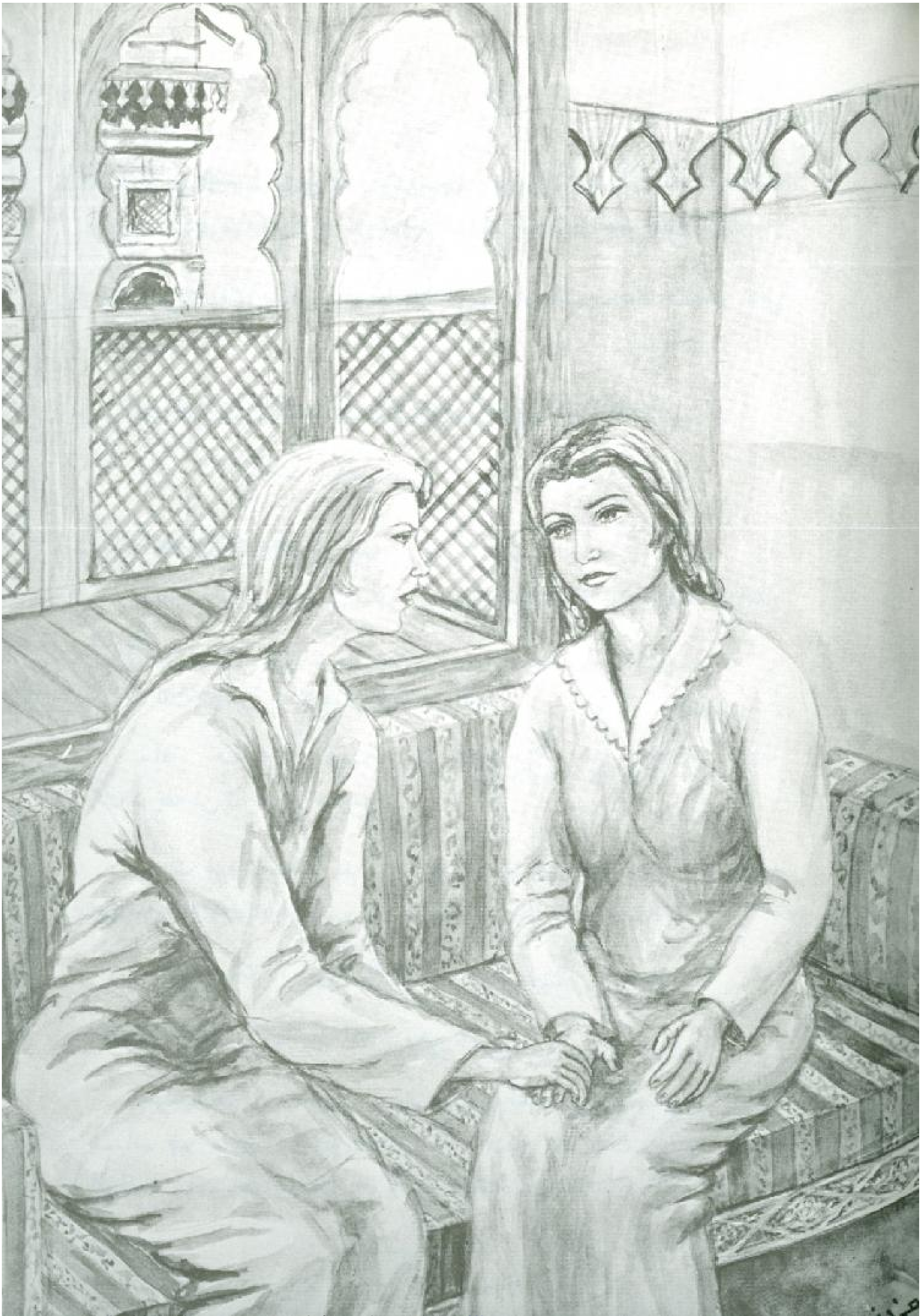

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وامسكت عزة بيدي فاتن وهما جالستان على طرف الكنبة ، واخذت تروي لها ماجرى ، وماكان من ابيها عندما صارحته امها بالموضوع . .

واطرقت فاتن تفكر ، وعزة تنظر اليها ومازالت ومضة الانتصار تطل من عينيها . .

ولما طال صمت فاتن قالت لها صديقتها تستحثها على الكلام :

– هه . . ما رأيك . .

واجابت فاتن ببطء :

– انك لم تذكري لي شيئا عنه . . عن حسونة . . هل اتفقتما على هذه الطريقة . . .

– انت تعلمين انه لايدري شيئا عن الامر . .

– آه . . صحيح . . طيّب . . هل بلغه الامر؟ . . هل وافق ؟ . . وماذا كان موقفه من الموضوع عموما ؟ . .

وردت عزة باستنكار دون ان تنتبه إلى انها تعيد نفس الجملة التي قالتها امها من قبل لابيها :

– رأيه ؟ . . ليه ؟ . . هوّ طايل ؟ . .

فهزت فاتن رأسها بغير اقتناع وهي تجيب :

– وجهة نظرك انت شيء . . والواقع شيء آخر . . انت نفسك قلت لي انه شـــاب غير عادي . . وانه لايبدي كثير اهتمام بمال ابيك ومركزه . . الم تقولي انه رفض العمل وفضل ان يكمل دراسته ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتلاشت معالم الانتصار من عيني عزة ، وعبست فجأة ، كأنما كانت تلك الحقائق التي تذكرها بها صديقتها قد غابت عن ذهنها . .

وساد الصمت الغرفة ، وبدا وكأن عزة لاتملك تعليقا على الحقيقة التي ذكرتها صديقتها . .

ومدت فاتن يدها إلى ذقن عزة ترفعها ، وتسدد نظراتها اليها سائلة بهدوء :

ـ قولي لي ياعزة . . هل . . هل تحبينه ؟ . .

واجفلت عزة ، فالسؤال صريح كسهم نفذ إلى هدفه في خط مستقيم ، وبدا عليها وكأنها قد فوجئت به . .

ونهضت في صمت ، وراحت تسير في الغرفة جيئة وذهابا دون ان تجيب ، وعينا فاتن تتابعانها . .

ـ انك لم تجيبي على سؤالي . .

قالت فاتن بهدوء . .

وتوقفت عزة عن السير ، ونظرت إلى صديقتها نظرة حائرة وهي تقول :

ـ الحقيقة . . الحقيقة يافاتن . . انني . . انني . . لا ادري . .

وعلقت فاتن بنفس الهدوء :

ـ هذا ماتوقعته . .

ـ ماذا تعنين ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– اعتي انني اعرفك . . واعرف طباعك . . واعرف اندفاعك . . وانا واثقة من انك لم تتوقفي لحظة واحدة لكي تطرحي على نفسك السؤال الذي طرحته عليك . .

وعادت عزة إلى الجلوس وهي تقول :

– سؤالك قاس يافاتن . . وتعليقك اقسى . . ولكننا صديقتان اعتادتا على المصارحة في كل شيء . .

– اذن تستطيعين مصارحتي بالجواب . .

– لقد اجبتك . . لا ادري . . ولكنني . . ولكنني شديدة الاهتمام به . .

– لاحظي ان الاهتمام شيء . . والحب شيء آخر . . والزواج شيء ثالث كذلك . .

– اعرف ذلك . . وانا مصممة على الزواج منه . . هذا ماأستطيع ان اؤكده لك . . وهو – بدون شك – شاب ممتاز . . بل ان والدي وصفه بأنه ذو مستقبل ولديه امكانات نادرة . .

وهزّت فاتن رأسها يمنة ويسرة في اسى وهي تقول لصديقتها في بطء :

– اذا صدق حدسي فان حبّك لامتلاك كل ما يروق لك هو السبب . . ولو ان حسونة ابدى نحوك شيئا من الاهتمام او الحب لاعرضت عنه . . وهزئت به . . اليس كذلك ؟ . .

ولم تجب عزة ، فقد تكاثرت الحقائق التي نبهتها فاتن اليها والتي يدهشها ان تعترف – وهي تحرص على الايبدو على وجهها شيء ينم عما في ذهنها – في داخلهـا ، انها لم تفكر فيها تفكيرا جديّاً ، ولكنها لم تتمالك نفسها من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاعتراف بأن صديقتها فاتن قد اصابت ، بشكل او بآخر وانها كانت جديرة بأن تعرض عن حسونة لو انه حاول ان يبثها شيئا يدل على انه يحبها او يهتم بها . . على الاقل .

وهكذا وجدت انهـا ، هي نفسها ، عاجزة عن ان تعرف ما اذا كانت عاطفتها نحو حسونة هي حب ام رغبة في التملك . .

ولاول مرة خامرها شعور بالخوف تجاه هذا الشاب « المتعجرف » الذي لاتستطيع الادعاء لنفسها ان لديها اي دليل على انه مهتم بها . .

ونظرت إلى صديقتها فوجدتها ترقبها في هدوء ، فشعرت برجفة تنتابها فلقد نفذت هذه الصديقة إلى اعماقها ووضعتها وجها لوجه امام الحقائق التي لم تحاول يوما ان تفكر فيها ، واعترفت بأن فاتن كانت مصيبة – ربما – في تقديرها ان حب التملك قد يكون هو سبب اهتمامها بحسونة . .

واخيرا هزت كتفيها بغير اكتراث وقالت بصوت خافت ولكنه مسموع :

– حب . . او رغبة في التملك . . هذا لايهم . . فأنا اريده . . وما اعتدت على ان يرفض لي طلب . . مهما كان . .

واطرقت فاتن في الم ، فقد استنتجت مايدور في ذهن صديقتها ، وتوقعت ان تكون المسافة بعيدة ، بل جد بعيدة ، بين ما تفكر فيه عزة . . وبين الواقع . .

وتنهدت وهي ترجو ان تكون على خطأ فيما ذهبت اليه . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني عشر

كان الشيخ صديق يشعر بالضيق ، للحرج الذي وضعته زوجته وابنته فيه ، فما تعود الناس ان يخطبوا لبناتهم ، وانما العكس هو الصحيح . .

ولو كان الامر متعلقا بغير حسونة لكان الامر ، في نظره ، مختلفا ، بل وطبيعيا ، اما هذا الفتى فشيء آخر اذ يعترف الشيخ صديق انه يتهيب الحديث اليه ، بعد ان رفض من قبل فرصة نادرة عرضها عليه . .

واعترف الشيخ صديق — ايضا — ان اعتزاز الفتى بنفسه يبث حوله نوعا من الاحترام الخفي ، وهو مايشعر به الشيخ صديق نفسه الآن ، مع شيء من الضيق لان « التفاهم » صعب مع هذا الفتى حول امور لايريدها ، ومادام زاهدا في المغريات المادية — التي تكون عادة مفاتيح بعض الاشخاص — فقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان حائرا يتساءل : — هل يعرض ابنته على الفتى ببساطة مع ان العكس هو الذي ينبغي ان يحدث ؟ . . واذا رفض الفتى ، وهو امر لايستبعده الشيخ صديق ، فماذا يفعل في هذه الحالة ؟ . . وماذا يكون من امر ابنته ؟ . .

وشعر بموجة من الحنق تجتاحه عندما خطرت عزة على باله . .

انه لايدري سرّ شخصية هذه الفتاة التي نشأت على نوع من العجرفة التي طالما تسببت في توجيه الانتقادات اليها ، والتي لايدري سببها ، فاذا كان شعورها هو ان اباها ثري وذو مال كثير ومركز متميز في الحي ، فإن ذلك لايبرر سلوكها ذاك . . فهناك من هم اغنى منه واكثر تميزا ومع ذلك فإن بناتهم في منتهى الرقة والتواضع . . فمن اين اتت هذه الفتاة بتلك الكبرياء ؟ . . وعلام الكبرياء ؟ . .

كان الشيخ صديق مستغرقا في هذه الخواطر ، وهو يلقي بين الحين والآخر نظرة على الطريق ، فقد بعث احد صبيانه إلى حامد الدخش يستدعيه اليه ، ليفاتحه في الموضوع الذي اثقلت به زوجته وابنته كاهليه . .

وعاد بخواطره إلى ابنته . .

لقد عوّدها على ان يلبي كل رغباتها ، ويهيء لها اسباب العيش الرغد ، تصورا منه ان هذا من واجبه مادامت ابنته ، ومادام قادرا على ان يفعل ذلك . .

وتساءل الشيخ صديق في سره : ترى . . هل كان مخطئا في اغراق ابنته بالدلال حتى اصبحت تعتقد بأن من اليسير الحصول على اي شيء ببساطة ودون عناء ؟ . . وانها تعتقد خلال تعاملها مع الناس انها صاحبة الرأي الاصح؟ وانها تكره حتى مجرد الاعتراض على رأيها ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستفاق من خواطره على الدخش وهو يبدو من بعيد ، يحث السير نحوه بهمة يغالب فيها صحته وسنه . .

ووصل الدخش اخيرا . . والقى السلام وبادله الشيخ صديق اياه في عطف وقد اشرق وجهه بالابتسام ، واشار إلى المقعد الطويل الذي يتصدر متجر الشيخ والذي اعتاد ان يجلس عليه ، فجلس الرجل وهو يكرر تحياته ويلقي تلك الاسئلة الرتيبة حول الصحة والاحوال والبيت والابناء . .

وطالت الجلسة ، والرجلان يرشفان الشاهي وهما يتحدثان في شتى الامور عن البحر ، والصيد ، والسوق ، والاسعار ، وعن الامور الدولية التي يسمع عنها الشيخ صديق بواسطة الراديو الذي يملكه . .

كل هذا والدخش يحس في قرارة نفسه بأن هناك غاية اخرى غير هذا الحديث استدعاه الشيخ صديق من اجلها ، وكان يرجح ان تلك الغاية تتعلق بولده حسونة بصورة أو بأخرى ، رغم ان الشيخ صديق لم يذكر حسونة قط ، ولا أتى على اسمـــه في حديثه خلال الجلسة . .

ووجد الشيخ صديق ان الحديث في غير الموضوع الاساسي قد طال اكثر مما يجب ، وان عليه ان يفاتح الدخش فيما استدعاه من اجله ، وبخاصة ان الدخش كان — كعهده دائما — شديد الاصغاء للشيخ صديق ، سريع التعليق — اعجابا وثناء بمناسبة وبدون مناسبة — على كل مايقوله له صديقه الكبير . .

وتنحنح الشيخ صديق بشيء من الارتباك ثم قال وكأنه قد تذكر حسونة فجأة :

— على فكرة . . ايش اخبار المحروس ؟ . .

— محروس مين ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

— المحروس ابنك الكبير . . حسونة طبعا . .

قالها الشيخ صديق وهو يبتسم . .

ولم يكن احب إلى الدخش من الحديث عن ولده والفخر به ، فاندفع يعيد ماسبق ان قاله لكثير من معارفه حول ماوفق الله تعالى اليه بحصول حسونة على البعثة ، وانه مشغول بالاستعداد لها ؛ واستكمال اوراقها ، واجراء معاملاتها . .

ووجد الدخش ان من الضروري ان يكرر اعتذاره للشيخ صديق عن عدم موافقة ولده على العرض الذي تفضل بتقديمه له ، معللا ذلك — كما سبق ان كرر مرارا — بحداثة سن « الولد » وقلة تجربته ، ورغبته في مواجهة الحياة على طريقته الخاصة ، وبمجهود الذاتي . .

واختتم الحديث قائلا :

— هوّ حسونة كده . . راسه ناشفة . . والشيء اللي يحطه بدماغه لازم يعمله مهما كانت الامور . .

وابتسم الشيخ صديق في تفهم وعلق :

— بالعكس . . المسألة ليست مسألة « راس ناشفة » . . وانما مسألة شخصية قوية . . وانا اهنّيك يا اخ حامد على هذا الابن . .

— كتّر خيرك ياشيخ صديق . .

واضاف الشيخ يقول في تمهل :

— تعرف ؟ . . انا اعتبر حسونة مثل اي واحد من ابنائي . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لاشك في ذلك ياشيخ صديق . . ولولا افضالك علينا لما تسنى له ان يصل إلى البعثة . . لان مساعدتك لي جعلته ينصرف إلى دراسته حتّى حقق الله تعالى امله . .

ـ هوّ يستاهل كل خير . .

ـ كلك خير وبركة ياشيخ صديق . .

واستأنف الشيخ صديق حديثه المرسوم قائلا بنفس التمهل والبطء :

ـ انا لا اتكلم كلاما عاطفيا . . وانما اتحدث عن شيء محدد في ذهني . .

ولم يفهم الدخش مايقصد الشيخ صديق واستمر يصغي إلى الحديث :

ـ انت تعلم ان كل اب يتطلع إلى زواج بناته . . وقد يختار لهن الازواج بنفسه دون ان ينتظر ان يأتوا لخطبتهن . .

وايضا لم يفهم الدخش شيئا ، ولم يخطر له ان الشيخ صديق يتحدث عن شيء معين ، ولذا فقد علّق :

ـ هذا صحيح . . بل ان البعض يكرم من يثق فيه من اصدقائه بأن يعرض عليه ان يتزوج احدى بناته . . او يزوجها لاحد ابنائه . .

ـ عليك نور ياحامد . . انت تفهمني بسرعة . .

ونظر الشيخ صديق إلى الدخش بعد ان اعتقد ان هذا قد فهم مقصده ، وكأنه ينتظر منه ان يساعده ويكمل الحديث . .

ولكن الدخش لم يقل شيئا ، وظلت عيناه معلقتين بشفتي الشيخ صديق تتلقفان حديثه دون ان تكون لديه ادنى فكرة عما وراء هذا الحديث . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولما طال الصمت ، ادرك الشيخ صديق ان الصياد العجوز لم يفهمه بعد ، فرأى ان يختصر الطريق ويتحدث مباشرة في الموضوع :

– قلت لك كم انا معجب بحسونة . .

وفتح الدخش فمه ليرد على هذه المجاملة بسيل من عبارات الشكر ، ولكن الشيخ صديق اسكته بحركة من يده وكأنه يطلب منه ان ينتظر نهاية حديثه ، واستطرد قائلا :

– لقد خطر لي ان يتزوج ولدك حسونة من ابنتي الكبرى . . عزة . . فماذا تقول ؟ . .

وفغر الدخش فاه بذهول ، اذ لم يخطر له قط ان يؤول الحديث إلى ما آل اليه . وان يكون موضوع زواج ابنه من ابنة الشيخ صديق مادة للحديث او التفكير . .

واذ لاحظ الشيخ صديق ذلك ، ابتسم وربت على كتف الدخش في مودة اخوية وهو يقول :

– انني لن اجد لابنتي زوجا خيرا من ابنك . . فأنا شديد الاعجاب به كما قلت لك اكثر من مرة . . فما رأيك ؟ . .

وتدحرجت دموع التأثر من مقلتي الدخش الواهنتين وهو يستمع إلى كلام صديقه ، فقد بدا ان هذا الفضل الذي يعرضه عليه الشيخ صديق يفوق اي فضل سالف ، فهز رأسه في تأثر وهو يقول :

– رأيي ؟ . . وهل يحتاج الامر لان تسألني رأيي ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبحركة لاشعورية تعانق الصديقان في تأثر ، والدموع تسيل على لحية الدخش الذي كان يردد بصوت شبه باك :

– اكرمك الله ياشيخ صديق . . اكرمك الله . .

ومالبث ان نهض وقال وهو يتحرك للذهاب :

– استأذنك في الذهاب . . اريد ان ازفّ البشرى للعائلة . . ولحسونة . . هذا شرف عظيم لم نكن نحلم به . .

وانفتل متوجها إلى بيته سريع الخطا ، والشيخ صديق يتابعه بانظاره صامتا وقد شعر بأن حملا ثقيلا قد انزاح عن صدره ، فهو قد فعل مارغبت اليه زوجته ، وابنته ضمنا ، ان يفعل ولعله يرتاح بعد الآن من هذا الموضوع الذي بات هو الحديث الرئيسي بينه وبين زوجته . .

ونهض هو الآخر متثاقلا ليتوجه إلى بيته ويبلغ اهله النبا . .

• • •

كان اول ماقاله الدخش وهو يدخل بيته والفرحة الطاغية تشع من عينيه :

– مبروك . . مبروك يا جماعة . . اين حسونة ؟ . .

ودهشت الزوجة والبنتان ، والتففن حوله يردن ان يفهمن سر هذه الفرحة التي جاءت به اليهن في غير موعده . .

وقالت الزوجة :

– خيرا ان شاء الله . . يابوحسونة . .

– اين الولد ؟ . . اين حسونة ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– خارج المنزل . . خير . . ايش فيه ؟ . .

وبعبارات حماسية سريعة ، راح الدخش يعلن النبأ الهام ، ويسرد التفاصيل حول الحديث الذي دار بينه وبين الشيخ صديق ، والذي لم يكن يخطر له على بال حين استدعاه الشيخ صديق لمقابلته . .

وبدا الذهول على الزوجة ، فصمتت مبهورة ، ولاحظ الدخش ذلك فقهقه في سعادة وهو يقول :

– ارى ان لسانك قد انعقد من الدهشة . . معك حق . . انا نفسي حصل لي ذلك . . تصوري ان نصاهر ، نحن البسطاء الفقراء ، عائلة كعائلة الشيخ صديق . .

وافاقت الزوجة إلى نفسها ، فأطلقت زغرودة حارة عبّرت فيها عن سعادتها بالنبأ ، وفي خيالها ولدها الحبيب وقد اصبح زوجا لابنة الشيخ صديق ذات الجمال والكمال والاصل والعلم . . وفي نفس اللحظة كان باب البيت يفتح ، ويدخل حسونة حاملا تحت ابطه مظروفا فيه بعض اوراق بعثته ، فتوقف اذ سمع زغرودة امه ، ثم ابتسم وهو يتجه إليها خالي الذهن من اي شيء ، فقد اعتاد على ان يسمع زغاريد امه في مختلف المناسبات ، فلم تعد تدهشه او تثير تساؤله . .

واقبلت عليه امه تحتضنه وتمطر وجهه بالقبلات وهي تردد في تأثر :

– مبروك يا ابني . . مبروك . . مبروك . .

وتطلع حسونة إلى ابيه متسائلا وهو يحاول الانفلات من ذراعي امه :

– ايش الحكاية يابويا ؟ . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاءه رد ابيه يزيد الموقف غموضا :

– مبروك يا ولدي . . مبروك ياحسونة . . الف مبروك . .

– مبروك على ايش ؟ . .

وجلس الجميع في حلقة يتحدثون في وقت واحد ، وحسونة يصغي مشدوها حتى اذا تبين له فحوى الحديث تحجر وجهه في نظرة غير راضية وقال وهو ينهض :

– ومين قال لكم اني ابغى اتجوز ؟ . .

– ايه ؟ . .

صاح الجميع بالسؤال في استنكار بصوت واحد وقد بدا لهم ان مسّا قد اصاب حسونة الذي راح يشرح وجهة نظره ببساطة :

– ايوه . . مين قال لكم اني ابغى اتجوز ؟ . .

وغامت الدنيا في عيني الاب ، فهو يعلم ان قرارات ابنه ومواقفه تكون ، عادة ، حاسمة لارجوع عنها ، لان لها خلفية من القناعة العميقة في نفسه ، فقال بصوت متخاذل :

– كلام ايه ده ياحسونة يا ابني ؟ . . ناس اكابر يبغوك تصير صهرهم وانت ترفض ؟ . . كلام ايه ده الله يهديك ؟ . .،

واجاب حسونة ببساطة :

– انت تعلم يا ابي ان امامي بضع سنوات من الدراسة . . وانا اريد الانصراف اليها بكل قواي . . فكيف يتسنى لي الزواج من ابنة الشيخ صديق او سواها ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخيّم الوجوم على المكان ، وقفز ذهن الدخش في الحال إلى الشيخ صديق واللقاء الودي الذي كان بينهما قبل قليل . . ماذا يقول لصديق الآن ؟ . . كيف ينهي اليه النبأ الذي لم يكن يتوقعه احد ؟ . . كيف يقول له ان حسونة يرفض مرة اخرى ، احدى مكارم الشيخ صديق ؟ . . كيف سيجد الكلمات الملائمة للتعبير عن ذلك دون ان يتسبب في اغضاب الشيخ صديق وازعاجه ؟ . . .

واحنى الدخش رأسه في يأس وهو يتمتم :

– ما ادري انت طالع عنيد كده ليه يا ابني ؟ . . انت فاكر نفسك مين ؟ فاكر نفسك ايه ؟ . . انت مهما طلعت او نزلت ابن حامد الدخش الذي يلتقط رزقه بمشقة من بين مياه البحر . .

ونفذت كلمات الاب كالخنجر في قلب الفتى ، فجلس إلى جانب والده وراح يتكلم بحرارة :

– استغفر الله يا بويا ان تكون رغبتي في الاستمرار بالدراسة نابعة من تكبر او غرور . . ولاشك في ان موافقة الشيخ صديق على زواجي من ابنته هو شرف لي . . ولكن الزواج لايتم هكذا . . فأنا مازلت صغيرا على الزواج . . وعليّ ان اكوّن نفسي اولا . .

فقال الاب ببطء وهو مطرق في وجوم :

– عرض عليك الشيخ صديق من قبل ان يساعدك على تكوين نفسك . . وهيأ لك فرصة نادرة . . ولكنك ابيت . .

– صحيح . . لانني اريـــد ان ابني حياتي بمجهودي الشخصي . . لابالصعود على اكتاف الآخرين . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهزّ الدخش رأسه في الم ، وكأنه يعبّر عن عدم اقتناعه بهذا المنطق الذي لايفهمه . .

وتدخلت الام ، محاولة اقناع ولدها بقبول مايعرضه الشيخ صديق ، بواسطة ابيه ، من فرص وهي تستخدم لهجة ترغيب ومبالغة في بيان مزايا هذه الفرص . .

ولكن حسونة هزّ رأسه في اسى ، فقد كان يؤلمه ان تقوم هذه الهوة بينه وبين اهله، فيكون هو في واد وهم في واد آخر ، وان تتباين وجهات النظر فيرى الابوان ان عروض الشيخ صديق هي فرص مادية للحياة ، ويراها هو انتقاصا من رجولته وقدرته على تكوين نفسه بجهده وعرقه . .

وقال الاب اخيرا وكأنه يعرض حلاً وسطا :

– طيّب . . لا تريد الزواج الآن . . ليكن . . . ممكن اتمام الخطبة بينك وبين ابنة الشيخ صديق . . وعندما تنتهي من دراستك وبعثتك تتزوجان . .

ولكن حسونة ظلّ على موقفه :

– يؤسفني جدا يا ابي ان تختلف وجهات نظرنا بهذه الصورة . . المسألة مسألة مبدأ . . امامي بعثة طويلة الامد . . سنوات عديدة من الدراسة . . لايدري سوى الله تعالى مايحدث خلالها لي او لها . . فكيف تريدني ان ارتبط بها من اجل زواج لايدري احد ان كان سيتم ام لا . . ؟ . . الا احرمها بذلك من فرص الزواج ؟ . .

واطرق الاب وقد اقنعه ، في داخله ، منطق ولده، ولكن ماكان يزعجه ويقلقه هو ماسوف يقوله للشيخ صديق . . وكيف يقوله . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهمس الأب بصوت خافت وكأنه يخاطب نفسه :

ــ الله يهديك يا ولدي . . الله يهديك . . هذا كل ما استطيع ان اقوله . . اودّي وشي فين داحين من الشيخ صديق . . وايش اقول له ؟ . .

ــ لاعليك يا ابي . . فانا اعتقد انه سوف يتقبل الامر بكل بساطة . . فهو راجل عاقل وسوف يفهم موقفي . .

ــ ان شاء الله يا ولدي . . ولكن . .

وقطع الدخش جملته ، وهزّ رأسه بحركة تدل على الحيرة والفهم في آن واحد ، ثم استأنف كلامه وهو يقول في أسف وكأنه امام امر لاحيلة له فيه :

ــ انكم اولاد زمانكم . . وكما يقال . . زمان كأهله . . واهله كما ترى . .

ــ آسف يا ابي ان كنت قد ازعجتك . . ولكن . .

ــ ولكن ماذا ؟ . .

ــ ولكنني متألم لقولك اني مهما طلعت او نزلت فأنا ابن حامد الدخش . .

ــ وماذا في ذلك ؟ . . انها الحقيقة . .

ــ انني اعتز بأني ابن حامد الدخش . . كما لا اعتز بشيء آخر في حياتي لانك رجل شريف . . يكافح ليأكل رزقه بعرق جبينه . .

واغرورقت عينا الدخش في تأثر وهو يسمع كلام ولده فقال بصوت متهدج :

ــ بارك الله فيك يا ولدي . .

واستطرد حسونة يقول بحماسة :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– اجل . . انت القدوة الحسنة لي . . وانا اعتز بك . . اعتز بك كثيرا يا ابي . . وارى الحياة كلها من خلالك . . انت وامي . . فأرجوك الا تستهين بنفسك على هذه الصورة التي آلمتني في الصميم . .

– لاعليك يا ولدي . . لاعليك . . . سامحني . . ماكنت اقصد . . .

• • •

في اليوم التالي كان الشيخ صديق جالسا في مكانه المعتاد بالمتجر وهو يشعر بارتياح عميق . . فقد كان على ثقة تامة من انه لن يلبث ان يرى صديقه الدخش وولده حسونة يقبلان عليه ، فيعانقهما ، ويقبّل حسونة يده ، ثم يجلسان على جانبيه يشكرانه على مبادرته الكريمة وينتقل الجميع بعد ذلك للبحث في التفاصيل وترتيب الامور . .

وعاد بذاكرته إلى الامس ، عندما دخل البيت لتستقبله الام فور وصوله بالسؤال عما تم ، ولم يفته ان يلمح ابنته عزة وهي تتوارى وراء احد الابواب اما خجلا منه ، واما لتنصت إلى كلامه ، او للسببين معا . .

وقال بصوت مرتفع وهو يخلع « جبته » . .

– خلاص . . كل شيء على مايرام . .

وجلس يروي للزوجة ما جرى بينه وبين حامد الدخش ، واللباقة التي عالج بها الموضوع بحيث لايشعر الدخش بـأن في ذلك العرض امتهانا له او انتقاصا من قيمة ابنته . .

وتنهدت الام بارتياح ، وتمتمت بكلمات الحمد لله ، ونهضت في الحال إلى الباب الذي توارت عزة وراءه ، وعادت بعد قليل ومعالم وجهها تفصح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عن الصدى الطيب الذي احدثه النبأ ، وفهم صديق ان الام قد ابلغت ابنتها وانها تفاهمت معها ، وان كل شيء – كما قال هو – على مايرام . .

ولم يستغرب ان تعتكف عزة في غرفتها فلاتشاركهم الطعام ، ولا تبدو امامه حتى خروجه هذا الصباح ، فالفتاة تشعر بالخجل الطبيعي المفروض في مثلها . .

ومضى إلى متجره متوقعا ان يرى الدخش وولده بانتظاره ، ولكنه لم يستغرب كثيرا عندما لم يجدهما ، فربما اراد الاب والابن ان يبدوا على شيء من الاتزان بالمجيء بعد موعد افتتاح المتجر بساعة او ساعتين . .

ولكن الوقت مرّ ولم يأت الدخش وولده . .

وبدأ القلق يتسرب إلى ذهن الشيخ صديق . .

لم هذا التأخير ؟ . .

هل ذهب الاثنان ، مثلا ، لشراء هدية يقدمانها بهذه المناسبة ؟ . .

لا . . فلاتزال هناك عدة مراحل قبل الوصول إلى موضوع الهدية . . . فضلا عن ان الدخش لايملك ، بطبيعة الحال ، ثمنها . . فما الذي اخرهما اذن ؟ . .

واذ مضت بضع ساعات ، صار القلق يفترس الشيخ صديق ، فهو قد استنفد جميع الاعذار والمبررات والتعليلات التي حاول ان يفسر بها غياب الدخش وولده . . واستبعد المرض . . والطوارىء وكل ما يمنع الدخش من ابلاغه بسبب تأخره بأية صورة من الصور . .

واتجه ذهنه وجهة اخرى . . ماذا سيقول لزوجته وابنته ؟ . . وكيف ينهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اليهما ان « العريس » لم يأت اليه كما كان يتوقع ؟ . . وكيف يبرر لهما هذا
التصرف المحرج من قبل الدخش وولده ؟ . .

وبدأت عواطفه تتجه بالسخط نحو الدخش ، فقد كان عليه ان يأتي في جميع الاحوال ، حتى ولو كان الابن قد رفض عرضه – وهو مايستبعده الشيخ صديق – اذ ليس من اللائق ان يتوارى عنه بهذه الصورة ويدعه ينتظر مع ان بينهما امرا بالغ الاهمية بالنسبة لكليهما . .

وخطر له ان يبعث احد صبيانه إلى مسكن الدخش ليستفسر منه عن سبب غيابه ولكنه ازاح الفكرة عنه في الحال ، اذ ان مثل هذا الاستفسار يعتبر انتقاصا من مكانته تجاه صديقه الصياد . . وايقن ، في آخر النهار ، ان الدخش لن يأتي ، فنهض متثاقلا وافكاره تسبقه إلى بيته حيث تنتظره التساؤلات والاستفسارات التي لايجد لها ، هو نفسه ، جوابا او تعليلا . .

وصحّ ما توقعه . .

فحين دخل البيت بمشيته المتثاقلة ، ووجهه لاينمّ عن شيء مما تتوقعه زوجته وابنته ، بهتت الزوجة وسألته بقلب واجف :

– هه . . بشّر . .

فلم يجب ، بل اتجه إلى مكانه في المجلس وتهالك عليه وهو يزفر في ضيق . .

وعادت الزوجة إلى السؤال بصوت مرتجف عما لديه من انباء ، ومع انه كان قد نوى الترفق في الادلاء بما لديه والتدرج في ابلاغ زوجته – وابنته التي تنصت وراء الباب دون شك – ثم محاولة تخفيف وقع النبأ بايجاد المعاذير والتعليلات لعدم حضور الدخش وولده . . مع انه كان قد نوى ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورتّب له في ذهنه العبارات المناسبة ، فانه وجد نفسه يقول الحقيقة دون ان يعني حتى باختيار الفاظه :

— لم يحدث شيء . . الرجل لم يأت . .

وضربت الزوجة على صدرها في دهشة واستنكار وقالت :

— ايش ؟ . .

فأعاد كلامه بحرفيته وهو يتحاشى ان يلتقي نظره بنظر زوجته . .

واستطرد يقول بحنق مكتوم :

— هذه هي نتيجة احراجكم السخيف لي . . لقد حملتموني على ان اعرض ابنتي على ذلك الرجل . . فلم يكلف نفسه حتى عناء الاعتذار . .

وقالت الزوجة بذهول وهي تختلس نظرة سريعة إلى الباب الذي كانت عزة تقف وراءه . .

— ولكنك قلت بالامس ان الرجل قد جنّ من الفرح . . وانه مضى متلهفا لابلاغ ولده . .

— صحيح ولكن . .

— ولكن ماذا ؟ . . .

— لعل الولد قد رفض . .

وقبل ان تعلق الزوجة باستنكار على جملة زوجها سمع الاثنان صوت اغلاق باب غرفة عزة بعنف مما دل على انها كانت — كما حدس الاثنان — تنصت إلى الحديث منذ بدايته . .

• • •

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومضت بضعة ايام ، ساد الوجوم خلالها بيت الشيخ صديق ، كما ساد مسكن الدخش ، فالشيخ صديق قد منع زوجته من مفاتحته في ذلك الموضوع منعا قاطعا ، والفتاة قد اعتكفت في غرفتها ترفض الخروج وتأبى ان تفتح بابها لاحد ، والخجل يلفّ الشيخ صديق من قمة رأسه إلى اخمص قدميه ، اذ تبين له الآن كم كان متسرعا في مفاتحة حامد الدخش في موضوع كموضوع زواج ولديهما ، وما كان يتمنى – بعد هذا – الا ان يرى الدخش لكي يعرف منه سبب غيابه ، وبعدها يتصرف معه بما يتفق وكرامته التي جرحت . .

وبينما كان الشيخ صديق يرشف الشاهي وهو مستغرق في هذه الخواطر ، كاد الفنجان يقع من يده عندما رأى حامد الدخش يبدو على البعد وهو يتجه اليه ، يجرجر خطاه . . ورأسه ملقى على صدره في انكسار . .

ولم يعجب الشيخ صديق عندما وجد نفسه متسمرا في مكانه ينظر إلى الدخش صامتا وقد بلغ منه الفضول كل مبلغ ، فكأن لهفته على معرفة سر غياب الدخش ، وما لديه من انباء ، قد انسته كل العبارات والتصرفات القاسية التي كان قد اعدّها لمثل هذا اللقاء . .

وقال الدخش بصوت خافت دون ان يحاول ان يمد يده للشيخ صديق بالمصافحة :

– السلام عليكم يا شيخ صديق . .

وردّ الشيخ صديق السلام ببرود بينما جلس الدخش على مقعد بعيدا عن مكانه المعتاد وعيناه مسمرتان بالأرض . .

وتلاشى في لحظات كل ما كان في نفس الشيخ صديق من غضب وسخط على الدخش ، اذ كانت هيئته تدل على انه مازال – كما عهده الشيخ صديق –

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

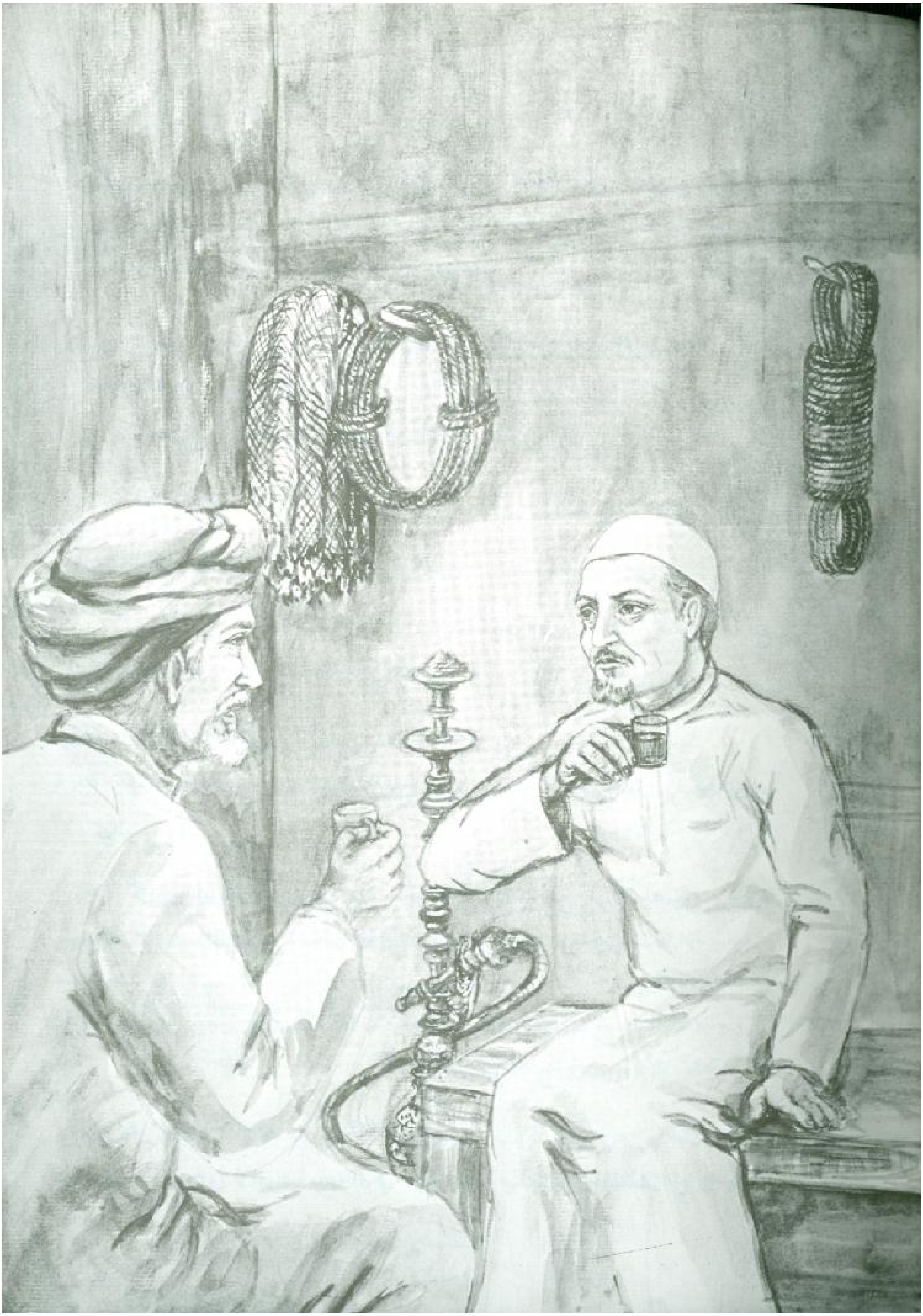

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك الصياد العجوز الذي يرتبط بالشيخ صديق بمشاعر من الاحترام الشديد ، والاعتراف بالجميل ، وان هناك اسبابا اقوى منه هي التي حالت دون حضوره في اليوم التالي منذ لقائه الاخير بالشيخ صديق . .

وطال الصمت بين الاثنين حتّى قطعه الشيخ صديق بلطف ولكن بلهجة ذات مغزى :

ـ ايش الغيبة الطويلة دي ياحامد ؟ . . شغلت بالنا . .

فقال الدخش دون ان يرفع عينيه عن الارض :

ـ ربنا مايشغل لك بال يا شيخ صديق . .

وعاد الصمت يخيم من جديد ، بينما كان فضول الشيخ صديق قد بلغ منتهاه ، فقال وكأنه يستحثه على الكلام :

ـ هه . . ايش عندك ؟ . .

ورفع الدخش عينيه لتلتقيا بعيني الشيخ صديق ، فشعر هذا برجفة تجتاح كيانه . .

كانت نظرات الدخش تمثل كل ما في الدنيا من حزن وخجل وحيرة وكان واضحا انه لايجد الكلمات التي يعبّر بها عما يدور في خلده . .

وقال له الشيخ صديق في عطف :

ـ على راحتك . . خد . . اشرب الشاهي . .

وبعد صمت يسير تكلم الدخش . .

ـ الحق اني لادري ماذا اقول لك ياشيخ صديق . فضلك على راسي . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– استغفر الله ياحامد . . الفضل لله وحده . .

– وقد زدت تلطفا بما ابديته لي من عطفك على ولدي حسونة بموافقتك على زواجه من ابنتك المحروسة . .

وتلاعبت ابتسامة خفيفة على شفتي الشيخ صديق ، فقد كانت الحرارة التي يتحدث الدخش بها تدل على انه مازال كما كان اخلاصا ومحبة له، وان هذا الرجل الامي يختار عباراته بلباقة فطرية تستحق التقدير والاعجاب . .

وقال الشيخ صديق :

– لاعليك يا اخ حامد . . الامور قسمة ونصيب . . فقط اريد ان اعرف ماذا جرى . .

وضرب الدخش كفا بكف وهو يقول :

– عجايب والله . . العادة انه الواحد يخطب البنت . . والبنت او اهلها يرفضوا . . عمري ماسمعت عن واحد يرفض يتزوج بنت من عيلة كبيرة وناس شاريينه . .

ولم يعد الشيخ صديق في حاجة إلى سماع المزيد . . فقد اوجز له الدخش بعباراته تلك كل شيء ، ومع ان الدخش قد استرسل يروي في حرارة تفاصيل الحديث الذي دار بينه وبين ولده ، ويبين انه لايتمنى شيئا سوى ان يرى ولده زوجا لابنة الشيخ صديق ، فقد كان هذا قد قفز بذهنه إلى ناحية اخرى ، فترك الدخش يتكلم ، وراح يفكر . . .

هذا فتى من نوع غريب . . ولكنه – على اية حال – يستحق الاعجاب لان اصراره على رفض كل عون يقدمه له الشيخ صديق ، واصراره على بناء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حياته بمجهوده وتعبه امر يدعو إلى التقدير حتى ولو كان يمس ، بشكل او بآخر ، بالشيخ صديق نفسه . . فهو يبدو معتدا بنفسه ، وليس مغرورا . .

ومن جهة أخرى ملأت ذهن الشيخ صديق فكرة ضجّت في عقله وملكت عليه تفكيره :

– يجب ان ازوج ابنتي من اي شاب آخر في اسرع وقت . . لكي تنسى الامر ونطوي صفحة هذه المشكلة التي لم تكن في الحسبان . . .

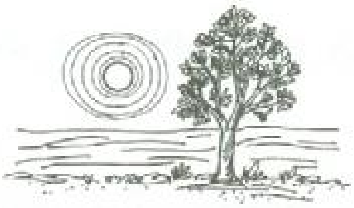

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الحادي عشر

نظر الدخش ، من خلال نافذة مسكنه إلى السماء ، ثم إلى البحر ، كعادته كلما اراد الخروج إلى الصيد ، فاطمأن إلى ان الجو ملائم للعمل ، وان بوسعه ان يمارس مهنته التي مايدري كم مرة وقف فيها هذه الوقفة المتفحصة لحالة الجو قبل ان يقرر الخروج او المكوث . .

ووضعت له ام حسونة افطاره في صمت ، وقد تحجرت في عينيها دموع جهدت كي تمنعها من الانحدار ولم تحاول ان تسأل زوجها — كعادتها — ماذا كان قد نوى الخروج إلى البحر ام لا . .

كل شيء قد تغيّر الآن . .

فحسونة يوشك على السفر ، وقد اخبرهم بالامس انه سينهي ماتبقى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من اجراءات السفر هذا اليوم ، ومعنى ذلك انه لن يتمكن من الخروج مع ابيه إلى الصيد . .

وابو حسونة قد بات اكثر صمتا واخلادا إلى التفكير والوجوم ، وماتدري الزوجة أذاك بسبب قرب سفر حسونة والفراغ الذي سوف يتركه في حياتهم ام بسبب ما وقع بين الشيخ صديق والدخش وولديهما . .

صحيح ان الشيخ قد تفهّم وضع الدخش خير تفهم ، فلم يغير شيئا من معاملته له ، وخاصة من ناحية السلف النقدية التي يدفعها له بانتظام ، الا ان شيئا ما قد وقع بين الاثنين على اية حال . . فلم يكن سهلا ان يتقبل الشيخ صديق الرفض المستمر الذي واجه به حسونة كل عروضه لمساعدته ، وتحسين وضعه وضمان مستقبله ، دون ان يشعر بشيء من الغضاضة . . ولذا فقد انكمش الدخش في علاقته بالشيخ صديق ، واصبح متحفظا ، يشعر بالخجل كلما تذكر موقف ولده من الرجل الذي اعطاهم الكثير ، وكفاهم مؤونة الحاجة والحرمان . .

وتناول الدخش طعامه في صمت هو الآخر ، ولم يحاول ان يتجاذب اطراف الحديث مع ام حسونة كما اعتاد ان يفعل من قبل . .

واخيرا نهض وهو يحمد الله بصوت خافت ، وحمل اشياءه على ظهر من المسكن وهو يجر رجليه في تثاقل . .

ومن النافذة كانت عينا ام حسونة ترمقانه من بعيد وقد ترقرقت الدموع فيهما ، وهمست بصوت خافت طالبة له التوفيق والعون :

– ربنا ياخذ بيدك يا ابو حسونة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اما الدخش فقد واصل سيره الرتيب حتى وصل إلى الخور ، وبدأ في قذف شباكه لجمع اللعف ، وهو يقوم بعمله هذا بصورة آلية وقد اتجه ذهنه إلى اشياء أخرى سيطرت عليه منذ ان حصل حسونة على شهادته الثانوية وجرى ماجرى من امور . .

هذه اول مرة يخرج فيها الدخش بدون حسونة منذ سنوات ، فلقد حمل عنه ولده الشطر الاكبر من اعباء هذا العمل الشاق ، حتى بات — كما سبق له ان فكر — اقرب إلى ان يكون مساعدا لولده الذي كان يتولى بنفسه كل الاعمال الشاقة ويحاول ان يريح اباه قدر امكانه . .

الآن ، لايدري الا الله ماسيكون من امره ، هو الصياد العجوز ، بعد ان حرم من مساعدة ولده ، واصابه ما اصابه من آلام بسبب مواقف حسونة المتصلبة تجاه عروض الشيخ صديق السخية . . ولم ينكر الدخش على نفسه ان اكتئابه لموقف ولده يعود إلى اسباب قد تعتبر نوعا من الانانية . .

فلو ان حسونة قبل العمل مع الشيخ صديق وتزوج ابنته ، لاستراح من عناء السنوات التي سيقضيها في الدراسة ، واراح اباه وامه واختيه ، وانتظمت حياتهم جميعا بشكل يرضيهم ، بدلا من الجراح والآلام التي ملأت نفوس كثيرين منهم . . عزة . . الشيخ صـــديق . . الدخش . . والدتا الفتاة والفتى كلهم اصابتهم الجراح والآلام . . ووحده حسونة يبدو غير مكترث لشيء . .

— اصلحه الله وهداه . .

همس الدخش ، رغما عنه ، بهذه الجملة وهو يلقي شبكته لاستكمال جمع العلف ، حين سمع صوت سيارة تقترب من المكان ، فلم يلتفت اليها لان لديه مايكفيه من الهموم والمشاغل . . وسمع صوت فتح باب السيارة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واغلاقه ، فلم يلتفت كذلك ، ثم تناهي اليه وقع اقدام خفيفة على رمال الشاطىء فالتفت ثم مالبث ان هبّ واقفا وقلبه يدق بعنف . .

كانت عزة هي القادمة . . وقد سارت – هذه المرة – محنية الكتفين ، واختفت من مشيتها تلك الكبرياء الواضحة . .

وسارع الشيخ اليها مرحبّا ، فألقت عليه السلام بصوت خافت ، فتلفت حوله يبحث عن مكان يجلسها فيه فلم يجد . . وادركت الفتاة مراده فابتسمت ابتسامة مغتصبة ، واتجهت إلى صخرة قرب الحور فجلست عليها وهي تنظر إلى الرجل صامتة . .

ولم يشعر الدخش بارتباك وحيرة في حياته مثلما شعر في تلك اللحظة ، فهو قد رأى ما حلّ بالفتاة بعد تلك الصدمة ، واحس بأن ولده مسئول عن ذلك ، وانه عاجز عن ان يفعل شيئا يسترضي به الفتاة ويشفي جراح قلبها . .

وراح يتشاغل بما كان بين يديه ، مترقبا ان تبدأ الفتاة حديثها ليعرف سبب قدومها اليه . .

واخيرا تكلمت الفتاة . .

قالت بلطف :

– قلت في نفسي انني سأجدك هنا حتما . . فالجو مناسب للصيد . .

وغمغم الرجل بكلمات غير مفهومة ، لعلها كانت تعليقا على كلامها . .

واستطردت الفتاة :

– عدت تعمل وحدك ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وظل الرجل صامتا . .

لقد كان واضحا ان عزة تحاول ان تجد مدخلا للحديث عن حسونة ، ولكن صمت الصياد العجوز – الناجم عن شعوره بالحرج – لم يتح لها هذه الفرصة . .

ويبدو انها قررت ان تطرق الموضوع مباشرة :

– متى يسافر . . حسونة ؟ . .

قالتها بصوت ضعيف ، بعث الرجفة في جسم الدخش ، فتنحنح عدة مرات في ارتباك قبل ان يجيب :

– اعتقد . . اعتقد انه سيسافر خلال هذين اليومين . .

– بهذه السرعة ؟ . .

هتفت الفتاة وقد بدا عليها انها فوجئت بالنبأ . .

فقال الرجل وهو يتشاغل بما بين يديه :

– فهمت ان هناك موعدا محددا للالتحاق بالجامعة . .

– ربنا معاه . . انه يستحق كل خير . .

وشعر الدخش بالالم ، فقد كانت الفتاة تتحدث برقة واخلاص ينمان عن اهتمامها بولده الذي كان منه ذلك الموقف الذي لايفهم له سببا . .

وكأنما شعرت الفتاة بانها قد تجاوزت الحد في الحديث عن حسونة ، فقالت :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ آسفة ياعم حامد اذا كنت اسألك عن حسونة . . انني اعتبرك كوالدي تماما . . ولقد خطر لي ان آتي إلى هذا المكان في هذه الساعة توقعا مني بأن اجدك هنا . . مادامت حالة البحر ملائمة للصيد . .

وتمهلت الفتاة وكأنها تتردد في اكمال كلامها ، ولكنها حسمت هذا التردد بأن قالت :

ـ اعترف لك ياعم حامد . . انني كنت اتوقع ان اجد حسونة هنا . . لم اكن اعلم انه سيسافر بهذه السرعة . .

وهزّ الرجل رأسه ليشعرها بأنه يصغي إلى حديثها ، اذ لم يكن لديه مايجيب به على كلامها . .

وعادت عزة إلى الكلام :

ـ لست ادري كيف اشرح لك الامر ياعم حامد . . لقد . . لقد كان ذلك كله رغما عني . . لست ادري كيف . . وأحمد الله على ان المسألة محصورة فيما بيننا . . اعني عائلتينا فقط . .

ورفع الرجل عينيه اليها قائلاً :

ـ اطمئني يا ابنتي . . ان احدا منا لن يتحدث عن ذلك . .

واطرقت الفتاة وقد تورد وجهها خجلا وقالت :

ـ ليس سهلا ان يتناقل الناس ان شابا رفض الزواج من فتاة مثلي . .

فرفع الدخش ذراعه نحوها في توسل وهو يقول :

ـ لاتقولي هذا ياست عزة . . انت مفخرة لأي شاب في الدنيا . . ولكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حسونة غريب الاطوار . . هذا هو كل شيء . . انه يحترمك احتراما شديدا . . صدّقيني يا ابنتي . . ولكنه مولع بدراسته إلى حد الهوس . . وهو لايريد ان يفوّت عليك فرص الزواج حتى ينتهي من دراسته . . هذا هو كل شيء . . اؤكد لك يا ابنتي . .

واجابت الفتاة وهي لاتزال مطرقة :

— لاتحاول التخفيف عني ياعم حامد . . او كان يريد الزواج مني لما كان اسهل عليه من ذلك . . هناك كثيرون يذهبون إلى الدراسة مع زوجاتهم..

— الم اقل لك يا ابنتي ان حسونة غريب الاطوار ؟ . . لقد ترك عائلته . . تركني انا . . ترك البحر . . رغم ولعه به . . ليسافر ويكمل دراسته . .

ولم تجب الفتاة ، بل ظلت على اطراقتها العميقة ، فرفع الرجل رأسه اليها وروّعه منظر وجهها وقد تقاص في الم . . ثم وضعت يديها على صدرها ، وانطلقت منها آهة الم كتمتها في الحال ، فجزع الدخش وقفز نحوها وهو يقول في لهفة :

— ست عزة خيرا ان شاء الله . . ماذا بك ؟ . .

ولم تجب ، بل انحنت على ركبتيها وهي تضع يديها على صدرها ، فحار الرجل ماذا يفعل ، وراح يتلفت حوله حائرا إلى ان وقع بصره على سيارة الشيخ صديق التي كانت واقفة على البعد تنتظر عزة ، فجرى نحوها كالمجنون وهو ينادي السائق ، فخرج هذا من السيارة مستجيبا لندائه فصاح به الدخش :

— الحق يا اخ . . الست عزة . . لست ادري مابها . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وركض الاثنان نحو الفتاة التي رفعت رأسها اليهما . واغتصبت ابتسامة باهتة ثم نهضت وهي تتحامل على نفسها . .

وهتف السائق في جزع :

– خير . . ياعمتي . .

فقالت بصوت ضعيف :

– خير . . خير . . خلاص . . مافي حاجة . .

وقال الدخش :

– ما تشوفي انه ناخدك على المستشفى ؟ . .

– ما في لزوم للمستشفى . . انا خفّيت خلاص . . شوية ألم عارض في الصدر . .

ووقف الدخش ينظر اليها في جزع ، ولكنها اتجهت إلى السيارة في خطوات تنبىء عما تعاني من الم ، وعندما همّت بالركوب التفتت نحو الدخش ولوّحت له بيدها وهي تقول :

– مع السلامة ياعم حامد . . نشوف وشك بخير . .

وانطلقت السيارة بها ، بينما وقف الدخش مسمرا في مكانه ، ينظر إلى الطريق الذي غابت فيه السيارة وهو يشعر بانقباض غريب . .

وعاد إلى شباكه ولعفه ، يريد ان يكمل عمله ، ولكنه شعر بأنه زاهد في العمل ، ساخط على كل شيء ، حزين ، ومتألم ، وحائر ، ومايدري ما يفعل . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقرر ان يعود إلى مسكنه ، فهناك يستطيع ان يفكر بصورة افضل ، ويرى مايجب عمله تجاه ابنة صديقه العزيز . .

* * *

دخل الدخش مسكنه محني الظهر ، وكأن هموم الدنيا كلها قد اثقلت كاهليه . . كان لايفهم سر مايجري امامه ومن حوله . . لافيما يتعلق بموقف ولده من العروض السخية التي قدمها له الشيخ صديق ، والتي تكفل له المستقبل الرغد الذي يتمناه له ، ولافيما يتعلق بتلك الفتاة الجميلة « عزة » التي يتفق اسمها مع وضعها كابنة لرجل كالشيخ صديق ، وما هو سر تمسكها بولده ذلك التمسك الذي لم تكتمه عنه ولا عن ابيها ولا امها ، وهي القادرة على ان تتزوج من هو افضل ، ماديا واجتماعيا ، من حسونة . . ابن الصياد العجوز . .

كان له من خبرته بالحياة مايجعله يفهم ان مثل هذه الامور لاتفسّر عادة لأنها نابعة من القلب ، لامن العقل ، ومن العاطفة ، لامن المحاكمة المنطقية السليمة ، فهي – اذن – امر واقع لاسبيل إلى تغييره الا اذا تغيّر القلب ، وتحولت العاطفة . . فهل هذا ممكن ؟ . .

سواء كان ذلك ممكنا او غير ممكن فان من الضروري ، من الضروري جدا ، ان يصبح ممكنا قبل ان تقع مأساة مروّعة يحس الدخش ، بفطرته ، انها تحوّم حولهم جميعا ، وسوف تمسّهم جميعا . . وتنهد في يأس وشجن ، وهو يلقي بجسده الواهن إلى الارض ، ولم يجب على تساؤل زوجته التي تعجبت لعودته المفاجئة هذه :

– خير يابو حسونة . . ايش اللي جابك داحين ؟ . . حاسس بحاجة ؟ . .

وهزّ رأسه نفيا وغمغم بصوت خافت :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– حسّيت اني مالي نفس في الشغل . .

– ما هي عادتك . .

– اهو دا اللي حصل . .

قال جملته بلهجة حاسمة ، اعتادت ام حسونة ان تفهم منها انه لايريد مناقشة هذا الامر ، فقلبت شفتها السفلى في دهشة ، وغادرت الغرفة دون ان تضيف كلمة واحدة . .

وانتبه الدخش من افكاره على صوت الباب وهو يفتح ، ثم وقع اقدام حسونة بخطواته البطيئة ، فرفع رأسه منتظرا ان يمر الفتى امام باب الغرفة ، حتى اذا ما رآه ناداه :

– حسونة . . .

كان صوته خشنا ، قاسيا ، كأنه يعان عبارة تأنيب . .

وتوقف حسونة ، والقى السلام على ابيه ، فردّ هذا بعبارة مقتضبة ثم اضاف :

– تعال هنا . .

وتردد حسونة بعض الشيء ، فقد كانت في صوت ابيه رنّة لم يسبق ان سمع مثلها ، ولكنه مالبث ان تقدم إلى داخل الغرفة . .

– اجلس . .

قالها الاب بنفس اللهجة الخشنة التي لم يسمع حسونة مثلها من قبل . .

وجلس تجاه ابيه وهو واجف القلب ، وقد تبدد ما كان في داخله من سرور

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وارتياح بعد ان انهى جميع مستلزمات سفره ، وبات بوسعه ان يخطو الخطوة الاولى على طريق تحقيق حلمه في استكمال تعليمه العالي . .

وظل الاب مطرقا ينظر إلى صامتا الأرض ثم رفع رأسه وقال فجأة :

ـ انت ايش حكايتك ياولد ؟ . .

ودهش حسونة ، فعبارة ابيه تحمل اتهاما صارخا بأنه قد ارتكب خطأ ما ، فتساءل بصوت مرتجف :

ـ حكاية ايش يابوي ؟ . .

ـ حكاية البنت دي . . ابنة الشيخ صديق . . هل تعلم انها جاءتني هذا الصباح إلى الخور وراحت تسألني عنك ؟ . .

وتنهد حسونة في ضيق ، فقد فهم المقصود من حديث ابيه ، وفهم ان عليه ان يعيد للمرة الالف ، ربما ، تفسير موقفه تجاه هذه المسألة ، وقبل ان يفتح فمه بالاجابة استطرد ابوه يتحدث في الم :

ـ يا ابني . . لقد اخذتك معي إلى البحر . . فساعدتني . . وعملت إلى جانبي . . وصرت اتفاءل بك ، ومازلت . .

لقد علمتك مهنتنا الشاقة اشياء كثيرة فيما احسب . . علّمتك الصبر . . والجلد . . والرضى بما يجود به الله علينا من خيرات البحر . .

ولكنني كنت آمل ان تكون هذه المهنة قد علّمتك اشياء اخرى . . لقد عشنا سنوات ونحن نعاني من جراح البحر . . في اجسادنا . . وفي نفوسنا . . حتى اصبحت اتصور انك قد تعلمت من تلك الجراح الرحمة والرأفة . . والعمل على لأم تلك الجراح . . لا ان تصطنعها انت بنفسك . . وتسببها للاخرين . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ انـــا ؟ . .

قال حسونة في استغراب شديد يدل على انه قد فوجىء بهذا الاتهام الذي الصقه ابوه به . .

ـ نعم . . انت . .

ـ وكيف كان ذلك ؟ . .

ـ هل نسيت عزة ؟ . . تلك الفتاة . . ابنة الاصول . . والجمال والمال والكمال ؟ . . هل تستطيع ان تدلني على علّة واحدة فيها تجعلك تعاملها بتلك القسوة وتسبب لها تلك الجراح والالآم ؟ . .

. . اتراك ، يا ولدي ، قد تعلمت من البحر قسوته ، ونسيت رأفته ؟ . . هل اكتسبت من البحر جبروته وتناسيت عطاءه ؟ . .

وارخى حسونة عينيه إلى الارض ، وقد التهبت اذناه بالدماء الحارة التي تصاعدت اليهما وقال بصوت خافت :

ـ انا رهن اشارتك يا ابي . . اذا كنت تريدني ان اتزوج من ابنة الشيخ صديق فأنا ، كما عهدتني ، لايمكن ان اعصى لك امرا . .

ونظر الاب إلى ولده بدهشة ، فهو لم يكن يتوقع منه هذا الجواب ، فتساءل :

ـ بهذه البساطة ؟ . . تغير رأيك من النقيض إلى النقيض ؟ . .

وبدت الحيرة على وجه حسونة ، وبدا عليه وكأنه يبحث عن كلام يستطيع ان يعرب به عن وجهة نظره :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لقد قلت لك يا ابي . . انني اقبل تنفيذا لرغبتك . . لا اكثر . .

وتمهل حسونة وهو يستطرد :

ـ ان الزواج ، يا ابي ، يجب ان يقوم على الحب . . الحب المتبادل . . بكل ماتعنيه هذه الكلمة من تفاهم وتكافؤ وتعاون بين الطرفين . . وهو شعور داخلي ينشأ دون ان يعرف احد كيف نشأ . . وينمو دون ان يعرف احد كيف نما . . ويملك على الطرفين احاسيسهما دون ان يملكا من امرهما ، تجاهه ، شيئا . .

واذا كنت يا ابي تعتقد بأن عزة تحبني ، فاسمح لي ان اخالفك في الرأي لانني لا اعتقد انها تحبني كما تتصور انت . .

ومع ان الدخش لم يفهم معنى كل ماقاله له ولده ، الا انه استوعب محتواه ولذا فقد قاطع ولده قائلا بدهشة :

ـ تعتقد انها لاتحبك ؟ . . وهذا الذي يبدو منها ؟ . . ماذا تسميه ؟ . .

ـ انها تريد اخضاعي . . تريد اذلالي . . تريد امتلاكي . . هل تذكر ، يا ابي ، اول مرة خرجت فيها معنا في مركب العود ؟ . . هل تذكر كيف كانت تعاملني ؟ . . وكيف كنت تعاملها ؟ . . ثم . . ورغم انها غيرت كثيرا من طريقتها في معاملتي فلست اظن ان ذلك عائد الا لما لمسته مني من سلبية حاولت بها ان احافظ على كرامتي تجاهها . . هذا هو رأيي واعتقادي، يا ابي ؛ ولو كنت مخطئا لكان حريا بي ان اشعر نحوها بشيء من العاطفة . .

وهز الاب رأسه وكأنه يعبر عن عدم فهمه ، او قناعته ، واجاب :

ـ ولكن . . هل تظن ، يا ولدي ، ان رغبتها في امتلاكك واخضاعك ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما تقول ، تصل بها إلى حد الزواج منك ؟ . . وهي ابنة الشيخ صديق . . . وانت ابن حامد الدخش ؟ . .

– آه يا ابي . . هذه هي النقطة التي اريد ان اشرحها لك . . لقد هال ابنة الشيخ صديق ان يقف منها ابن حامد الدخش ذلك الموقف السلبي . . ولم تستطع ان تفهم كيف يحدث ذلك ؟ . . انها لم تفكر لحظة واحدة انني فخور بأبي الصياد الكادح مثلما هي فخورة بأبيها الثري . . وثق يا ابي ان هذا الزواج ، اذا تمّ ، فلن يحمل لها او لي الا التعاسة والشقاء . . لأنها ستفقد اهتمامها بي بمجرد « حصولها » عليّ . . ولك ان تتصور ، يا ابي ، كيف تكون حياتي معها اذ ذاك . .

كان الابن يتحدث بحماسة وانفعال ، ولم يعد يعنى باختيار الفاظه التي توحي بما وصل اليه من تعليم . . والتي يفترض ان اباه لم يفهمها كلها . . ولعله ، ايضا ، لم يفهم لبّ الموضوع كما يراه حسونة . .

ومهما يكن من الامر ، فقد بدا التأثر على الاب واضحا جليا فأشرق وجهه بابتسامة راضيه ، وراح يربت على كتف ولده وهو يقول في عطف :

– لابأس يا ولدي . . لابأس . . اعتقد انني فهمت ماتريد ان تقول . . لاعليك . . اذهب في بعثتك على بركة الله . . واسأل الله ان يوفقك في كل خطوة تخطوها . .

وشعر حسونة بأن جبلا قد انزاح عن كاهله ، فأقبل على يدي والده يقبلهما ويمرّغ وجهه عليهما وهو يقول في تأثر :

– حفظك الله لنا يا ابي . . وامدك بالصحة والعافية وطول العمر . . ثق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

انني سأبقى ، ان شاء الله ، كما عهدتني دائما ، والدك المطيع ، الطامع في دعائك ورضاك . . وانني لا احمل للشيخ صديق وعائلته وحتى عزة نفسها الا التقدير . . والله يتولانا جميعا . .

ونهض حسونة متجها إلى الداخل ، بينما شد الدخش مسندا بجانبه فاتكأ عليه وهمس وكأنه يخاطب احدا امامه :

– اولاد زمانهم . . اولاد زمانهم . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني عشر

عبثا حاول الشيخ صديق ان يعرف حقيقة ماحدث لابنته عندما انتابها ذلك الالم الذي وصفه السائق له بأنه كان يبدو « فظيعا » ، وان الفتاة حاولت كتمانه واخفاء اعراضه رغم محاولته ــ اثناء الطريق ــ اقناعها بالمرور على احد المستشفيات ، فقد اجابته ، رغم رنّة الالم الواضحة في صوتها ، انها في خير ، وحذّرته من ان يخبر احدا بما حدث . . .

وقد تمسكت عزة بموقفها عندما سألها ابوها عما حدث ، وعن سبب ذهابها إلى الشاطىء في تلك الساعة المبكرة من اليوم ، فقالت له ببساطة انها انما كانت تقوم بنزهة ، ثم صادفت الدخش وهو منهمك في عمله فتبادلت معه بعض الحديث ثم شعرت بمغص جعلها تقطع نزهتها وتعود إلى البيت و . . هذا هو كل شيء . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وازداد الشيخ صديق قناعة بأن الحل الحاسم لهذه المشكلة التي بات يعتبرها ماسة بمركزه ، ومبعثا لقلقه وانزعاجه هو ان يجد لعزة عريسا مناسبا ، تطوى معه صفحة هذه المشكلة وينفض يديه منها بصورة نهائية . .

ولكنه فوجىء بعزة ترفض البحث في هذا الموضوع رفضا باتا ، وتؤكد له انها سعيدة بحياتها الحالية ولم تعد لديها اية رغبة في الزواج . .

وهزّ الشيخ صديق رأسه في حيرة ، فهو لم يصادف في حياته مشكلة من هذا النوع ، اذ عاشت بناته في كنفه ومطالبهن مجابة ، ورغباتهن لايحتاج تحقيقها إلى اي عناء ، اما هذه الابنة التي بلغت سن الزواج ، او كادت ، فقد وضعته في مواقف لايجد لها تفسيرا ، ولا يستطيع ، بالتالي ، ان يجد لها حلاً . .

وقال الشيخ صديق لزوجته وهما ساهران وحدهما في المجلس :

ـ البنت دي حيّرتني . . وماني عارف كيف اتفاهم معاها . .

وردّت الام كمن تهوّن الامر :

ـ هيّ راسها ناشفة شوية . .

ـ شوية ؟ . . دي راسها زي الحجر . . ابغى اعرف ايش تبغى . . ايش اقدر اعمل عاشانها . .

واطرقت الزوجة في اسف وهي تقول :

ـ الله يهديه . . الولد ابن الدخش ده . . لو كان . .

فقاطعها الرجل بحدة :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

– لو كان ايش ؟ . . هي الدنيا خلاص مافيها الا ابن الدخش ده ؟ . . على كل حال ابشرك . . الولد سافر . . .

وضربت الزوجة صدرها بيدها وهي تشهق وكأنها قد فوجئت بالخبر :

– سافر ؟ . .

ونظر اليها الشيخ صديق بدهشة وقال :

– ايش جرالك انتي التانية ؟ . . ماانتي عارفه انه مسافر . .

– لا والله . . ماكنت عارفة . .

– يمكن نسيت اقولك . . على كل حال بقاله داحين اكثر من اسبوع . . سمعت انه سافر بالمركب على مصر . .

واطرقت الزوجة طويلا ، وقد وجف قلبها ، واجتاح الخوف والقلق كيانها فقد قفز ذهنها في الحال إلى ابنتها ، وراحت تتساءل في سرها عما سيكون عليه رد الفعل لديها اذ تعلم بالنبأ . .

وقال الشيخ صديق وهو يلاحظ صمتها ووجومها :

– سرحانة في ايه ؟ . .

– ولاحاجة . . بس بفكر في سفر حسونة . .

– احنا مالنا وماله ؟ . . المسألة دي انتهت خلاص . . وكل واحد يروح في حال سبيله . .

– بس فكرك . . عزة . . عارفة ؟ . .

– وايه يعني اذا كانت عارفة والا لا ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واردف وقد اجتاح الغيظ المفاجيء كيانه :

— اسمعي . .هذي آخر مرة اسمع فيها كلام عن الموضوع ده . . كفاية بقى . . دوشتيني انتي وبنتك في حاجات هايفة عمره ماحد عاني منها زي ماعانيت انا . . وعمره ماحد نكس راسه زي ماعملت انا . .

ونهض اثر كلماته تلك متجها إلى غرفة النوم ، وكأنه يريد ان يؤكد موقفه هذا بصورة عملية . .

وبقيت الزوجة جالسة ، مطرقة في وجوم ، تقلب الامر على وجوهه ، وتحاول ان تتوصل إلى طريقة تحيط بها ابنتها بالخبر ، فتقطع الامل نهائيا من ابن الدخش ، وتعود سيرتها الاولى مرحا وسعادة وبعدا عن الهموم . .

ويبدو انها توصلت إلى قرار ما ، لان معالم الارتياح ارتسمت على وجهها فقامت بدورها إلى غرفة النوم وهي تستعرض في ذهنها الفكرة التي توصلت اليها ، وفي اعتقادها انها قد توصلت إلى الحل النهائي المنشود . .

• • •

في اليوم التالي كانت فاتن جالسة امام ام عزة وهي تصغي اليها بانتباه ، دون ان تخشى احداهما ان تقطع عليها عزة جلستهما ، فهي خارج المنزل في زيارة لبعض اقاربها ، وقد اختارت الام هذا الموعد بالذات لاستقبال فاتن والحديث اليها . . .

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي الفتاة حين عرضت لها الام تفاصيل « المشكلة » كما تراها ، ودون ان تحاول اخفاء موضوع تعلّق ابنتها بحسونة واعراض هذا عنها ، فقد ورد إلى ذهن فاتن حديث عزة الواثق الذي كانت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قد ادلت به اليها عند حديثها عن حسونة ، وتأكدها من انه قد بات ملك يمينها . :

وتمهلت الام في الحديث وهي تصل إلى اصعب نقطة فيه حين قالت لفاتن بارتباك وتلعثم :

— . . وامس . . سمعت من عمك الشيخ صديق ان الولد سافر لمصر . . ليلتحق بدراسته دون ان يكلف نفسه حتّى عناء وداع الشيخ الذي طالما حباه هو وعائلته بعطفه وكرمه . .

ورفعت فاتن رأسها بسرعة ، اذ علمت بنبأ السفر ، واستطاعت ان تدرك مغزاه في الحال ، ووثب ذهنها إلى رد الفعل الذي ستواجه به عزة ، ذات العنجهية والكبرياء ، هذا النبأ عندما تعلم به . .

واذ صمتت الام بعد ان انهت حديثها ، قالت لها فاتن متسائلة ، رغم علمها سلفا بجواب تساؤلها :

— وايش قالت عزة لما عرفت انه حسونة سافر ؟ . .

— هيّ ماتدري لسه . .

— ماتدري ؟ . . كيف ؟ . .

— اهو . . كده . . وانا ، يابنتي ، ابغاكي تكلميها انتي بشويش . . وتفهميها انها لازم تتزوج زي ماقال ابوها . . فيه الف واحد احسن من حسونة يبغاها . .

وهزّت فاتن رأسها في فهم ، ينبيء في ظاهره انها قد استوعبت المهمة المطلوبة منها ، ويتعدى ذلك ، في باطنه ، إلى ما سبق ان قالته عزة حول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثقتها المطلقة في ان حسونة رهن اشارتها ، وان رغبتها في الزواج منه هي منّة تتفضل بها عليه . .

وراحت الام تتبادل شتى الاحاديث مع ضيفتها الصغيرة بانتظار عودة عزة إلى المنزل ، وهي لاتفتأ ، بين الحين والحين ، تقطع تلك الاحاديث لتنبهها إلى ضرورة التزام اللباقة والحذر في ابلاغ النبأ إلى عزة . .

° ° °

ووصلت عزة . . فلم تفاجأ بوجود صديقتها فاتن ، فهي اكثر صديقاتها قربا إلى نفسها ، واكثرهن ترددا على منزلها لدرجة اقامت صداقة اخرى بين امها وصديقتها . . ولم تلبث الفتاتان ان انتقلتا إلى غرفة عزة الخاصة ، حيث راحت هذه تبدل ملابس الخروج وهي تغني بصوت خافت يدل على المرح والسرور . .

وتساءلت فاتن ببراءة تامة :

– هه . . ايش الأخبار ؟ . .

– اخبار ايه ؟ . .

– اخبار حسونة . .

ولمعت عينا عزة ، واقبلت على صديقتها تمسكها من يديها ، كلتيهما ، وهي تقول في حماسة وانفعال :

– اسكتي يافاتن . . حاجة مو معقولة . . من يومين تلاتة خرجت معاه في المركب زي عادتنا القديمة . . بس الحقيقة اننا ماخذنا بالنا من اللي حوالينا . . لاننا كنا نهرج . . ونهرج . . ومضت ساعات وما احنا حاسين بحاجة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشعرت فاتن في داخلها بأسى عميق ، ولكنها تمالكت نفسها وتساءلت بهدوء :

– كنتوا بتهرجوا في ايه ؟ . .

– كل حاجة . . الدراسة . . الزواج . . المستقبل . . الاولاد . .

– الاولاد كمان ؟ . .

قاطعتها فاتن دون وعي والاسى العميق يزداد في نفسها . .

– ايوه ياستّي . . الاولاد . . هوّ يبغى درزن اولاد . . وانا قلتله كفاية نص درزن . . اصله بلدي . . زي ما تعرفي . .

– وبعدين ؟ . .

– وبعدين اتفقنا نترك الحاجة دي للظروف . . واللي يقدّره ربنا نحمده عليه . .

وامسكت عزة عن الكلام ، وراحت تحدق في وجه صديقتها الذي اكتسى جمودا عجيبا روّعها ، فقالت بقلق :

– مالك يافاتن ؟ . . حاسّه بحاجة ؟ . .

واطلقت فاتن زفرة حرّى ، تدل على ماتشعر به من الحزن والهم والألم . .

– خير ان شاء الله . . ايش الحكاية ؟ . .

وقالت فاتن بصوت خافت :

– مدري والله . .

– ايش تقصدي يافاتن ؟ . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقالت فاتن وهي تتحاشى ان تلتقي عيناها بعيني صديقتها :

ـ انا خايفة ، يا عزة ياحبيبتي ، انك تكوني غلطانة في التواريخ . .

ـ ليه ؟ . . وايّ تواريخ ؟ . .

ـ لانه حسونة . . سافر بقاله اكثر من اسبوع . .

قالت فاتن جملتها الاخيرة بسرعة ، وبلهجة حاسمة ، وكأنها رأت ان من الافضل ازجاء النبأ اليها دفعة واحدة . .

وامتقع وجه عزة ، اذ يبدو ان النبأ قد اذهلها ، فجحظت عيناها في رعب وراح جسدها يرتجف وكأن قشعريرة قد اصابته ، وحاولت ان تفتح فمها لتتكلم ، ولكن الكلام ، على مايبدو ، قد استعصى عليها . .

وفجأة ارتسم على وجهها الم هائل ، ووضعت يدها على صدرها وكبتت صرخة الم كادت ان تنطلق منها ، وانحنت على ركبتيها وهي تئن انينا مكتوما وتشهق في بكاء صامت ، تماما كما سبق ان وقع لها يوم ان رأت والد حسونة على الحور . . .

وصرخت فاتن في رعب :

ـ عزة . . حبيبتي عزة . . مالك ؟ . .

وحاولت ان تبعد يديها عن صدرها ، ولكن هذه دفعتها عنها بشيء من العنف ، وارتمت على الفراش وهي تتاوى ، وقد بدا ان الما عظيما قد برّح بها . .

وحارت فاتن فيما تفعل ، فراحت تتلفت حولها وكأنها تبحث عن عون ، ثم اندفعت خارج الغرفة وهي تنادى ام عزة بصوت عال . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعبثا حاولت الام والصديقة ان تعرفا مابها ، وحين اقترحت فاتن استدعاء طبيب تحاملت عزة على نفسها ورفعت رأسها وقالت :

ـ ما ابغى دكتور . .

وقالت الام في اشفاق :

ـ لكن يابنتي . .مايصح كده . . لازمك حكيم . .

فردت عزة في عصبية :

ـ قلتلكم ما ابغى حكيم . . ولو جبتوه غصب عني ماتدروا ايش اسوّي في نفسي . .

واغمضت عينيها في هدوء ، وكأنها تعبّر عن رغبتها في عدم الاسترسال بالحديث . .

وتبادلت الام وفاتن نظرات حائرة ، ثم مالبثتا ان تسللتا من الغرفة على رؤوس اصابع الاقدام وكأنهما تخشيان ايقاظ الفتاة . . النائمة . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واحدة ، لاتلميحا ولاتصريحاً ، وحتى لو ذكره احد بصورة عابرة ، كانت تلتزم الصمت وعدم الاكتراث وكأن كل ماكان منها حول الفتى اضغاث احلام ، وخيالات لا اساس لها من الصحة . .

ثم حدث تطور آخر – لاحظه الشيخ صديق في الحال – اذ لم تعد عزة تتحاشى ذكر حسونة كما كانت تفعل قبلا ، بل – على العكس – كانت تفتعل المناسبات لكي تتحدث عنه ، وتقذفه بشتى الصفات والنعوت التي تدل على الاستخفاف والاحتقار . .

لقد راحت تروي لصديقاتها ، على مسمع من امها ومن صديقتها فاتن اللتين تعرفان الحقيقة . كيف نبذت حسونة بقسوة ، ورفضت كل توسلاته ورجاء ابيه وامه لكي توافق على الزواج منه ، وتروح تنسج قصصا غريبة – تسمعها الام في ألم – كيف ابلغت اباها ، مرة ، رفضها القاطع للزواج من ذلك الفتى ، وكيف خرجت امه ، ذات يوم ، مكسورة الخاطر من لدن امها بعد ان أزجت اليها أمها أن عزة ترفض الزواج من ولدها ، بل وروت حكايات كثيرة عن الليالي التي كان حسونة يقضيها هائما على وجهه في الحارات المؤدية إلى منزل ابيها ، وكيف ايقظه « العسة » مرة عندما نام عند عتبة باب البيت . .

وكانت صديقاتها اللواتي لايعرفن الحقيقة يصغين إلى حكاياتها بشغف ، ويرددن عبارات الشفقة على ذلك المحب المستهام . .

اما فاتن فكانت تجتاح جسدها رعدة من الخوف وهي تعلم ان ما تقوله عزة هو عكس الحقيقة ، فتدهش كيف وجدت عزة الجرأة اللادلاء بأكاذيبها امامها وعلى مسمع منها وهي تعلم تماما ان فاتن تعرف الحقيقة المروعة كاملة حتى بات ذلك مصدر قلق لفاتن خوفا على صديقتها وتخوفا من العوامل التي تجعلها تلجأ إلى ذلك الاسلوب الغريب للهرب من الحقيقة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحارت فاتن ماذا تفعل . . فأم عزة امرأة بسيطة لاتدرك حقيقة ماتقول ابنتها وبواعثه النفسية . . فلافائدة اذن — قالت فاتن لنفسها — من الحديث اليها في ذلك . . والاب يقف حائرا ، مندهشا ، امام ذلك التحول دون ان يستطيع له تفسيرا ، بله ان يتصرف بشيء حياله . .

وحاولت فاتن ان تخاطب عزة ، وان تقول لها بلباقة انها تجانب الصواب فيما تقول ، وانه خير لها ان تمتنع كلية عن الاتيان على ذكر الفتى الذي مضى ، والذي لم يسيء اليها بشيء ، وانه انما كان صادقا معها ومع نفسه حين قال صراحة انه لايرغب في الزواج . .

واصغت اليها عزة صامتة ، ثم قالت لها ببطء وكأنما تريد التعبير عن فكرة تجول في خاطرها :

— ايش رأيك ، يافاتن ، لو تزوجت ؟ . .

وفوجئت فاتن بالسؤال ، فنظرت اليها بدهشة شديدة ، وقبل ان تعلق بشيء ، استطردت عزة قائلة ببطء وكأنها تحدث نفسها :

— بدي انتقم منه . . بدي احرق قلبه . . بدي اخلليه يندم طول حياته . .

وتمتمت فاتن بقلب واجف :

— ايش راح تسوّي ؟ . .

وجاءها الجواب قاطعا كحد السيف :

— اتزوج . . اتزوج واحد تاني . .

• • •

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مع ان الشيخ صديق كان قد حرص ، طوال مراحل تلك المسألة ، على ان يواصل معاملته الطيبة لصديقه حامد الدخش ، فان الدخش نفسه قلّل من زياراته له ، بل وتناقصت طلباته لدى الشيخ صديق ، فلم يعد يطلب منه المال بتلك البساطة الاولى ، ولم يفت الشيخ صديق ان يلاحظ ان الرجل كان يضغط مصروفاته ويزيد من عمله لكي يكون مايأخذه من الشيخ صديق ثمنا لما يقدمه له من انتاج ، وليس سلفة كما كان الشأن من قبل . .

كان الشيخ صديق يدرك ان الامر خارج عن ارادة الدخش كما هو خارج عن ارادته ، لان خلجات القلوب لاتفسّر ، بل وما ينبغي ان يطلب لها تفسير ، فاذا كان حسونة قد التزم بموقفه ذاك فانه لم يفسره بأكثر من انه نابع من شعور داخلي فيه ليس غير . . واذا كانت عزة قد تقلبت بعواطفها ومواقفها تجاه حسونة مابين الاقبال والاعراض ، فذلك امر يخصها وحدها ولايستطيع احد ان يجد — او يطلب — له تفسيرا . .

وبات الاسى حليف الشيخ صديق ايامه كلها ، حتّى اخذ يتحسر على الايام التي مضت قبلا ولم تكن تلك « المشكلة » قد ظهرت فيها . . وبحكمته وبعد نظره آثر ان يكتفي بدور المراقب والمتأمل دون ان يحاول التدخل في شيء ، اذ كان يأمل في يوم تنسى فيه عزة غرامها الفاشل ، وتتجه بعواطفها اتجاها طبيعيا يجعلها تقبل بالزوج المناسب من بين العديد من الشباب الذين كان اهلوهم يقصدونه طالبين يدها . .

وكأنما انزاح عن كاهله جبل ثقيل حين ابلغته زوجته ان عزة قد اعلنت عن رغبتها في الزواج ، فانفرجت اساريره بابتسامة سعيدة ، وتنفس الصعداء من اعماق قلبه وهتف بابتهاج :

— الحمد لله . . الحمد لله . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واردف مضيفا انه سيباشر في اتخاذ مايلزم في الحال ، وانه لن يهدأ له بال حتّى يرى عزة في عصمة زوج يحبها ويحميها ويواسي جراح قلبها ، ويجعلها تتطلع إلى الحياة في تفاؤل واستبشار . .

ولم يكن ايسر على الشيخ صديق من ايجاد الزوج المطلوب . . فالشباب اللائقون كثر . . وآباؤهم ممن تربطهم بالشيخ صديق اطيب الصلات . . وكانت المفاضلة بينهم هي المشكلة . .

وهكذا راحت الام تنقل إلى ابنتها ، اولا بأول ، انباء الخطاب الراغبين في الزواج منها ، وتشرح لها مميزاتهم وصفاتهم ، وتدخل بين كلمات حديثها عبارات تنصح بها ابنتها الا تأتي على ذكر حسونة لاسيما امام صديقاتها اللواتي كن يتناقلن ماتقوله عزة في الطعن بحسونة، والاقلال من شأنه والتوكيد على انها هي التي نبذته ورفضت الزواج منه . .

* * *

هتفت ام حسونة لحظة سماعها صوت طرق باب المسكن وهي تقفز اليه لتفتحه :

ـ حسونة . . ابني حسونة . .

فلقد كانت لحسونة طريقته الخاصة في طرق الباب ، هي عبارة عن ضربات سريعة قصيرة تتبعها ضربة قوية . . ثم يتكرر ذلك إلى ان يفتح الباب . .

ووقفت الام تنظر إلى حسونة في ذهول ، وهي تراه وقد طالت قامته عن ذي قبل ، واشتد عوده وارتدى بذله « افرنجية » لاتخلو من اناقة ، وعلى رأسه طربوش احمر طويل ، بينما زين وجهه شارب رفيع . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث عشر

كان واضحا ان شيئا ما قد حدث في ذلك البيت الهادىء ، الذي ماعرف يوما الا اصوات السعادة وضحكات المرح . . والذي كان يبدو وكأن الهموم التي يعيشها الآخرون قد جانبته فلا تقصده ولاتتجه نحوه ولا تقترب منه . .

ولقد بدت آثار ذلك الشيء الغامض الذي حدث ، على هيئة كل من في المنزل ، منذ ان دخل حسونة حياة الابنة الكبرى عزة ، وما كان من امر الفتى مع الفتاة . .

وكان الاب يرقب ما يجري في بيته بألم عميق مكبوت ، ويتمتم بعبارات الامتثال لقضاء الله وارادته ، وينظر في دهشة إلى ابنته عزة التي اكتسى وجهها قناعا غريبا من الهدوء والصمت ، فهي لم تعد تأتي على ذكر حسونة بكلمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واطلق حسونة ضحكة سعيدة وهو ينظر إلى معالم الدهشة على وجه امه ، لاسيما عندما غطت وجهها بطرف منديلها في حركة غريزية وكأنها تقف امام رجل غريب . .

وقال حسونة وهو يضع الحقيبة التي كانت في يده على الارض ويقترب منها فاتحا ذراعيه :

ــ كيف حالك يا امي ؟ . . .

وزال التردد من نفس الام ، فألقت بنفسها بين ذراعيه ضاحكة باكية وهي تحاول ان تطلق زغرودة تعبر بها عن فرحتها . .

وشعر حسونة بشيء من الكدر حين علم ان اباه ليس في المنزل ، وانه ذهب منذ الصباح الباكر إلى منزل الشيخ صديق ليذهب واياه إلى المستشفى . .

ــ المستشفى ؟ . .

هتف حسونة بانزعاج متسائلا ، وهزت الام رأسها قائلة :

ــ ايوه ياعيني . . المستشفى . .

ــ ومين الـ . . .

ــ الست عزة . . ربنا يشفيها وياخذ بيدها . .

ــ آه . .

علق حسونة وهويطرق بنظره إلى الأرض ، فمع انه شعر بأسف وانزعاج لعلمه بأن عزة هي نزيلة المستشفى ، الا انه لم يشأ ان يسترسل في التساؤل والاستفسار خوفا من ان يفسر تساؤله على غير حقيقته ، وان يعيد من جديد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تلك القصة المؤلمة التي كان طرفا فيها رغما عنه ، فرأى ان الصمت هو خير مايصنع وان كان يتحرق شوقا لمعرفة ماجرى خلال غيابه في سنته الدراسية الاولى . .

وفيما هو في خواطره تلك ، كانت امه تردد عباراتها التي لاتنقطع في الترحيب بقدومه ، وابداء الاعجاب بالتغير الملحوظ الذي رأته عليه ، والتعليق على الشارب الذي اعتلى شفته العليا وابداء الاستغراب لتلك الملابس التي يرتديها فكان يجيب على احد تعليقاتها تارة ، ويسدر في خواطره تارة اخرى ، حتى اذنت له امه اخيرا ان ينهض ليبدل ثيابه كي تراه كما اعتادت ان تراه ، كما قالت ، ولتعد له شيئا من الطعام ريثما تعود اخته . .

* * *

ومضت بضع ساعات ، كانت الاختان خلالها قد عادتا ، واعادتا تلك الطريقة الحارة في الترحيب بالاخ الغائب ، وابدت الام استغرابها ، لان الاب قد تأخر كثيرا عما كان متوقعا ، الامر الذي نشر في المكان وجوما مفاجئا فتبادل حسونة النظرات مع امه التي فهمت معنى تلك النظرات في الحال ، فأطرقت وهي تتمتم بقلب واجف :

ــ ربنا يستر . .

وفي هذه اللحظة فتح باب المسكن ، ودخل الدخش وقد انحنى كتفاه ، والتصقت نظراته بالارض وكأنه ينوء بحمل ثقيل ، وقد اكتسى وجهه جمودا رهيبا ، ولكنه لم يكد ير ولده حتى شعت عيناه في سعادة فاستقبله بذراعين مفتوحتين وراح يضمه اليه في شوق شديد وهو يردد :

ــ الحمد لله على السلامة يا ولدي . . الحمد لله على السلامة ياولدي . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبدا وكأن رؤيته لولده قد ازاحت عن قلبه بعض ماكان يرتسم على وجهه من همّ والم ، فتهالك على الارض مسندا ظهره إلى الجدار ، كعادته ، وهو يقول :

ــ ماشاء الله . . لقد تغيرت كثيرا يا ولدي خلال هذه الفترة التي غبتها . . لقد اصبحت رجلا حقا . .

وكان واضحا ان الرجل مشتت الفكر والوجدان ، مابين اعلان فرحته بولده الذي عاد بعد غياب بدا له طويلا ، وما يحتمل في نفسه من عوامل اكسبت هيئته ذلك المظهر الكئيب . .

وصمت الجميع ، وكأنهم قد لاحظوا ذلك التناقض الواضح في مشاعر سيد البيت ، وانهم ينتظرون منه ان يكون البادىء في ايضاح الامور وبيان ما يختلج في نفسه . .

واخيرا زفر الاب زفرة قوية وقال بصوت اجش :

ــ ايه . . لااله الا الله . . انّا لله وانا اليه راجعون . . عزة . . تعيشوا انتو . . لقد صرعها المرض . . وانتقلت إلى رحمه الله . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

لم يدر حسونة كيف قادته خطاه إلى شاطىء البحر ، الذي كان نور النهار قد بدأ ينحسر عنه فاكتسب الافق شحوبا كئيبا ، في صورة طالما رآها الناس في مثل ذلك الوقت على شواطىء البحار فكانت لكل منهم ردة فعل تتناسب مع حالته النفسية في تلك اللحظة . .

بعضهم يرى فيها لوحة فريدة الجمال للطبيعة الساحرة ، حيث تتداخل الوان الشفق . لتلهم الشعراء والرسامين والمصورين لوحات فنية فذة . .

وبعضهم يرى فيها تعبيرا حيا عن الحياة المائلة للافول ، فاليوم قد اوشك على ان يولي ، والشمس التي ملأت النهار بنورها الساطع قد اخذت في الاختفاء فكأنه لم يكن هناك نور ، وكأنه لم تكن هناك شمس ، وكأن ماكان قد مضى مع الشمس التي لم يتبق من نورها سوى تلك الاشعاعات **الملونة التي توشك** ، **هي** الاخرى ، على الانحسار ، لتترك مكانها للظلام . . والسواد . . والوحشة . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولقد اتجه ذهن حسونة في الحال إلى البحر منذ ان اعلمه ابوه بما كان ، وبأن عزة قد ذهبت إلى الملأ الاعلى . . فشعر بحاجة شديدة إلى الاختلاء بنفسه ، وترتيب خواطره ، ومحاسبة نفسه فأين يمكن ان يتجه ذهنه ، وهو ابن الصياد وعشير البحر وجاره ، الا إلى البحر ، يبثه افكاره ويزجي اليه بنجواه ؟ . . .

وهكذا . . راح يتمشى تارة ، ويجلس على صخرة ناتئة فوق الخور تارة اخرى ، وهو يفكر فيما سمعه من ابيه . .

لقد روى له ابوه قصة وفاة ابنة الشيخ صديق بصوت متهدج وعبارات متقطعة ، وكلمات ساذجة كان يقطع عباراتها ليؤكد لولده قناعته بأن هذه هي ارادة الله تعالى ، وان لكل اجل كتابا ، وان الاعمار هي من قبل ومن بعد بيد الله الذي خلقها وحدد آجالها . . .

ترى . . ماذا اراد ابوه ان يقول ؟ . .

اتراه كان يريد ان يبعد عن ذهن ولده انه مسئول ، بشكل ما ، عن موت الشابة الجميلة ؟ . . .

اتراه يعتقد — بسذاجته — ان الموقف الحاسم الذي اتخذه حسونة من الفتاة ورفضه لعروض ابيها السخية هي السبب في انتهاء اجل الفتاة وموتها ؟ . . . وان تكراره لعبارات الايمان بأن الاعمار بيد الخالق هي لابعاد تلك الفكرة عن ذهن ولده ؟ . .

كان حسونة يشعر بحزن عميق ، وأسى جارف ملكا عليه نفسه . . فلقد عزّ عليه ان تذبل تلك الزهرة النضرة ، وان يصبح التراب مآل جسدها الذي كان يضجّ بالحياة والحيوية والمرح . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

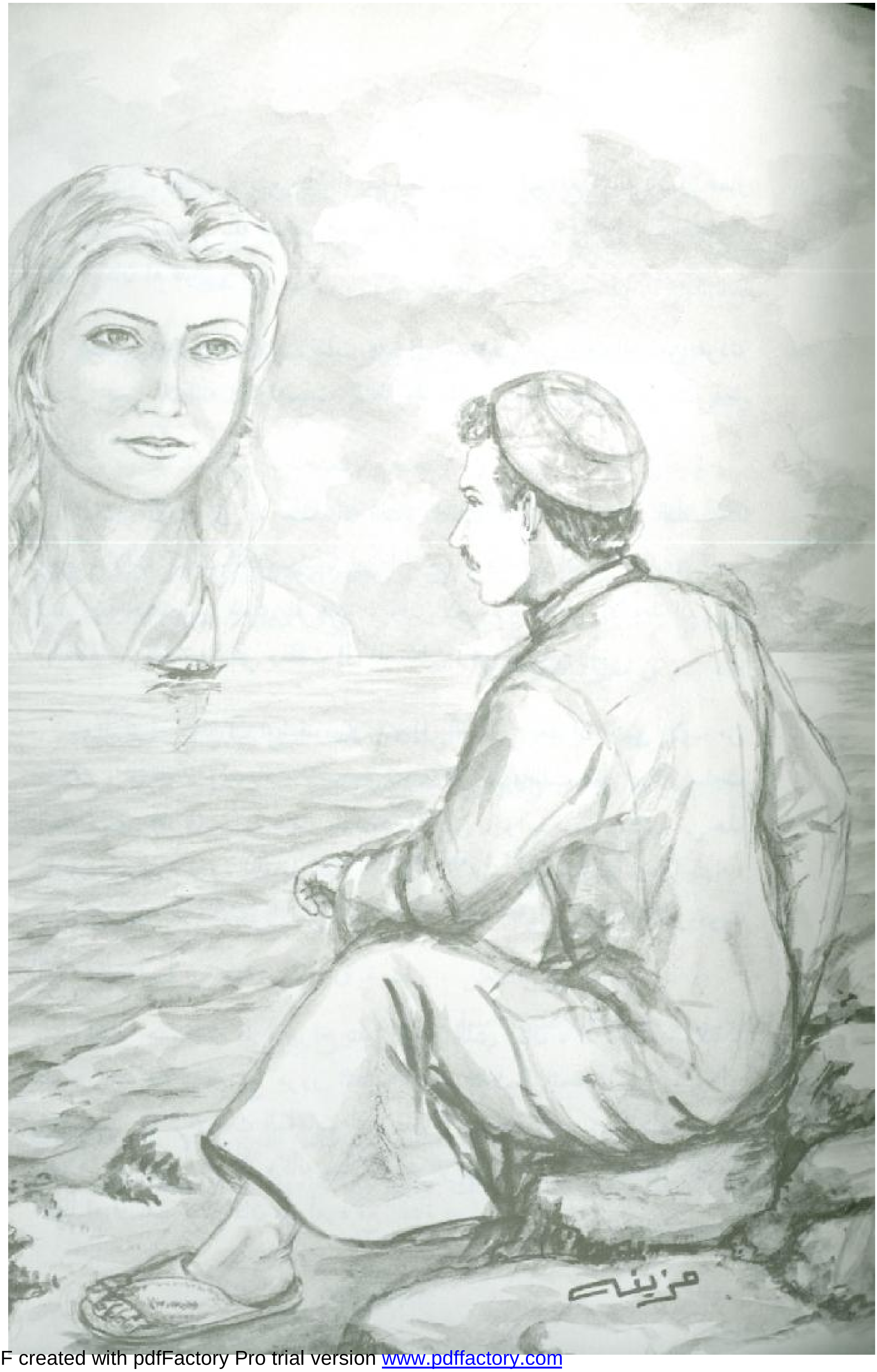

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكنه ، قط ، لم يشعر بأن له يدا فيما حدث ، فهو مع ايمانه بأن الاعمار بيد المولى ، لم يشعر بأنه قد تصرف بطريقة خاطئة ، او انه اساء إلى الفتاة بشيء كثيرا كان ام قليلا . . .

لقد روى له والده كيف نقلت عزة إلى المستشفى قبل يوم واحد من عودته وكيف تبين للاطباء انها اصيبت بجلطة مفاجئة لم يتمكن الطب من ان يفعل شيئا ازاءها . .

واشار الاب إلى أنه يعتقد ان الفتاة كانت تعاني من مرض القلب منذ فترة ، وانها كانت تكتم ما بها عن الجميع ، وتدعي ان الالم الذي كانت تشعر به احيانا ليس سوى الم عابر ، وان الامر لم ينكشف الا بعد ان برّح بها الالم ، وفقدت الوعي ونقلت إلى المستشفى وهي في آخر رمق . . .

وتذكر حسونة ان امه قد سارعت إلى القول ، بعد ان انتهى الاب من كلامه ، ان الفتاة وقد باتت لاتستحق سوى الترحم وطلب الغفران قد اساءت اليه – يغفر الله لها – ووصفته بأوصاف لاتليق ، وانها سمعت كثيرا من هذا القبيل على السنة نسوة ابلغنها ذلك ، وكأنما الام . على بساطتها وسذاجتها ، تريد ان تنفي هي الاخرى من ذهنه ما قد يتبادر إليه من ان له يدا في موت الفتاة . . .

وتنهد حسونة في الم ، وراح يتأمل البحر الذي كان ، اذ ذاك ، ساكنا ، تتموج صفحته برفق مع مرور النسيم المشبع بتلك الرائحة المميزة ، وراح يستعيد في ذاكرته تلك الساعات التي قضاها بصحبة عزة ، والكلمات التي تبادلاها ، وراح يتساءل وكأنه يسأل البحر الرأي والمشورة ، عما إذا كان قد اخطأ ام اصاب فيما كان من أمره مع الفتاة . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان يشعر بشيء يعتصره من الاعماق . . فهو يتمزق ما بين شعور بذنب لم يرتكبه . . وشعور بالرضى لانه اتخذ القرارات والمواقف المناسبة . . فحب هذه الفتاة قد ولد مشوها . . وكان مصيره الموت على اية حال . .

كان صعبا لحب من هذا النوع ان يعيش . . ليس لانه من جانب واحد . . وليس لمجرد الفوارق المادية . . ولكن لانه نزوع إلى التملك . .

لم يكن فيه سمو الحب وما يقتضيه من تضحيات يستعذبها المحب . . كان فقاعة على السطح فذهب كما تذهب الحمى العارضة . .

ولم ينكر حسونة على نفسه ان حزنه على الفتاة لم يكن حزن المحب الذي فقد اعز من يعرف . . بل كان حزن من عرف شخصا تخطفه الموت فحزن لانه كان في مقتبل العمر . . .

انه لايشعر بألم الفراق . . او عذاب البعد الذي يتحدث عنه المحبون . . وانما يشعر بالرثاء . . والالم شيء آخر غير الرثاء . .

ورفع رأسه إلى السماء وابتهل في صمت :

ـ رب ارحمها . . وارحمنا . . فرحمتك اوسع من ذنوبنا . . .

واستدار عائدا إلى المسكن ، وقد غرق قرص الشمس في اعماق الافق وخيمت على المكان ظلمة دامسة .

• • •

في اليوم التالي ، كان حسونة يسير مع الناس الذين جاؤوا يشيعون الراحلة إلى مثواها الاخير ، معتبرا ذلك واجبا عليه تجاهها ، اكثر مما اعتبره مجاملة لابيها واهلها . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولم يفته ان يلاحظ ان بعض الناس كانوا ينظرون اليه نظرات غريبة ، ولكنه تجاهلها وسار مع المشيعين مركزا نظراته على الارض . .

وفجأة سمع شخصا يسير على مقربة منه يقول بصوت مسموع مخاطبا زميله السائر إلى جانبه :

– لااله الا الله . . دنيا . . . صحيح اللي استحوا ماتوا . .

وشعر حسونة بقشعريرة تجتاح جسده ، فهو قد فهم ان الرجل يعنيه بالذات ، وانه يعرف شيئا عن امره مع عزة ، فأراد ان يعبّر عن استنكاره لمشاركة حسونة في الجنازة بتلك العبارة التي خاطب بها زميله وهو يتعمد ان يسمعه حسونة . .

وسأله زميله :

– تقصد ايه بكلامك هذا ؟ . . وتقصد مين ؟ . .

فقال الرجل وهو يرفع صوته اكثر من ذي قبل وينظر إلى حسونة بطرف عينه :

– اقصد الناس اللي يقتلوا القتيل ويمشوا في جنازته . . لاحول ولاقوة الا بالله . .

وتصاعدت الدماء إلى رأس حسونة حتى احس بأذنيه وهما تكادان تلتهبان ، وادار بصره فيما حوله بحركة سريعة ليفاجأ بأن الناس كانوا يسددون نظراتهم اليه اكثر مما تصوّر ، وان الاتهام الصريح يطل من تلك النظرات . .

وحاول ان يتجاهل تلك النظرات ، وان يواصل طريقه ، ولكنه عجز ، فلقد كان صعبا عليه ان يحتمل عبارات التلميح ونظرات التجريح التي بدأها ذلك الرجل . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

احس بأنه يكاد يختنق ، وانه يريد الابتعاد بأسرع وقت . .

وتباطأت خطواته ، ليتقدمه من كان وراءه ، حتى اذا اصبح في الصف الاخير ، انسل بخفة نحو احد الأزقة الجانبية وراح يحث الخطى مبتعداً دون ان يكون في ذهنه مكان معين يذهب اليه . .

وراح يمشي ويمشي ، وتلك العبارات اللاذعة تضج في رأسه . .

وفجأة لاح البحر امامه ، بصفحته المتماوجة اللامعة ، وهدوئه الرهيب . .

وتوقف لحظات ليملأ صدره بهواء البحر . . ثم واصل السير نحو الخور وقد شعر براحة غريبة تسري في كيانه . . فلقد اتجه تلقائياً نحو صديقه القديم ليلقي اليه بأحزانه ومتاعبه . .

ومد يده . . يعبث في مياه الخور وهو مستغرق في افكاره . .

ثم رفع عينيه وراح يحدق في الافق . .

وبدأ الدمع يترقرق في عينيه . . فقد تذكر « الدخش » . . وتمنى الا يتسبب له في مزيد من الجراح . . .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفهرس

* الاهداء ٥
* مقدمة ٦
* أريده حباً ١٢
* مولوي ٤٦
* كريستينا ٦٢
* الزهور الزرقاء ١٠٦
* جراح البحر ١٣٧

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للمؤلف

- الجيولوجيا الاقتصادية (الطبعة الثانية) .
- المعادلة الحرجة .
- نظرات علمية حول غزو الفضاء .
- اليد السفلى (مجموعة قصصية) .
- الأطباق الطائرة – حقيقة أم خيال .
- فتاة من حائل (رواية سعودية) .
- جراح البحر (مجموعة قصصية) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

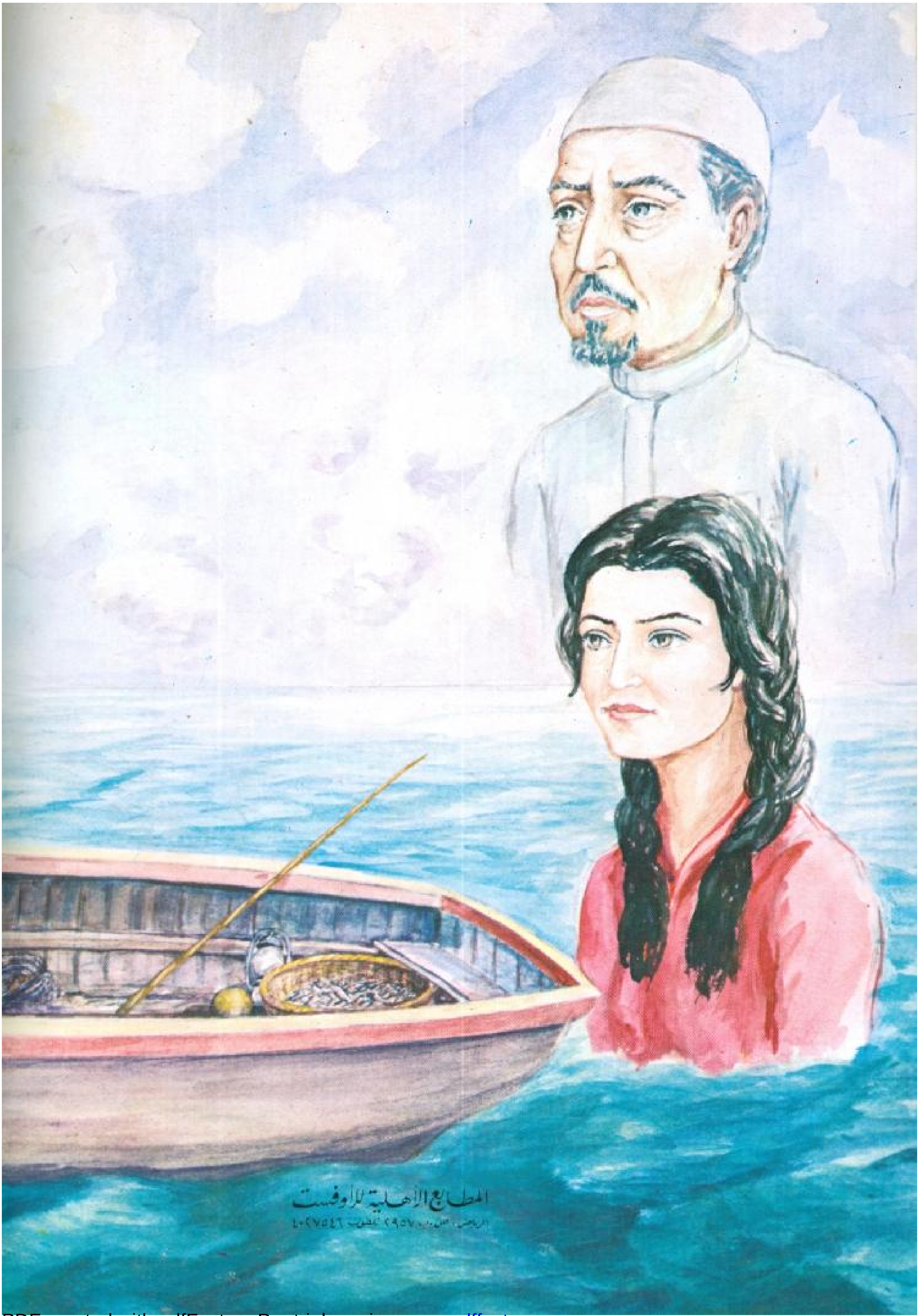

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com